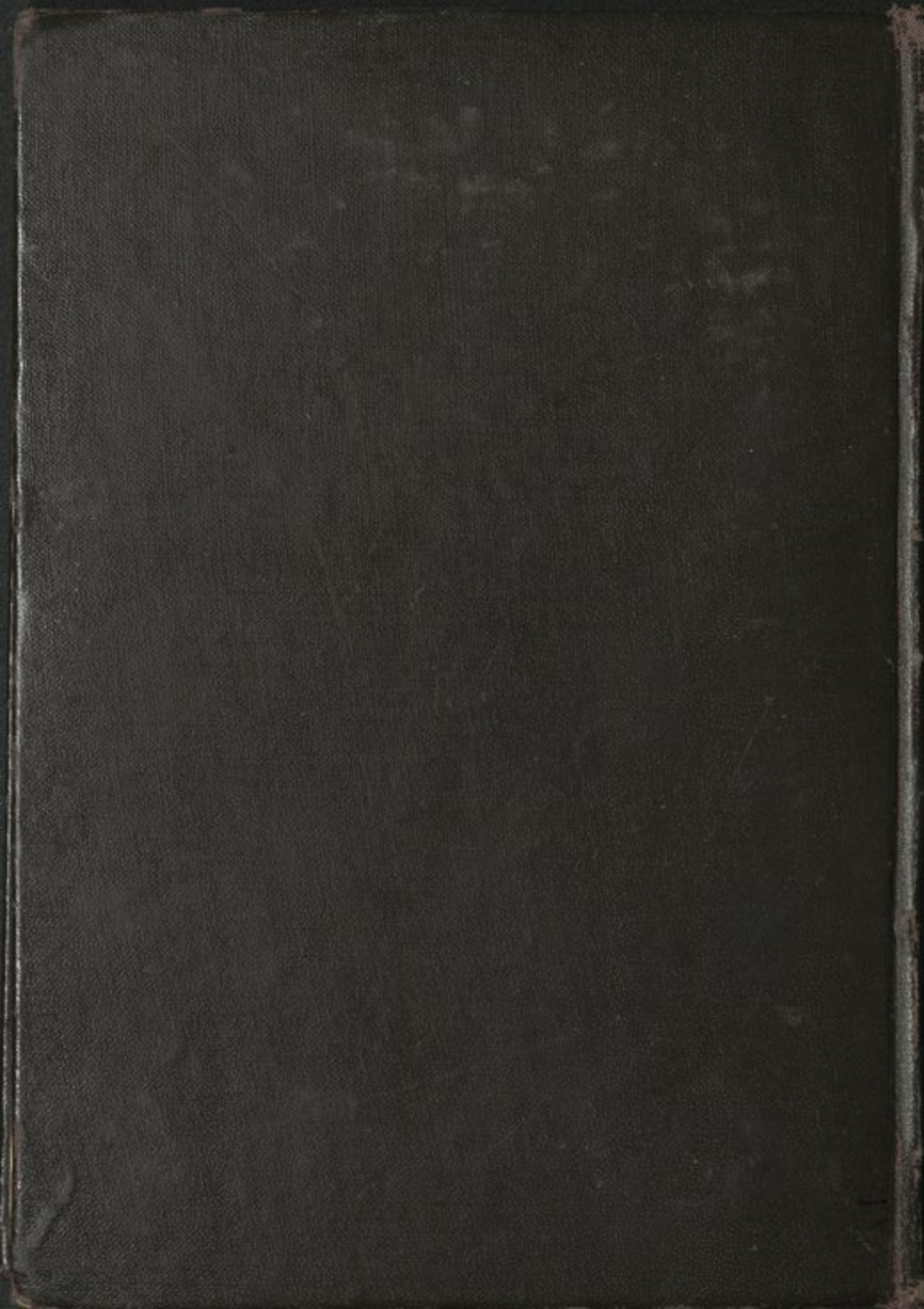




تجليد
سالم النقر
بيروت - المزرعة



100 81 61

41221

JUN 1975

1911



320.1
Ha438LH
C.1



العدد الرابع

تأملات في السياسة

بقلم توفيق الحكيم



مقدمة

بقلم احمد بهاء الدين

عندما تفضل الاستاذ توفيق الحكيم ودعاني الى ان اكتب مقدمة قصيرة لهذا الكتاب .. وقعت في حيرة شديدة .

كيف اكتب هذه المقدمة ، ولم تمض على سنوات ، عندما كنت اجلس الساعات على مقعد خشبي قاس في دار الكتب أنتظر العامل الذي يحضر لي كتب توفيق الحكيم لاغرق في قراءتها ماخوذاً مبهوراً حتى يلد جرس الانصراف ؟؟ وعنده اكنت ادخر مصروفي لكي اقتني نسخة خاصة بي من « عودة الروح » ؟ ..

ثم .. ماذا أقول في هذه المقدمة .. وقد أصبحت اليوم أخالف الاستاذ توفيق الحكيم في كثير مما يذهب اليه .. ربما في هذا الكتاب بالذات ؟ ..

وقبل أن أبت في هذه الحيرة برأى ، كنت قد غرقت في كتب توفيق الحكيم ، أخرجتها جميعاً من مكانها في مكتبتى وأخذت أعبر سطورها مرة أخرى ، لا أذكر رقمها بين المرات التي قرأت فيها هذه المؤلفات من قبل .



ووجدتني مرة أخرى مع رموز شهرزاد ، وأبطال عودة الروح ،
وجو يوميات نائب في الأرياف .
ووقفت عند ملاحظة غريبة ..

لقد قضى توفيق الحكيم عشر سنوات هي « زهرة عمره » بين
الرابعة والعشرين والرابعة والثلاثين تقريبا .. قضائها يكتب
ويجرب .. ولا ينشر ! ..

كان قد تعلق قلبه بالمرح تعلقا شديدا ، ووضع وهو طالب
في الجامعة مسرحيات لفرقة عكاشة ، ولكنه بعد أن خبر المسرح
المصرى أراد أن يصنع له شيئا . شيئا يرفعه الى مرتبة المسرح
العالمى ، ومضى توفيق الحكيم يدرس ويقرأ ويحاول .. وينتج
الصخر . وكانت أمامه المشاكل الكثيرة التى تتراكم أمام كل
رائد من الرواد الذين يقتحمون أرضا جديدة . وقد كان المسرح
والرواية أرضا جديدة على الأدب العربى . كانت أمامه مشكلة
اللغة ، وكيف يجد أسلوبا موجزا بسيطا يلئم الحوار ،
بدلا من أسلوب المقالات المطولة الذى كان سائدا . وكان أمامه
أن يتقن الصنعة المسرحية ويضع يده على أسرارها ، وأن يعرف
كيف يجذب متفرجا ليس له ماض طويل فى رؤية المسرح ،
كيف يجذبه الى المسرحية من ساعة رفع الستار الى ساعة
اسدائها . وكان أمامه بعد ذلك أن يضع فى مسرحياته معان
كبيرة غير ما يبدو على سطح الحوادث . أن يضع فى أبطالها
أفكارا لا مشاعر فحسب .

وتنقل توفيق الحكيم كثيرا بين القاهرة وباريس والريف
المصرى البعيد ، عاش بين الفنانين والشعراء والرسامين فى
مونمارتر وبين الفلاحين والجنود والحفر فى القرية المصرية .
ولكنه ظل أينما ذهب يحمل فى قلبه ورأسه وحقائبه دراساته
وتأملاته ومحاولاته لخلق مسرح مصرى ورواية مصرية .. وفى
مصرى ..

عشر سنوات قضائها توفيق الحكيم - حقا لا مجازا - فى
محراب الفن .. يكتب غير متسرع ولا متعجل ولا متلهف على
النشر . عشر سنوات مضيئة كتب فيها أول مسرحية
بالمعنى الحقيقى : أهل الكهف ثم شهرزاد .. غير : الزمار وحياة
تخطمت والخروج من الجنة والشاعر ورصاصة فى القلب ..

وكتب فيها اول رواية واقعية مصرية « عودة الروح » .. ثم
« يوميات نائب في الارياف » .

كل ذلك .. قبل أن يدخل اسمه الحياة الادبية بنشر « اهل
الكهف » ، على استحياء شديد ، سنة ١٩٣٣ ..

المس في ذلك درس لنا .. نحن شباب هذا الجيل ؟ ..
ان الشباب من أبناء هذا الجيل يريدون أن يصنعوا - باخلاص -
اشياء باهرة . وأن يقفوا بالانتاج الادبي والفني خطوات هائلة .
ولكنهم لا يبدلون من أجل ذلك الجهد والاصرار اللازم لتحقيق
ما يبتغون . والظاهرة التي يجب أن نعتزف بها هي ما يسود
من تعجل النشر وتعجل الشهرة وتعجل الكسب .. مما يجعل
العمل الفني يخرج مبتورا ناقصا غير ناضج ، ويجعل النقد يبدو
أحيانا في ثوب الرغبة في الهدم والتسليق واحداث الضجة
فحسب .

ولا ينطبق هذا الكلام طبعا على الجميع . ولا هو ينفي جهود
المخلصين ..



والانتاج الذي جاء به توفيق الحكيم في هذه السنوات الاولى
هو - في رأيي الشخصي - أروع انتاجه على الإطلاق .. فهذه
الاعمال الاربعة الكبيرة : عودة الروح و يوميات نائب في الارياف
و اهل الكهف و شهر زاد .. هذه الاعمال ما زالت هي القمة في
انتاجه كله . وما زالت هي التي تقترن باسمه قبل سواها .
وما أنتجه بعد ذلك يدور في فلك هذه الاعمال .. أو هو بمثابة
« تطبيقات » مختلفة لها !! .

وسوف يذكر التاريخ الادبي أن ما أضافه توفيق الحكيم
أساسا في تطور الادب العربي قد أضيف في هذه السنوات
الاولى ، ألا وهو : الشكل الفني للقصة الواقعية المصرية
و المسرحية المصرية . فالي ما قيل ظهور توفيق الحكيم كانت
القصة في اللغة العربية سردا وليس عملا فنيا دقيقا ، كالبنا
الهندي .

وإذا كان توفيق الحكيم قد هجر بعد ذلك تجربته الرائعة
الاولى في الرواية الواقعية المصرية .. فإن هجره لها لم يقلل
من قيمتها .. فقد ظلت مثلا يحتذيه الآخرون !! ..

والتهمة الاولى التى توجه الى توفيق الحكيم - من الشباب
بوجه خاص - هى انه قضى السنوات الاخيرة معتصما ببرج
عاجى ، لانذا بعقيدة « الفن للفن » .

وكلمة « الفن للفن » - فى رأى الشخصى أيضا - لا تعبر
عن مذهب أو عن نظرية . ولكنها تعبر عن حالة نفسية فحسب .
هل يقبل أحد أن يقال ان هناك نظرية اسمها « العلم
للعلم » مثلا ؟ .. وأن أصحاب هذا المذهب يرون أن يكون
تخطيط الذرة لمجرد تخطيط الذرة ، لا لكى تؤثر هذه الذرة بعد
ذلك فى حياة الناس .. بالدمار اذا اتجهت الى الحرب ، وبالعمار
اذا اتجهت الى السلم ؟ ..

لو قال أحد بشئ من ذلك لقليل عنه انه مخبول قطعاً ! اذا
فلماذا نصدق ان هناك نظرية اسمها « الفن للفن » ؟ .. وأن
الفن بناء على ذلك يمكن أن يكون شكلاً باهراً فحسب ..
بلا موضوع ، أو مضمون ، أو قضية ؟ ..
هل يكون الفن أقل خطراً من العلم ؟ ..

كلا . فاذا كان العلم يوفر لنا راحة السكن وسرعة الانتقال
وسهولة الاتصال وما الى ذلك من حاجات . فإن الفن عليه أن
يوفر لنا حاجات أعظم خطراً ، حاجات لا يمكن أن تستقيم الحياة
بدونها مثل : الحربة . الشرف . العدل . المساواة .

ان العلم يقدم لنا الادوات التى يمكن أن نهيى بها سعادة
البشر ورخاءه . ولكن الفن يقوم بدور رئيسى فى رسم الاسلوب
الذى تستخدم به هذه الادوات والغاية التى نستهدفها منها
والمجتمع الذى نصنعه بها .

فالفن بالنسبة للتقدم ، وللعلم ، بمثابة العين التى ترى ،
والنور الذى يهتدى ..

فكيف يمكن أن توصف كلمة « الفن للفن » بأنها عقيدة
أو نظرية ؟ ..

ولكن ، هاهنا سؤال : لماذا نجد بعد ذلك آثاراً لا يمكن الا
أن نصفها بأنها « فن .. للفن ؟ » ..

ما تفسير وجود هذه الاعمال الفنية التى تشبه الصواريخ ..
نصفق لضوئها والوانها خفلة ، ثم تنطفئ . ولا يبقى منها الا
تسليقة الدقيقة العابرة ؟ ..

الخوض في معركة من معارك المجتمع وما قد يصيبه من أذى ..
الواقع أن الفنان الذي ينتج فنا للفن لا يفعل ذلك لأنه يؤمن
بشيء اسمه الفن للفن .. ولكنه يفعله إما لأنه يخاف عاقبة
وأما أنه يجد تفكيره الاجتماعي غير متلائم مع تفكير عصره ولا
صالح له ، فهو في كلتا الحالتين ينسحب من الميدان ، ويحتوى
وراء كلمة « الفن للفن » ..

ومن هنا كانت هذه الكلمة ليست شعارا لعقيدة ما ، ولكنها
مظهر لحالة معينة هي : الخوف .. أو العجز ..
إن فنانا يخاف على رزقه أو أمنه أو سلامته لا يمكن إلا أن
يعتصم وراء الفن للفن ..

وإن فنانا كاهل الكهف يحاول أن يعيش بأفكار راح عصرها
منذ مئات السنين ، سرعان ما يكتشف الهوة التي تفصله عن
قومه ، فيلوذ بهذا الكهف المظلم : الفن للفن !! ..
وقد كان بودلير إذا نشبت الثورة في فرنسا أصدر مجلة
واقترح المعركة بكل عنف ، فإذا أخمدت الثورة وضاق الخناق
على الكتاب ، عاد يكتب عن الفن للفن !! ..
والاستاذ توفيق الحكيم فيما أعتقد ليس من حملة لافتة
« الفن للفن » .. بدليل أننا نجده آراء في أغلب المسائل العامة ،
من قضية المرأة إلى نظام الحكم .. نعم نختلف معه في كثير من هذه
الآراء .. ولكن تلك قضية أخرى ..



وهذا الكتاب الذى تقدمه « روز اليوسف » اليوم ، يكاد
يجمع خلاصة وافية لكل آراء توفيق الحكيم السياسية ، أو العامة
فهو هنا يقول رأيه صريحا في مسائل خطيرة .. وليحاسبه على
هذه الآراء بعد ذلك من يشاء ..

وقد كتب توفيق الحكيم هذه المقالات فى الفترة بين سنتى
١٩٤١ و ١٩٤٦ .. وهى ست سنوات حافلة بالاحداث
والنظورات ، التى نرى انعكاسها واضحا على هذه المقالات ..
فأجزاء الاول منها كتب فى اوائل الحرب العالمية الثانية ،
عندما كانت جيوش هتلر تغزو أوروبا وأفريقيا ، وعندما كان
العالم مهددا بخطر العدوان النازى والارهاب الدكتاتورى ..
معرضا للوقوع بين لحظة وأخرى تحت سلطان الظلام .. وفى

هذه المقالات نرى توفيق الحكيم يقف وقفة صلبة في وجه
الطغيان ، ويكتب صفحات مشرقة عن الحرية والديمقراطية
والاشتراكية والسلام .

وتمر هذه المرحلة ، وتراجع جحافل الظلام امام المقاومة
الباسلة من شعوب أوروبا . وينتصر الحلفاء . ويكتب توفيق
الحكيم في موضوع آخر ، هو : خيبة أمل الشعوب الصغيرة في
آعقاب الحرب . والاطماع التي أسفرت عن وجهها في لندن
وباريس ، تريد أن تحتفظ بالظلم القديم .

وبعد نهاية الحرب ، نرى توفيق الحكيم يكتب في نقد الحياة
السياسية المصرية . محاولا أن يثبت زيف الديمقراطية التي
كانت موجودة في ذلك الوقت . . . نقدا عيبه أنه كان يصيب
أحيانا الديمقراطية ذاتها ، لا الفاسد من مظاهرها فحسب .



وبصرف النظر عن الآراء التفصيلية الكثيرة التي قد اختلف
فيها مع الاستاذ توفيق الحكيم . فإن أول ملاحظة عامة على هذه
المقالات هي : أن توفيق الحكيم ما زال يقف حتى الآن امام نفس
الاسئلة التي أثارها والمثل التي أقامها في تلك السنوات العشر
التي سبقت الإشارة إليها . .

لقد كتب توفيق الحكيم « شهرزاد » منذ خمسة وعشرين
سنة ليسجل « مأساة الشك في اضطراب التقدم الانساني في
خط مستقيم » وكان السؤال الذي أثاره فيها هو : هل نتقدم . .
أم ندور في حلقة مفرغة ؟ . .

وفي هذا الكتاب ، نرى توفيق الحكيم في نفس الوقفة امام
مشكلة العصر الحديث : الصناعة الكبيرة . . ينظر الى امكانيات
التقدم التي تنطوي عليها ، ثم يرجع الى الشرور التي صاحبت
نشأتها ، ثم لا يصل الى قرار حاسم ، فيوجه نفس السؤال :
هل يضطرد التقدم الانساني في خط مستقيم ، أم يدور في
حلقة مفرغة . .

وكانني به يميل الى الاعتقاد بأنه يدور في حلقة مفرغة .
نرى ذلك في لمحات خاطفة ، مثل قوله انه لا أمل في منع الحروب
اطلاقا ، وان الحرب قدر مكتوب على البشر . . وهو يأس لا يقره
الكثيرون ، فان مزيدا من التأمل يصل بنا الى أن أمل العرب

أيام الجاهلية مثلا في أن تتحد القبائل في مجتمع واحد تسوده عقيدة واحدة . وفي أن يخفى قانون السطو والغصب والحروب ليحل محله قانون آخر . لا يمكن أن يقال أنه كان أكثر من أمل البشر الآن في أن يسود المجتمع الدولي قانون آخر غير السطو والغصب والحروب . ومع ذلك فقد ذهبت الجاهلية على قدوم الاسلام . فكيف لا نأمل نحن اليوم في أن تذهب الحرب ويذهب الاستعمار ؟ ..

وفي « أهل الكهف » أيضا .. سجل توفيق الحكيم « مأساة الصراع بين العقل الذي يشك والقلب الذي يؤمن » .. وفي هذا الكتاب أيضا ، نراه حين يشك في اضطراد التقدم الانساني يستطرد فيقول : « .. الحقيقة ان عقل يشك ولكن قلبي يؤمن »
X ان قوة العقل الشك ، وقوة القلب الايمان ! ..

هذا بالنسبة الى الاسئلة التي يشرها .. أما بالنسبة « للمثل » التي يقيمها .. فانت أيضا تراه واقفا أمام المثل الذي رسمه في « عودة الروح » ..

ان « عودة الروح » هي أروع وثيقة فنية عن ثورة ١٩١٩ . وهي الثورة التي عاشها توفيق الحكيم وفهمها وسجن فيها ، وسجلها بقلمه .. وفي هذا الكتاب ، نراه بعد أن يتأمل الحياة السياسية الراهنة في مصر يطالب أو يتمنى أن تعود أيام ثورة ١٩١٩ . وأن تعود مثلها وأخلاقياتها . رغم التغيرات الكثيرة التي طرأت على المجتمع المصري وظروفه ومطالبه خلال هذه الفترة . فهو لا يريد ثورة جديدة ، بل يريد تكرار ثورة ١٩١٩ .. وهو ما يمكن أن يعتبر انفصالا عن حركة التاريخ .

هكذا يقف توفيق الحكيم أمام الاسئلة التي أثارها في أول انتاجه .. لا يزعمه عن تأملها هدير الاعوام والاحداث خلال ثلاثين عاما كاملة !! .

وإذا بحثنا في هذا الكتاب عن لون توفيق الحكيم السياسي ، فإننا نستطيع أن نقول أنه ديمقراطي النزعة .. ولكنه بعد دفاع باهر عن الديمقراطية يختهه بقوله « اذا ذهبت الحرية فاجدر بالحر أن يموت » .. نراه يرجع خطوة فيقول :
« هل أنا كاتب ديمقراطي ؟ الحقيقة أنني لست ديمقراطيا بالمعنى السياسي لهذه الكلمة . أنني لا أستطيع أن أنتمى الى

الديمقراطية باعتبارها نظاما سياسيا أو حزبيا . لأن الحرية الفكرية والروحية التي هي كل مسوح الفكر الحر الحقيقي ، تمنع من الانخراط في سلك حزب أو نظام قد يضطر للدفاع عنه بالحق أو بالباطل ! ان الذي أومن به اذن وأدافع عنه دائما هو الديمقراطية باعتبارها مبدءا انسانيا لا نظاما سياسيا .

« الكاتب الحر الحق هو الذي يبقى بعيدا عن الحركات الحزبية والسياسية ، كى يستطيع في كل وقت ان يدافع بمطلق الحرية عن المثل العليا الانسانية ، ولا يؤازر المذاهب والاشخاص الا على قدر احتفاظها بروح هذه المثل . لذلك لم استطع ان اغمض عيني عن بعض النظم السياسية المنتمة الى الديمقراطية يوم تطرق اليها الفساد وعثت بها السياسة المحترقون .

ثم يقول . . في قصتي براكسا أو مشكله الحكم « ستخريه ببعض مظاهر الحكم الديمقراطي ، وستخريه ببعض مظاهر الحكم الدكتاتوري ، وليس فيها حل لمشكلة الحكم . لماذا ؟ لأن هذا ليس من مهمة الكاتب الحر . ان الكاتب الذي ينشئ مذهبا سياسيا يتمسك به ويكبل فكره بنصوصه ، مثله مثل الكاتب الذي ينضم الى مذهب سياسي قائم ، كلاهما قد فقد النظر الحر الى بقية المذاهب والاشياء . .

« الكاتب الحر في نظري هو الحكم التزيه في حلبة اللاعبين . هو الذي يحصى الاخطاء بغير تمييز ولا تحامل . وهو الذي يفصح ستر اخارجين على اصول اللعب القديم . .

أيمكن ان نوافق على ذلك ؟ . .

ان توفيق الحكيم في هذه السطور يرسم عوقفه من السياسة رسما دقيقا . فهو لا يؤمن بمذهب سياسي معين محدد ، ولكنه يؤمن ببعض القيم مثل : الحرية . الفكر . الفضيلة . .

ولكن ليس معنى ذلك ان يصف الكاتب الذي يؤمن بعقيدة معينة بأنه ليس كاتباً حراً . ما دامت هذه العقيدة تدعو الى الحرية . وما دما متفقين على مسئولية الكاتب . فان اقصى درجات المسئولية بغير شك ، هي الالتزام بعقيدة معينة . . اذا وجد الكاتب طبعاً العقيدة التي ترضيه ، التي يؤمن بها بعقله وقلبه معا .

وبعد . . .

فقد كان الاستاذ توفيق الحكيم تريبا عندما تفضل ودعاني الى ان اكتب مقدمة وأدفع بها الى المطبعة دون ان يراها . . واننى واثق أنه سيكون كريما حين يقرأ هذه المقدمة . . فيصفح عنها : « أحمد بهاء الدين »

مصير الانسان الحر

هذه الكلمات ليست سوى صيحات ، لا أملك غير اطلاقها في هذه الساعات التي لا يستطيع أحد بعد أن يتنبأ فيها بمصير الانسان الحر .

ان الظلام الزاحف على الانسانية يخيفني .. انى لم أزل أتأمل تلك الكلمة التي قالها وكيل خارجية أمريكا « سمنر ويلز » منذ نحو عام : « ليس في مقدورنا أن نتكهن بشئ عن احتمال العودة مرة أخرى الى ظلام القرون الوسطى ، على الأقل فيما يتعلق بشؤون الفكر والروح .. الخ » ، انى لم أزل أ طرح على نفسي هذا السؤال : هل فى الامكان حقا أن يمحى الانسان ظلام بعد هذا الشوط الذى قطعه فى سبيل النور ؟ ..

هل اصدق قول المفكر الالماني « كيسرلنج » : ما الانسان الا مخلوق تتركز فيه قوى روحية وقوى أرضية . جوهره العميق . ذلك الذى قد يعد خالدا هو روح خالص . ولكن هنالك حقيقة

تستوعب النظر ، هي أنه منذ ليل الازمان والاديان ما برحت تحض على اتباع تعاليم الروح ، فهل صادفت في ذلك غير نجاح قليل ، بينما كانت نوازع الارض والدم لا تفرض فقط سلطانها فرضا بل تقبل أيسر القبول في شيء من الخضوع الطبيعي ، هذه الحقيقة وحدها تثبت لنا أن ثمانين في المائة من المخلوق البشري تتألف من العناصر الأرضية التي تدخل في نطاق العالم الحيواني والنباتي .

ما أقسى هذا الكلام على من يؤمن بالتقدم الانساني . ينبغي مع الأسف أن نتوقع اذن في كل حين ثورة هذه الثمانين في المائة على العشرين الباقية .

تتمثل لذهني أيضا صورة رسمها « جيمس روبنسون » المفكر الأمريكي ، لتطور البشرية ومدى انتقالها من عهد الى عهد ، فقد افترض أن حياة الانسانية منذ عصورها الاولى الى اليوم (وهي التي تقدر أحيانا بخمسمائة ألف سنة) تبلغ خمسين عاما فقط ، رغبة في التبسيط . فماذا وجد ؟ وجد أن تسعا وأربعين سنة من هذه الخمسين قضتها البشرية في حياة الصيد الاولى . ولم تبلغ في نهايتها ، من حيث المعرفة والادراك ، الا درجة تمكنها من استئناس بعض الحيوان ونسج بعض الحشن من الثياب . أما في السنة الاخيرة الباقية من عمر الانسانية ، فقد كان ينبغي أن يمضي منها أيضا ستة شهور قبل أن تختزع الكتابة التي تم باختراعها وضع أساس من أسس الحضارة . ثم ثلاثة شهور أخرى للوصول بالادب والفن والفلسفة الى تلك القمم التي بلغناها ، ثم شهران للحياة في ظل المسيحية . ولم يتطلب ظهور الطباعة غير ليلة واحدة . وآلة البخار غير أسبوع . ويومان أو ثلاثة لتخوض البواخر عرض البحار وتقطع القطر شاسع البقاع . ولم يبق بعد ذلك غير يوم واحد استكشفت في ليلته البارحة أعاجيب الكهرباء . وأخيرا لم تبق غير ساعات معدودات كانت كافية لحذق الملاح في الجو وتحت الماء واستخدام أحدث المخترعات لاثارة حروب عظيمة تتكافأ مع تلك الوسائل الجديدة الهائلة . .

ولاًتم قول هذا العالم الأمريكى قائلاً : حروب عظمى قديرة
أن تدمر الانسانية وتعيدها من جديد الى حيث كانت منذ عام .

هذا التقدير العجيب لعمر المدنية الحقيقية فى حياة الانسانية
ينبغى أن يملأنا قلقاً على مصير الحضارة . انها اذن ليست تراثنا
أصيلاً كما نظن . انها ليست ملكة متأصلة فينا كما نحب أن
نتصور . انما هى حدث جديد لم يقع فى حياتنا البالغة الخمسين
الا منذ ستة شهور . أفستغرب اذن اذا عصفت القدر بهذا
الحدث وأرجعنا الى حيث كنا منذ عام على الأقل .

نعم . حتى حياتنا اللامعة خلال هذه الشهور الستة الاخيرة
ليست فى مأمن من طغيان ذلك الحُضم الهائل من عشرات الاعوام
السابقة . ان ريع تلك الاعوام المظلمة ما تفتأ فى كل لحظة تهب
على هذه الشمعة الضئيلة التى تنمو فى ضوئها المرتجف حضارتنا
الناشئة . آه . ان قوة الارض والدم لمحيقة حقاً . انها لتستطيع
أن تجذبنا اليها فى كل حين كلما أردنا ارتفاعاً ! ..

يحلم العلم الحديث أحياناً بذلك الاختراع الذى يخرجنا عن
جاذبية الارض ، لنلحق بالكواكب الاخرى . أما ينبغى له أن
يفكر قبل ذلك فى اختراع آخر أعظم وأجدى على الانسان :
ذلك الذى يخرجنا عن جاذبية الارض والدم فى عالم تركيبنا
الحيوانى ، لنلحق بالانسانية العليا التى يتصورها الفكر المجدد ،
ويحسها الروح الطليق ؟ ..

ما دمننا نعيش تحت سلطان جاذبية الماضى الهائل : جاذبية
تسع وأربعين سنة أو (٥٤٩٠٠٠ سنة بالحساب شبه الحقيقى) :
حياة حيوانية تعيش على الفتك والصيد وشريعة الغابة ، فكيف
نأمل بهذه السرعة فى حياة أرقى تسودها شريعة غير شريعة
الغابة ؟ ..

يقول « ألدس هكسلى » : لا أحد يطلب اليك أن تكون شيئاً
آخر غير مجرد انسان ، أى لا ملاك ولا شيطان .. انسان ، أى

ذلك المخلوق الذى يمشى بمهارة على حبل مشدود ، عن يمينه العقل والفكر والضمير ، وكل ما دخل فى نطاق العالم الروحي ، وعن يساره الجسد والغريزة والدم وكل ما دخل فى نطاق العالم الحيوانى . التوازن هو كل المطلوب . وهو أمر عسير المنال .

حقا هذا التوازن عسير المنال . كم من الملايين وكم من الاجيال تسقط فى الهاوية اليسرى . أما الهاوية اليمنى فلم يقع فيها غير قليل من الانبياء والقديسين والفلاسفة والشعراء .

فى تاريخ الانسانية عهد صغير مزدهر ، هو حقاً من مفاجر الانسان . ذلك هو عهد الاغريق . أترى الاغريق هم الذين استطاعوا أن يمشوا فى توازن عجيب فوق الحبل المشدود ؟

ربما كانت فكرة التوازن لا يتميز بها العهد الاغريقى وحده . فالحضارة الاسلامية فى عصورها الزاهرة هى خير مثال يقدم للتوازن العجيب فوق هذا الصراط المستقيم .

ان معجزة الاغريق ، فى الواقع ، هى أنهم لأول مرة فى تاريخ البشرية ، حاولوا التخلص من جاذبية الماضى . اذا ذكر الاغريق ذكر عهد ظهور التفكير الحر ، والتأمل المجرد ، أى ذلك التفكير الذى لا تحده تقاليد ولا سلطات ولا اديان ولا حتى لغات قديمة . كان « بيرون » يقول عن الاغريق : لم تكن لديهم عصور قديمة للمعرفة ولا معرفة للعصور القديمة .

ان النوع البشرى محافظ بطبعه كما يرى روبنسون : « فهو لا يفتأ يضع لنفسه قيودا ، هى التى أقعدته فى طور البربرية كل هذه الاجيال الساحقة التى عاشها على الارض . بل هى التى ما تزال تعمل على استمرار بعض مظاهر البربرية حتى فى مجتمعنا الحديث . فالرجل المحافظ هو على وجه عام رجل أدنى من غيره الى الحالة البربرية الاولى اذا كان فى التاريخ اذن شعب غير « محافظ » فهم الاغريق . انهم شعب « الحرية » المختار ! ..

ان العهد البشرى بلغ فى عهد الاغريق اكتمال تألقه ، لانه
تفتح لهواء الشك . ان « الشك » هو هواء العقل الذى يتنفس
به . لاول مرة استطاع الانسان حقا أن يدع هذا الهواء يعبت
قليلا برفات تقاليده المقدسة . ولاول مرة استطاع الانسان حقا
أن يخرج بتفكيره قليلا عن نطاق جاذبية الماضى ، ليتأمل ويخلق
بعيدا عن سيطرة الايمان بالماضى .

على أن العجيب فى الامر ، هو أن البشرية التى عرفت هذا
التألق الفكرى ، استطاعت أن ترجع بعد ذلك الى ظلام القرون
الوسطى . وتركت فضاء « الشك » لتدخل من جديد ، حظيرة
« الايمان » . أترى حياة الانسانية كحيان الانسان ؟ أترأها
مثله تخرج من النهار الى الليل ، ثم تعود الى النهار من جديد ،
ثم تدخل فى الليل مرة أخرى ، وهكذا الى نهاية الدهور ؟ .

نعم ، بعد نهار الاغريق جاء ليل القرون الوسطى . لكن ...
ليس كل ليل ظلاما ، فقد يخيم الظلام على أول الليل ثم يطلع
القمر وتتصاعد الاحلام من جوف القلب فتملأ الوجود جمالا
ونورا من نوع آخر ، كذلك القرون الوسطى ، لم تعرف الظلام
الحالك الا فى أول عهودها ، ثم تأججت العقيدة الدينية فى
النفوس واستيقظ القلب فأبدع جمالا وشعرا له مكانه الى
جانب الجمال الذى أبدعه العقل فى نهار الاغريق .

وقبل نهار الاغريق ماذا كان ؟ كان ليل مصر القديمة المقمر
الجميل . كانت حضارة عجيبة كأنها أحلام العمالقة ، خرجت
هى الاخرى من وحي القلب وحرارة العقيدة والايمان .

وبعد ليل القرون الوسطى ، ماذا حدث ؟ ظهر من جديد فجر
عصر النهضة وأخذ يتألق بضوء العقل . انها شمس الاغريق
طلعت مرة أخرى فى عصر النهضة ، فما عهد احياء العلوم وبعث
التفكير الاغريقى الا نهار جديد طلع بعد انصرام الهزيع الاخير
المقمر من ليلة القرون الوسطى .

أهمي أستار تتعاقب على مسرح الوجود الدائر ، تلك القوى الخفية التي نسميها الغريزة والقلب والعقل ؟ أتراهما تلعب في حياة الانسانية الدور الذي يلعبه الظلام والقمر والشمس في حياة الانسان اليومية ؟ ..

هؤلاء هم بالضبط أبطال مسرحيتي « شهرزاد » فالظلام فالظلام هو « العبد » والقلب هو « قمر » والعقل هو « شهريار » وان حركتهم حول « شهرزاد » لهي حركة الانسانية كلها حول الطبيعة .

هل الانسانية اذن تدور دوران الفصول ؟ لقد اجاب « شهريار » : « كل شيء يدور . تلك هي الابدية . يا لها من خدعة ! تسأل الطبيعة عن سرها فتجيبنا باللف والدوران ! » نعم . انها تدور دوران اليوم الكامل : ظلام وقمر ونهار ، ثم ظلام وقمر ونهار .. وهكذا دواليك الى نهاية الدهور .

ان فكرة التقدم العقلي المطرد هي من أوهام العقل . انها سراب شمس العقل في صحراء آمالنا الواسعة . ان الخط المستقيم لا يعرفه غير العقل . اما الطبيعة فلا تعرف غير محيط الدائرة .

لو عرف الانسان نهارا لا ليل له يمتد بضعة أعوام ، لعرفت الانسانية مثل هذا النهار في صورة حضارة فكرية ممتدة الى آلاف الاعوام لا يعترضها ظلام الغرائز ولا أحلام الايمان .

هذا النهار الطويل للانسانية لو وجد لكان محرقا لكثير من فضائل الانسان .

حضارة اليوم الحديثة هي من غير شك نهار للانسانية ، نهار بزغ في عصر النهضة واهياء العلوم . واستمر متألعا بكل اشعة العقل الانساني . انه النهار الثاني بعد نهار الاغريق الاول .

من العجيب أنه في كلا النهارين بدا مظهران من مظاهر التحرر لا للفكر وحده بل للمجتمع . ففي نهار الاغريق عرفت الانسانية الديمقراطية وفي نهار العصور الحديثة عرفت الانسانية حقوق الانسان .

التحرر الذاتي والتيقظ الاجتماعي ، ليس ان الليل مقترن بالنوم والاحلام والاستسلام ، والنهار مقترن باليقظة والشعور بحقوق الذات ؟ ..

ما بعد حضارة اليوم الحديثة ؟ ما مصير هذا النهار ؟ أترى مصيره مصير كل نهار ؟ .

هل نستطيع أن نتبين في الافق جحافل الظلام المغيرة على هذا النهار ؟ .

اولئك الشعراء الذين قرنوا الظلام بالجحافل لا شك مصيبون لا شيء يستطيع اطفاء مصباح الفكر غير يد القوة المادية . هكذا بدأ النور في القصور منذ اقتربت من مصباح أثيناكف « فيليب »

في ليل الانسانية المظلم أو المظلم ، لم يعرف قط مثل هذا يقول الباحث الفرنسي جان رويستون : اذا قدر لهذه الحضارة أن تتعظم غدا عن آخرها لكان على الانسان أن يعيد بناء كل شيء من جديد ، مبتدئا بما بدأ به منذ نيف ومائة أو مائتين ألف من الاعوام . فكل ما قام به على مر الدهور من أعمال وما عاناه من جهود وما قاساه من آلام لا نفع فيه ولا غنى . وهنا الفرق الهائل بين حضارة الانسان وحضارة الحيوان . ان شرذمة من النمل المنزلة عن العشيرة في امكانها أن تنشئ عشيرة أخرى تامة التكوين . لكن شرذمة من الادميين انزلوا عن البشرية لا يستطيعون أن ينشئوا مجتمعا الا في صورته البربرية الاولى . ان حضارة النمل منطبعة في صميم خواص الحشرة . أما حضارة

الانسان فهي ليست مستقرة في صميم طبيعة الانسان . بل هي مستقرة في صميم طبيعة الانسان . بل هي مستقرة في خزان المكتبات العامة وقاعات المتاحف ونصوص الشرائع . . »

من المحتمل اذن أن تدك القنابل هذه المتاحف والمكتبات وأن تعيث يد القوة المادية بالشرائع ، وأن تضع كفيها على أفواه الناطقين بالعلم ، وعلى أبصار الباحثين عن الحقيقة ، فإذا حضارة الانسان قد تلاشت ، وإذا البشرية تعود سيرتها البربرية الاولى . أو لم يحدث بالفعل منذ قليل أن حرق الكتب والمؤلفات وطرد العلماء والمفكرون (اينشتين وفرويدمان الخ . .) ؟

مهما تكن الاسباب والظروف ، فإن في مجرد امكان حدوث ذلك في هذا العصر لنذيرا واشعارا بإمكان عودة الظلام .

الانسان مخلوق مؤمن بالطبع . في كل مراحل نرى حب التقديس . فالوثنية تقديس القوى الارضية . والاديان السموية ، تقديس القوى الروحية ، والعلم الحديث تقديس القوى الفكرية .

والاسراف في الايمان يؤدي الى الطغيان ، والطغيان الى الانهيار . لقد زلزل العهد الوثني طغيان الكهنة والتيجان . والعهد المسيحي طغيان الكنيسة ، والعهد العلمي الحديث طغيان الصناعة الكبرى .

ان (الصناعة الكبرى) هي « كنيسة العلم الحديث » .

لقد أرانا التاريخ كيف ان طغيان الكهنة والتيجان في الارض جعل الانسانية تلمس الخلاص والحرية في السماء . وكيف أن طغيان الكنيسة باسم السماء قد جعل الانسانية تلجأ الى الخلاص والحرية في نور العقل والعلم البشري . بقي أن نعرف أين الخلاص من طغيان كنيسة العلم الحديث : الصناعة الكبرى ؟

ان كنيسة العلم الحديث بكرادلتها الراسمالين لتفتتح
أبوابها على جهنم الغرائز الاولى . نعم . نحن فى نهاية الدائرة .
أسوف تدور دورة أخرى من جديد ؟ ..

يقول العالم الاقتصادى « ر . ه . تونى » : ان كارثة
حضارتنا اليوم ليس مرجعها كما يظن الكثيرون سوء توزيع
الانتاج الصناعى . بل مرجعها الصناعة نفسها ، الصناعة التى
تبوأ مركزا يطغى على كل شأن من شؤون البشر . ان هذه
الحمى الاقتصادية . سوف تبدو للأجيال القادمة خليقة بالرائ ،
كما تبدو لنا اليوم حمى المعارك الدينية فى القرن السابع عشر .

انه لمن المخجل كما يقول « جيمس روبتسون » : ان نخضع
اليوم الحياة كلها لمقاصدها المادية على النحو الذى كان عليه
أجدادنا المتوحشون يوم عاشوا فى طور التكالب على ثمار الاثمار
وجذور النبات وجلود الحيوان .

حقا . لم يعد المكان الاول فى حياة البشرية للقيم الروحية .
بل لم تعد للقيم الفكرية ذاتها ذلك المكان . انما القيم الاقتصادية
هى اليوم كل شئ . القيم الاقتصادية كانت هى أيضا كل شئ
فى حياة القبيلة الاولى المتوحشة .

فلنستمع كذلك الى قول « كيسرلنج » : « الحظ البارز والمظهر
الغالب للعصر الحاضر هو « الاقتصاد » أى « الغذاء » أى « مطالب
الارضى والدم والجنس والبيئة » . أى ان كل شئ اليوم خاضع
للشطر « غير الروحى » للكائن البشرى .. هذه الحضارة ما كانت
تستطيع أن تنتهى الا الى هذه النهاية « غير الانسانية » ما دامت
تؤدى الى هذه الصورة المخيفة الى سيادة الآلة على الحياة ، والى
طغيان الحساب والارقام . والى تفويض كل سلطان الا سلطان
الحكم والعدد .. ان روح هذا العصر (الصناعى الاقتصادى)
هى روح الكتل من الدهماء والسود . وعصر السواد والدهماء
هو فى الحقيقة عصر الزعماء . فالكتل لا تعمل أبدا بذاتها . اذ
كلما كثر العدد احتاج الامر الى تنظيم ومنظمين . وأصبح

المنظم ، أو الزعيم ، هو القابض على زمام القطيع ، وهكذا تمنح السلطات شبه المطلقة لمن ينظم الملايين . وهؤلاء الزعماء المنظمون هم دائماً من طراز « المروضين » لا من طراز « القادة الروحانيين » والمروض هو من يؤثر في تابعه عن طريق « الإيحاء » مجبراً إياه على طاعته دون أن يشعره أنه قد سلب إرادته . .

نحن اذن في طريق العودة الى المجتمع البشرى الاول الوثني . حيث كانت الجموع تخضع لسلطان الرجل القوى الذى يستطيع تخدير أحلامها والتأثير فى أعصابها .

ما دمنا فى عصر الزعماء (المروضين) فلن يكون هنالك محل للكلام فى الحرية . لأن المروض سيجان قبل كل شئ .

عنا السر فى أن الزعماء المروضين يضطهدون (الاديان السماوية) لانهم يريدون حبس جموعهم داخل تلك الحظيرة التى يسهل فيها التأثير فى أعصاب القطعان : حظيرة الغرائز بسياحها المفتول من (الوطنية والجنس والدم) . ولما كانت الاديان تحارب الغرائز وتسعى الى اطلاق الناس من هذه الحظيرة الى فضاء الانسانية والاخاء الأدمى ، فقد عدها المروضون اخطر خصم لما ربههم .

هنالك سبب آخر لرغبة الزعماء المروضين فى صد جموعهم عن الاديان : انهم لا يريدون لجموعهم أن تقدس شيئاً آخر غير الزعيم . ان شخص الزعيم هو الذى حل وينبغى أن يحل محل الدين فى قلوب التابعين . وتلك هى العودة الى الوثنية .

كذلك يمتت الزعماء المروضون العلماء والاساتذة والفلاسفة وأصحاب التأمل الطليق والفكر الحر ممن يدينون بمبدأ (العلم للعلم) أو (العلم للانسانية) ، ويرونهم غير جديرين بالبقاء الا اذا خضعوا لمبدأ (العلم للوطن) أى العلم فى خدمة الجيش والعسكرية والاستعباد وسيادة الجنس والدم .

لقد سألني سائل ذات مرة عن مبدأ (العلم للوطن) فقلت :
 « لا يمكن أن يكون العلم للوطن ولا لشيء آخر في هذا الوجود
 إنما العلم لنفسه . فهو المعرفة الخالصة والرغبة المحركة في
 استجلاء كنه الأشياء . وإن العلم إذا اتخذ له غرضاً غير نفسه
 تغيرت في الحال صفته ولم يعد يسمى علماً ، مهما يكن الغرض
 الذي يتجه إليه نبيلاً . فالعلم قبس من نور الله . وليس لله
 غرض إلا ذاته المطلقة .

ولكن تطبيق العلم ، أو العلم التطبيقي ، شيء آخر ، فإن
 للوطن والصناعة والتجارة . الخ . أن تستفيد من نتائج
 العلم وتستخرج منها المنفعة التي تريدها . فالعلماء الحقيقيون
 لا يطبقون العلم ، إنما يعيشون



اينشتين

حياتهم للمعرفة المجردة لا يبتغون
 من وراءها غير مجرد الدنو منها ،
 تلك لذتهم الكبرى ، أما رجال
 الأعمال الذين يأتون بعد ذلك
 لاستغلال نتائج هذا العلم فليسوا
 من العلماء وإن درسوا العلم
 دراسة عميقة وإن للعلم ككل شيء
 في هذا الوجود أوقات علو
 وأوقات انحطاط ولا ينحط العلم

إلا في وقت ترغمه فيه قوة غاشمة على السر في طريق مرسوم
 لمصلحة وطنية أو مالية : فالعلم طائر حر كالشعر . ومن قرأ
 تعريف (اينشتين) للعالم الحقيقي أدرك تمام الإدراك أن حياة
 العلم لا تكون إلا باطلاقة في جو الحرية المطلقة . والعلم
 والوطنية لا يمكن أن يتفقا . لأن الوطنية هي الانانية في المجموع
 والانانية عمية ، والعلم هو البصر المنزه بحقيقة الأشياء . فمن
 أراد من العلم أن يعيش بنصف عين كي لا يرى غير مصلحة دولة
 واحدة وجنس واحد هو من غير شك قد مسخ (العلم) (قردا)
 يمشي ويرقص تحت عصا مروضه .

كل فكرة متصلة بفكرة (الدولية) متجهة إلى (الإنسانية)
 مبشرة بالسلام ، حاضرة على (اللاعسكرية) هي خطيئة الخطايا

فى عين الزعماء المروضين .

تلك هى أعظم صدمة هزت نفسى فى السنوات القلائل التى تلت الحرب الكبرى الأخرى ، لقد كنت ممن يؤمنون باطراد التقدم الإنسانى ، لقد كنت أتابع وقتذاك آمال السياسة والكتاب فى جمعية الأمم والسلام ، وأطالع آراء ماركس وتلاميذه فى (الدولية) و (اللاعسكرية) . لقد كنت غارقا أنا أيضا فى تلك الأحلام التى نسجها لنا هداة البشر وقادته الروحيون من الرسل والشعراء والمفكرين ، لقد كنت موقنا بأن الأوان قد آن عقب تلك الحرب لزوال الحواجز بين الأمم والأمم ، وانقضاء عهد القبائل الوحشية المتنافرة التى يسمونها اليوم (دولا) تغير أحدها على الأخرى ، مدفوعة بمطالب الأرض والدم والجنس . واتجاه البشرية أخيرا الى تحقيق ذلك المجتمع الإنسانى الأعلى الذى يجعل من سكان هذا الكوكب أخوة أحرارا ، لقد ظننت أن تلك الحرب العظمى بفظائعها ومخازيها قد ردت البشر ، لكن .. وأسفاه ! فوجئت بما هالنى : لقد ارتدت البشرية بقتة الى الوراء ، واذن من كنا نحسبه انسانا متحضرا آخذنا بأسباب السمو قد عاد يصيح صيحات الغابة . معلنا العودة الى غرائز الدم والجنس ، وخفت صوت القائلين (بالدولية) و (اللاعسكرية) . وارتفع صوت الناعقين بشريعة القوة المادية وحق الأقوى فى سحق الآخرين وسيادة العالمين .

عجبا ! أترى الإنسانية لا تتقدم فى حقيقة الأمر ولا تتأخر . أتراها حقا تدور فى تلك الحلقة المفرغة : غريزة وقلب وعقل ثم غريزة وقلب وعقل .. الخ .. وهكذا فى حركة دائمة كحركة الكواكب فى مجموعات الشمسسية ! فى ذلك الوقت تيقظت فى نفسى فكرة قصتى (شهرزاد) . (شهرزاد) هى مأساة الشك فى اطراد التقدم الإنسانى فى خط مستقيم .

إذا كنت أشك فى التقدم الإنسانى ، وأرى أن دورة الإنسانية تسير بمقتضى قانون شبه فلكى لا ينحرف قيد شعرة كقانون الشمس والقمر والظلام ، فأى جدوى فى نشر هذه الصفحات

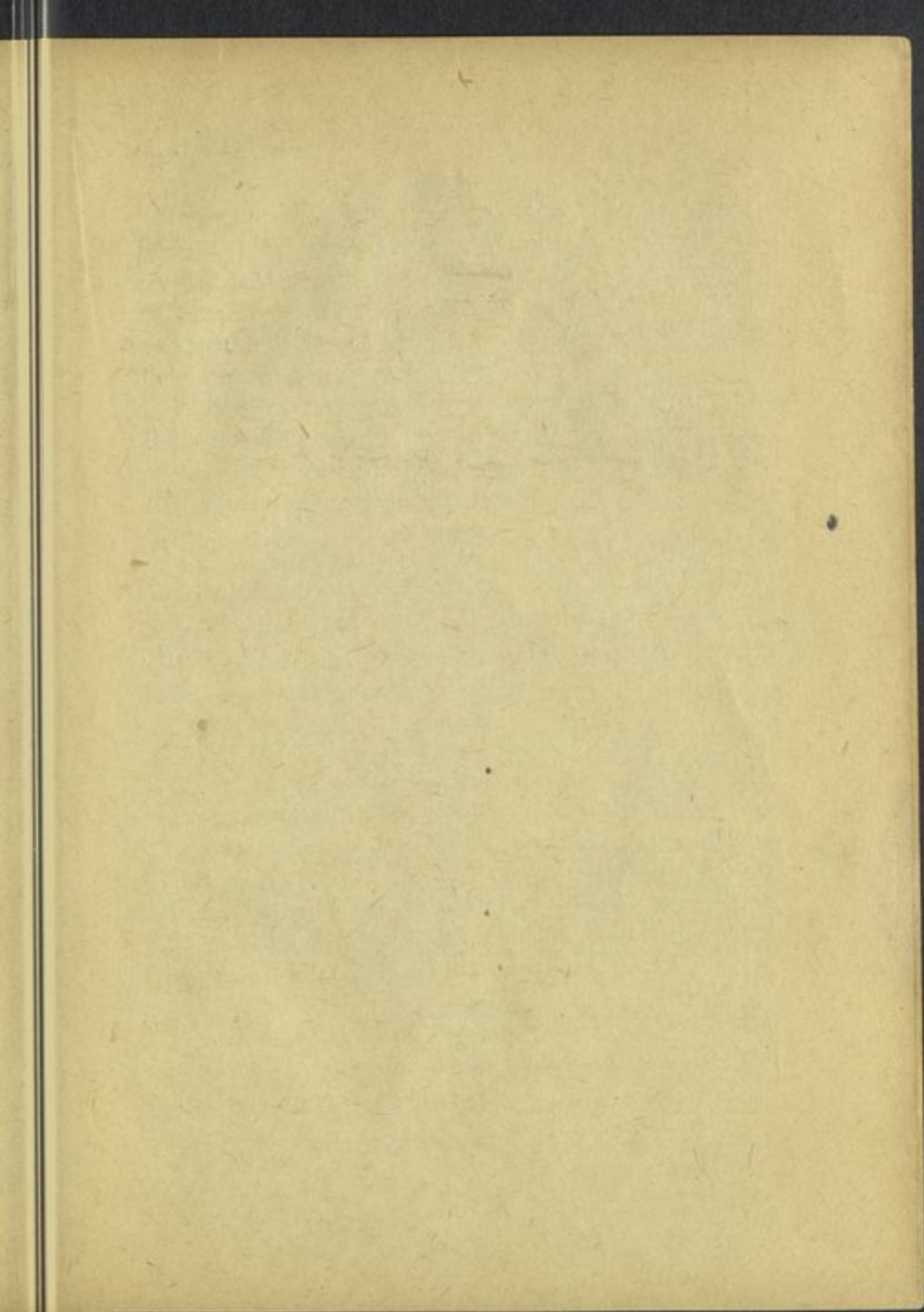
وفى اطلاق الصيحات ؟ . .

الحقيقة أن عقلي يشك ولكن قلبي يؤمن ، ان قوة العقل
الشك . وقوة القلب الايمان ، والانسان هو الفريسه التي
تتصارع فوق جسدها هاتان القوتان . ان روح « المأساة »
هى الصراع . ولقد أدرك شعراء المأسى الاغريقية أن أروع
صراع هو ذلك الصراع القائم دائما بين الانسان وتلك القوى
العليا الخارجية التي يسمونها « القدر » و « الآلهة » .
أما أنا فقد رأيت مأساة الانسان والانسانية فى ذلك الصراع
الدائم بين تلك القوى الداخلية : العقل والقلب . لذلك كتبت
قصتى « أهل الكهف » ، « أهل الكهف » هى مأساة الصراع بين
العقل الذى يشك والقلب الذى يؤمن .

نعم ، ان قلبي يشك ولكن قلبي يؤمن ، ما من رجل أحب
الانسانية استطاع لحظة أن يشك فى امكان تقدمها وسموها ،
انى أعتقد أنها تتقدم ، ولكن مثل تقدم المجموعة الشمسية .
كل كوكب فيها يدور حول نفسه وحول الشمس ولكن المجموعة
كلها تسير مع ذلك فى فضاء اللانهاية .

نعم . لقد لبثنا حقيقة فى حياة الصيد (٤٤٩٠٠٠) سنة ،
ولكن أى خطوات هرقلية خطونها بعد ذلك فى القرون القليلة
الاخيرة ! ان سلطان الظلام يهددنا من آن لآن ، ولكن القيم التى
كسبناها قد كسبناها . ان الحرية والجمال الروحي والغنى
والفكر الطليق وحقوق الانسان ، كل أولئك أشياء لا يمكن
للانسانية أن تنزل عنها أو تنساها ، قد تعصف بها حيناً بعد
حين عواصف القوة الارضية ، ولكنها لن تستأصل جذورها
التي تنمو وتمتد فى أعماق النفس البشرية .

علينا اذن نحن جنود القوى الروحية والفكرية أن ننشر
الصفحات وأن نطلق الصيحات ، كلما شنت علينا الغارات
جيوش القوى الارضية والحيوانية .



دفاع القوى الروحية والفكرية

منه أدركت أن الحرب حرب القوى الارضية ، وإن السلطان
سلطان الظلام ، وأن الامر للزعماء المروضين ، رأيت الدفاع
منوط بالقوى الروحية والفكرية ، وسلطان النور ، والقادة
الروحانيين .

على أن الذى هالنى حقا هو ذلك الاثر الذى أحدثه طغيان
القوى الارضية فى بعض رجال الروح والفكر أنفسهم ، عند
ذاك بادرت بنشر تلك الكلمة التى عنوانها (فيران السفينة)
موجهة الى أولئك الذين كانوا البارحة يتشدقون بذكر النور
والحرية والفكر والمدنية الخ . . فلما هزت يد القوة البربرية
هذه الهياكل ، هرعوا مذعورين الى الجانب الآخر يمجدون القوة
الغاشمة ويعبدون الطغيان ، هؤلاء الذين خدعونا وخدعوا
أنفسهم يوم لبسوا مسوح المؤمنين بالقيم العليا للانسانية ،
فاذا هم فيران فى سفينة الحضارة والحرية يمرحون فى أرجائها
وهى بخير ، فلما شمو ربح الخطر انسلوا يبعثون الفرار منها ولو
على ظهر حطامها ، ثم ها هم أولاء يقفزون الى سفينة القرصان ،

يتخذونهم آلهة ومثلا عليا ، ويضعون تحت أقدامهم عين الازهار
 التي جعلوها من قبل على هام تماثيل الحرية المجيدة ، الى أولئك
 الحارجين على قوى الروح والفكر أؤكد عقيدتي الدائمة في هذه
 الكلمات : (انى أزدرى وسأزدرى دائما القوة الوحشية في
 ذاتها . واني أدعو وسأدعو دائما الى القوة الفكرية والمعنوية
 التي تنتج القوة المادية الحصبة الحرة الكفيلة بتنمية مواهب
 الانسان وفضائله وضمان حرياته وحقوقه وتمكين النوع البشرى
 من الاستمرار في الرقى ! في سبيل هذا وحده أعيش وأعمل
 كما يعيش جنود الفكر والروح ويعملون . واني أعلن هذه
 العقيدة ولى الشرف العظيم أن أموت يوما من أجلها . وأن أغرق
 معها اذا غرقت . فلا خير في صاحب فكرة أو عقيدة لا يموت
 بموتها) ..

لقد تمنيت في نفسي لو أن في المقدور توحيد صفوف رجال
 الفكر والروح في كل شعب وأمة . فأمام كتل الظلام يجب أن
 تقف كتل النور . من أجل ذلك نشرت نداء الى رجال الفكر أقول
 فيه : لا ريب أن رجال الفكر في مصر قد تأملوا مليا تلك الخطبة
 التي ألقاها (سمتر ويلز) عند انتهاء المؤتمر العلمي للأمم
 الأمريكية مشيرا فيها الى ليل العصور الوسطى وفجر عصر
 النهضة وما تبعه من حركة احياء العلوم ، الى أن قال : ليس في
 مقدورنا أن نتكهن بشيء عن احتمال العودة مرة أخرى الى ظلام
 القرون الوسطى ، على الأقل فيما يتعلق بشؤون الفكر والروح ،
 في بلاد أصبح البحث الحر فيها مستحيلا . الخ ، ثم تمنى أن
 يزول شبح هذا الخطر الداهم على الحضارة ، ودعا الولايات المتحدة
 الى واجب الذود عن مدينة تدين لها بخير ما عندها ، هذه الصيحة
 القلقة على مصير الفكر المطلق ، لا بد أن يكون لها صدى عميق
 في نفوس مفكرينا ومفكرى الشرق الباعث لحضارة البحر
 الابيض ، ولئن كان صوت أقدام القوة الوحشية وهى تسحق
 الأمم الحرة لم يزعج بعد رجالنا السياسيين المتنازدين ، فإن
 نذير الدمار المسلط على شؤون الفكر والروح كفيل أن يوحد
 جهود رجال الفكر وأن ينهضهم متساندين للدفاع بأقلامهم
 وقلوبهم عن حضارة ساهم أسلافهم في وضع أحجارها الاولى .

قالى اخوانى المفكرين والادباء أوجه هذا النداء ، وان العبرة التى تستخلص من قيامهم الآن قومة رجل واحد ، وارتفاع أصواتهم فى صيحة واحدة قد يكون لها أعظم الأثر فى توحيد صفوف أخرى طالما انتظرتها البلاد .

فى اليوم التالى نشرت الصحف اليومية مقالا طويلا جاء فيه :
« ونحسب دعوة الكاتب جماعة المفكرين الى الدفاع عن الحرية الفكرية ضد الدكتاتورية .. قد جاءت ممن كان آخر الذين ينتظر منهم الحماسة الديمقراطية والحرىات المقررة فى الدساتير لانه سبق أن طعن فيها وتحامل عليها .. الخ » .

وهذا صحيح ، على أنى بعثت الى هذه المجريدة أقول : « انى يوم انتقدت الديمقراطية ، لم أفعل أكثر من أولئك الكتاب الديمقراطيين الذين هبوا فى فرنسا وانجلترا يحملون على بعض مثالب هذا النظام مشبعين بروح الرغبة فى علاج الداء وتقوية الضعف ، على أن كل طعن وكل نقد لا ي مقصد من المقاصد ينبغى أن يزول فى الحال . وقد زال فعلا عندما بدا للجميع أن الديمقراطية باعتبارها ميذا انسانيا مهددة فى صميمها بالزوال ، وان شبح الطغيان القائم بدا فى الأفق ، يندر الناس بأن أفواهم ستكم ، وان حق تفكيرهم سيلغى بعد اليوم ، وانهم محكوم عليهم أن يعيشوا طول الحياة آلات وأدوات تتحرك بمشيئة طاغية ، هنا تتلاشى الخلافات والانتقادات ولا يبقى لكل رجل حر أو صاحب قلم وفكر الا أن ينهض ذا ئندا عن الديمقراطية ، ناسيا الى حين ماخذها ، فهى النظام الوحيد الذى يستطيع أن يعيش فى ظله فرد ذوكرامة ، واذا هبت الحرية فأجدر بالحر أن يموت .

هل أنا كاتب ديمقراطى ؟ الحقيقة انى لست ديمقراطيا بالمعنى السياسى لهذه الكلمة ، انى لا أستطيع أن أنتمى الى الديمقراطية باعتبارها نظاما سياسيا أو حزبيا . لأن الحرية الفكرية والروحية التى هى كل مسوح المفكر الحر الحقيقى تمنع من الانخراط فى سلك حزب أو نظام قد يضطر الى الدفاع عنه بالحق وبالباطل . انى لا أستطيع أن أدافع عما أعتقد أنه

الباطل . ولا أستطيع أن أخدم شيئا قط غير ما أعتقد أنه الحق ، وهو لن يكون الا فى المبادئ . المبادئ العليا الخالدة البعيدة عن الأشخاص الزائلين . ان الذى أؤمن به اذن وأدافع عنه دائما هو الديمقراطية باعتبارها مبدأ انسانيا لا نظاما سياسيا . الديمقراطية الموجودة فى قلب كل انسان يقدر معنى « حقوق الانسان » ومعنى « الحرية » و « الكرامة الآدمية » .

الكاتب الحر الحق هو الذى يبقى بعيدا عن الحركات الحزبية والسياسية كى يستطيع فى كل وقت أن يدافع بمطلق الحرية عن المثل العليا الانسانية ولا يؤازر المذاهب والأشخاص الا على قدر احتفاظها بروح هذه المثل .

لذلك لم أستطع أن أغمض عيني على بعض النظم السياسية المنتمية الى الديمقراطية يوم تطرق اليها الفساد وعبث بها الساسة المحترفون .

فى قصتي « براكسا أو مشكلة الحكم » ساخرة ببعض مظاهر الحكم الديمقراطي ، وسخيرة ببعض مظاهر الحكم الدكتاتورى . وليس فيها حل لمشكلة الحكم . لماذا ؟ لأن هذا ليس من مهمة الكاتب الحر .

ان الكاتب الذى ينشئ مذهبا سياسيا يتمسك به ويكبل فكره بنصوصه . مثل مثل الكاتب الذى ينضم الى مذهب سياسى قائم كلاهما قد فقد النظر الحر الى بقية المذاهب والاشياء ، وقص أجنته التى يحلق بها فوق الكائنات ليقع محصورا فى حظيرة فصيلة من الفصائل أو نوع من الانواع .

الكاتب الحر فى نظرى هو الحكم التزيه فى حلبة اللاعبين . انه هو الذى يحصى الاخطاء بغير تمييز ولا تحامل . وهو الذى يفضح ستر الخارجين على أصول اللعب القويم ، وهو الذى ينبه الغافلين الى كل خطر يدنو من قواعد المثل العليا .

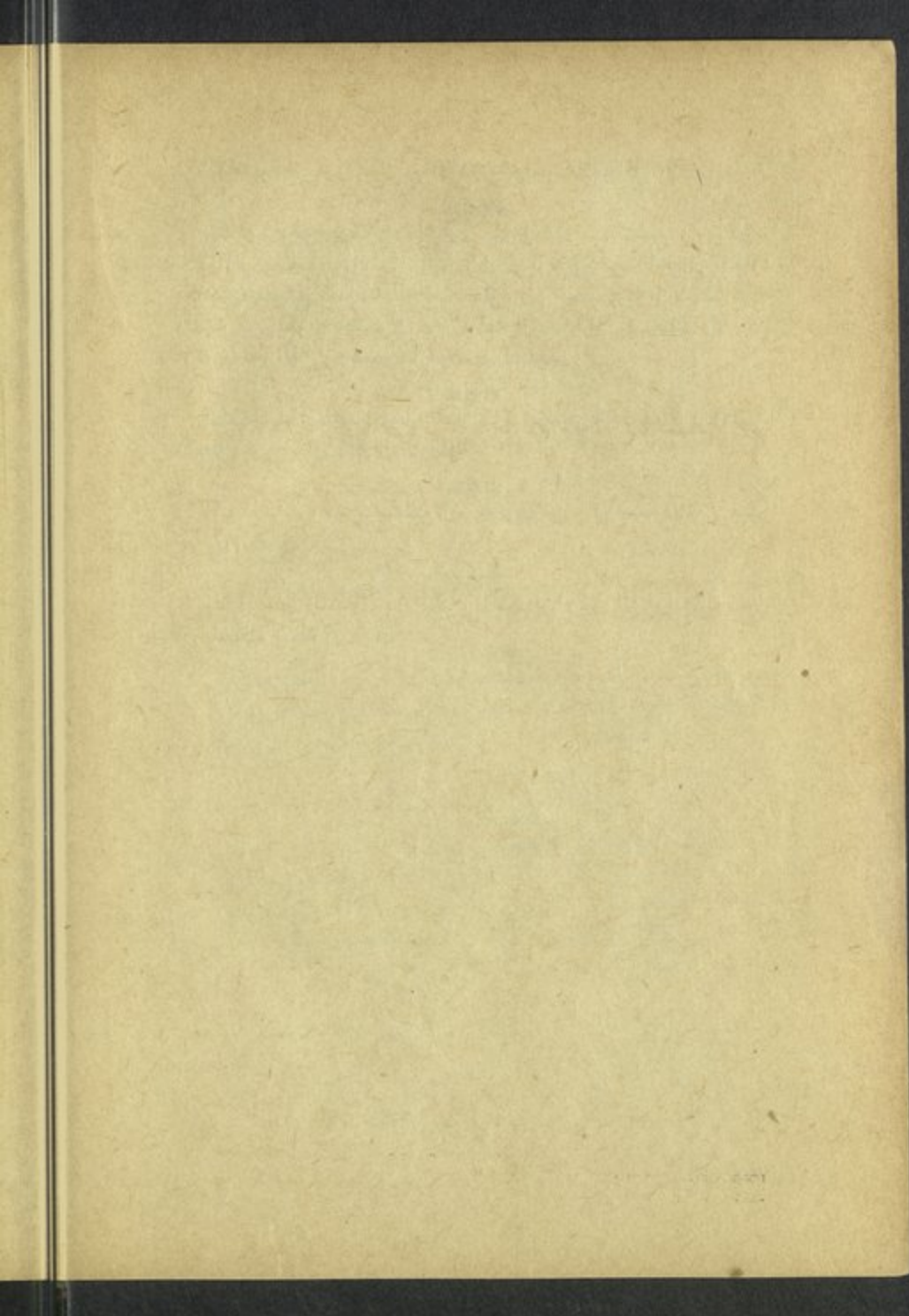
الكاتب الحر هو الحارس الأمين لجواهر الفضائل الانسانية .

للكاتب الحر مهمة ايجابية أيضا ، فهو يستطيع أن ينشئ
للانسانية نظما وعوالم مثالية ، وأن يرسل في الاجيال أفكارا
ومبادئ تصلح أساسا لمذاهب عملية في السياسية والاجتماع .
ولكنه لن يكون مسئولا عن كيفية استخدام أفكاره ولا عن
الاشخاص الذين وضعوها موضع التنفيذ .

التفكير الحر هو التحرر من كل القيود ، اذ بمجرد التقيد
تتعطل في الحال آلة التفكير الحر .

التفكير الحر قد يستطيع أن يتحرر من كل مبدأ الا من مبدأ
حرية التفكير .

لذلك كان النضال بين احرار المفكرين وبين الزعماء المروضين
هو نضال حياة أو موت .



في طريق التحرر من سلطان الظلام

أول خطوة في طريق التحرر من سلطان الظلام هي القضاء النهائي على رغبة القوى في الوثوب على الضعيف .

قانون الغابة الذي لم يزل يسيطر على المجتمع الدولي ، يجب أن تحل محله القوانين الخلقية والوضعية التي تنظم كل مجتمع متحضر لامة متحضرة .

ترتفع اليوم أصوات جميلة كأنها أهازيج الطير قبيل الفجر ، قبيل الفجر الجميل . لقد سرني قول روزفلت في احدى خطبه : لم يكن في العالم ولن يكون فيه عنصر يصلح أن يسود غيره من العناصر الاخرى . وليس في العالم مكان لامة تزعم لنفسها حق السيطرة على بقية الامة والاجناس لا لشيء الا لضخامة حجمها وقوة جيوشها . ان لكل شعب مهما يكن صغيرا حقا موروثا في التمتع باستقلاله كما يشتهي ويريد .

سررتني أيضا آراء ويلز في حقوق الانسان كما عددها وتمناها ،

ونظراته في مستقبل الانسانية . وتصوراته فيما ينبغي أن يكون عليه عالم المجتمع .

على أن الذي سرنى أكثر من هذا هو أن قادة الفكر والروح قد أدركوا أن عدوهم الحقيقي ليس فقط هؤلاء المهرجين من الزعماء المروضين . أمر هؤلاء هين ميسور . والقضاء عليهم مرهون بوقت يسير . إنما العدو الأكبر هو « دين العصر » الرابض وراء الجميع « الاقتصاد الحديث » .

لا أمل في اصلاح العالم الا اذا عولج شقاء الملايين في كل أمة من الأمم . من أجل ذلك لم يستطع حتى الزعماء المروضين أنفسهم أن يعتمدوا على كلمة « الوطنية » وحدها في التأثير على الجموع ، فقرنوها بكلمة « الاشتراكية » .

إن الصانع الذي يريد أن يلحم ذهبا بنحاس ليس أقل تزييفا من أولئك الذين أرادوا أن يلحموا « الاشتراكية » « بالوطنية » .

إن جوهر « الاشتراكية » السليم لا يمكن أن يقترن الا بفكرة « الدولية » .

إن العالم يتجه الآن من غير شك الى الاشتراكية . بل إنه قد خطا إليها بالفعل خطوة واسعة منذ قام في بريطانيا ذلك الانقلاب الحديث في نظام العمل ، هذا الانقلاب الذي بمقتضاه يصبح العمال « خدام الدولة » فلا يستطيع صاحب العمل فصلهم بمحض ارادته ويستطيعون هم أن يتركوا أعمالهم بدون إذن السلطات ، كما أنه يستطيع نقلهم من مصنع الى آخر ، وتحدد الحكومة الاجور وساعات العمل ، وتشرف على أرباح رأس المال الخ . . بل لقد قيدت الحكومة أرباح رأس المال الى حد المصادرة اذا تعدى الربح رقما مقررا .

اني لست أرى رأى القائلين ان تلك أنظمة استثنائية تزول بزوال الحرب . بل اني أرى رأى القائلين أن كل ذلك نواة لعالم

جديد يتكون منذ الآن ليولد صحيح البنيان بعد الحرب .



آتل

يقول مستر آتل زعيم العمال
وأحد وزراء بريطانيا اليوم :
« انطوى العالم الذى كان قبل
الحرب وسوف تكون الانقلابات
التي ستجلبها هذه الحرب مثل
الانقلابات التي جلبتها الحرب
الماضية في عظم شأنها وسعة
نطاقها . أما الخطط التي يراد
بها انشاء عالم جديد أقرب الى
الانصاف من العالم الذي انقضى
فلا يصح تركها الى زمان السلم ، بل يجب الشروع في رسمها
منذ الآن . اني لأرجو بعد الحرب أن يكون تقديم الطعام الملانم
لجميع أفراد الأمة جزءاً ثابتاً من برنامج السياسة « القومية »
واني لأرجو أن لا يسمح بعد اليوم ببقاء صنف « الاغنياء
المتعطلين » ولا أن ينكر حق العمل على الذين يريدون العمل
ويقدرون عليه . وأن يقضى على البطالة القضاء الاخير » .

لا ريب ان في أن الاشتراكية هي جوهر لا بد أن يدخل في
تركيب كل نظام سياسي حديث . وكما استطاعت الدكتاتورية
اختراع « الوطنية الاشتراكية » فما أيسر على الديمقراطيات
انشاء « الديمقراطية الاشتراكية » .

ما أسميه هنا « الديمقراطية الاشتراكية » ان هو الا هذه
النظم الاشتراكية التي قامت اليوم داخل اطار الديمقراطية .
كما ظهرت من قبل بعض مظاهر تلك النظم داخل اطار الوطنية
الدكتاتورية .

نحن اليوم اذن أمام حرب « الوطنية الاشتراكية »
و « الديمقراطية الاشتراكية » .

« الديمقراطية الاشتراكية » هي من غير شك صياغة مقبولة لجوهرين متلازمين ، لكن « الديمقراطية » شيء و « الدولية » شيء آخر .

إذا كانت كل ثمرات العالم الجديد بعد إبادة الدكتاتوريات هي تعميم « الديمقراطية الاشتراكية » لكان هذا جميلا . لكنه ليس كل ما يصبو اليه التقدم الانساني . ذلك ان (الديمقراطية الاشتراكية) هي أيضا أكثر من « نظام داخلي » لكل دولة من الدول ، وان كل دولة « ديمقراطية اشتراكية » تستطيع أن تنشئ لنفسها مطامع استعمارية وسياسة قومية تقوم على السيادة الخارجية وبهذا تستأنف الحروب الاقتصادية والدولية بين الدول « الديمقراطية الاشتراكية » بعضها ضد بعض .

كانت فكرتي منذ أعوام أن « الاشتراكية » ينبغي أن تأتي من الخارج الى الداخل . أي أن تسود بين الدول قبل أن تقر بين الافراد .

الاشتراكية بين الدول في الانتاج والتوزيع والقانون والنظام ، إذا تم ذلك فقد تم كل شيء تبعا لذلك .

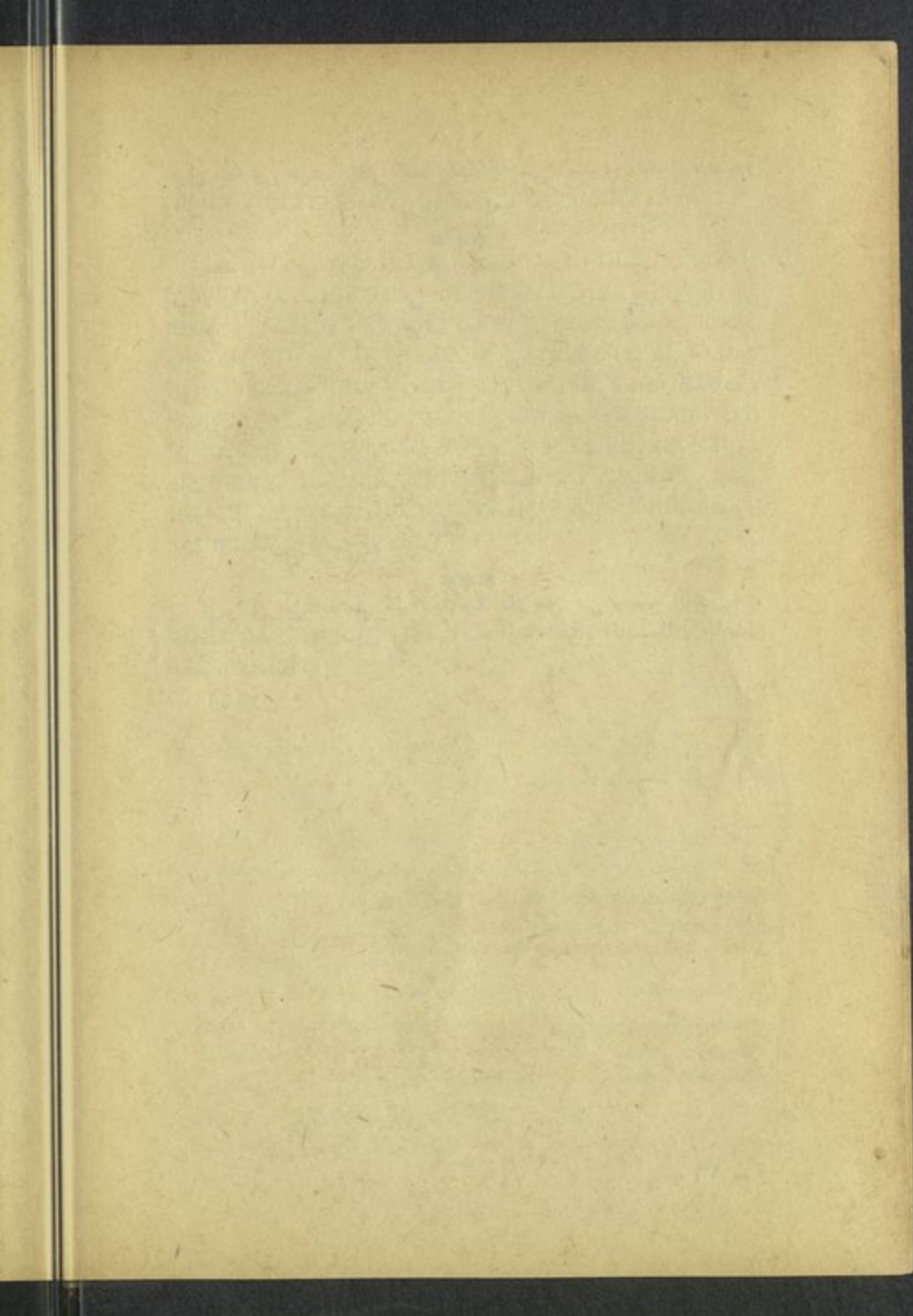
أعذا حلم بعيد التحقيق ، لا يراه غير خيال ويلز وبرناردشو ؟ كنت أظن ذلك قبل أن أقرأ خطبة رجل رسمي مسئول من أقطاب الحكومة البريطانية الحاضرة ، هو « هربرت موريسون » ، فقد تحدث عن عالم الغد قائلا : (ان الهدف الذي نرعى اليه هو نظام تعاوني دولي يدعمه بوليس وطيران دوليان تعيش الدول في رحابه مضحية عن طيب خاطر ببعض حقوق استقلالها ، لتتصافر جميعها في اخلاص على خلق حياة أرقى وأصلح ، ينبغي أن نعيش في ذلك النظام الذي يمنح فيه كل انسان ، لا فقط حرية القول والفعل ، بل حرية العمل لابداع كل ما هو خصب منتج . ينبغي أن تسير نحو ذلك المجتمع الذي يرى من ذلك الطاعون المزدوج : الغنى المتطرف والفقر المتطرف ، نريد مجتمعا

يقبل فيه عن طيب خاطر مبدأ المحافظة على مستوى معقول للصحة
والراحة والطمأنينة والامن والتهذيب لكل انسان . .)

وبعد ، أترى الانسانية قد فهمت أخيرا وتعلمت ؟ . . هل
آن الاوان للانسانية ، التي عرفت كيف تنفق ملايين الملايين في
التدمير والاستعباد ، أن تعرف بعد الآن كيف تنفقها في التعمير
والاسعاد ؟ . . هل آن لأعيننا أن ترى الطائرات في أحدث
أنواعها الضخمة كالقلاع ، تنقل بدل أثقال المفرقات والمهلكات ،
أعمال الخيرات والمنتجات ، ليعم خيرها البشر والكائنات ، دون
أن تعترضها جمارك أو حدود ! . . أترى أساطيل الهواء اليوم
ذات المظلات البيضاء هي ملائكة السماء غدا ، تهبط كي تمحو
الفواصل التي وضعتها يد البربرية على الارض منذ القدم لتحول
بين الانسان وأخيه الانسان ؟ . .

الى كل من يحمل قلبا نابضا بالأمل في سمو البشرية ،
فياضا بالحب للانسان والانسانية أوجه هذه الصيحات وأهدى
هذه الكلمات .

١٩٤١ . .



٤

أُمّاديت صماری

في السياسة والاجتماع

حمارى .. وعزبه

- دار بينى وبين حمارى يوما هذا الحوار :
- الحمار : أريد أن ألقى عليك سؤالا شخصيا ، أأذن لي ؟ .
- الحكيم : تفضل ! ..
- الحمار : ألم تفكر فى الانضمام الى حزب من الاحزاب ؟ .
- الحكيم : لماذا ؟ .. القهوة التى أجلس فيها الآن مريحة جدا
وتعجبني للغاية .. ولا أريد بها بديلا ..
- الحمار : خطرت لي فكرة جديدة طريفة ..
- الحكيم : خيرا ..
- الحمار : ما رأيك لو ألفنا نحن حزبا ؟ ..
- الحكيم : سياسيا ؟ ..
- الحمار : عاما .. انك تعلن الى فى كل مناسبة اعجابك بى
وبقصيلتى من الحميز .. لقوة مراسنا ، وطول صبرنا ، وشدة
جلدنا على العمل .. فما قولك لو شرعنا فى انتخاب نحو ثلاثين
حمارا من الطراز الاول ، نؤلف منها الحزب ؟ .

الحكيم : حزب من الحمير ؟ ..

الحمار : ولم لا ؟ ..

الحكيم : أو تظن أنك أحدثت جديدا في السياسة ؟ ..

الحمار : على كل حال الجديد هو رئيس الحزب الذي يلون
الاعضاء بلونه ..

الحكيم : ومن ترشح للرياسة ؟ ..

الحمار : أرشحك أنت بالطبع ..

الحكيم : أتظن أنه سيوجد انسجام بيني وبين الاعضاء ؟ ..

الحمار : لا شك عندي في ذلك . انك خير من ينسجم مع
هؤلاء الاعضاء ..

الحكيم : أعزنا مدح لى أم ذم ؟! ما علينا .. أنا أتشرف باسناد
هذه الرياسة الى شخصى المتواضع ، ولكنى لا يسعنى الا

الاعتذار .. فالمسئولية جسيمة .. وأنا أفضل أن أكون عضوا

بسيطا فى هذا الحزب .. من رأى ترشيحك أنت للرياسة ..

الحمار : أنا .. لا أصلح ..

الحكيم : لم لا ؟ .. الانسجام مفقود بينك وبين الحمير ؟ ..

الحمار : بالضبط ..

الحكيم : وغير مفقود بيني وبين « حضراتهم » ؟ ..

الحمار : بالضبط ، لأن مسألة الرياسة - كما لا يخفى -

دقيقة جدا ، توجد دائما مشكلات وعقبات وخصومات . وانك

لتعلم أن كل مشروع نافع لا يفسده غير التنافس على الرياسة ..

وكل اتفاق لا يقف فى سبيله الا الخلاف على الرياسة .. فاذا

أردت نجاحا لمشروعنا هذا فليكن الرئيس من الخارج ..

الحكيم : فهمت .. والمبادئ ؟ ..

الحمار : ليس الآن وقت البحث فيها .. المهم هو تشكيل

الحزب ، وانتخاب الرئيس ، واختيار المكان المناسب أو النادى

الملائم ..

الحكيم : عجبا .. حتى أنت يا ...

الحمار : ألسنت معى ؟ ..

الحكيم : أبدا .. أبدا .. ما الذى صنعناه اذن ؟ ..

الحمار : ماذا كنت تريد أن تصنع أكثر من ذلك ؟ ..

الحكيم : أشخاص ومكان وناد . انى يا سيدى - كما تعلم -

لا أعرف لعب الطاولة ولا الشطرنج . ولست ساحر الحديث ولا ظريف المجلس ولا أحب أن أكون من ذوى الجاه . كل ما عندي قلم لا أرضى أن أسخره فى هدم الأشخاص لمجرد الهدم ، ولا أن أستخدمه فى بناء أشخاص طمعا فى الغنى . انما هو خادم بالمجان لأى فكرة كبيرة أدافع عنها . . . تلك هى كل مهمتى . . . وكل مطلبى والباقى لا وزن له عندي . . .

الحمار : ما هذا الكلام ؟ . . . تريد فكرة كبيرة وفلسفة عظيمة . . . ولا تريد الهدم ولا الغنى ولا المال ولا الجاه ولا الخ . . . تريد أن تعلن ذلك حتى يقولوا عنا انه حقيقة حزب حبيب ؟ ! . . .

الحكيم : وا أسفاه ! . . . كنت أحسن الظن بأرائك . . .
الحمار : آرائى كلها صائبة ، ما من مرة أوحيت اليك برأى خاطيء . . . أنسيت يوم جعلنا نحصى ما نشرت من أفكار فوجدنا أن كل آرائك السليمة الحصيفة خرجت من رأسى أنا . . . وكل آرائك السقيمة السخيفة صدرت من رأسك أنت ؟ . . .

الحكيم : هس . . . لئلا يسمعك أحد . . .
الحمار : لا تخف . انى أخفض صوتى . ولكن أعترف أن آرائى التى أوحيت بها اليك ثبت صلاحها فى كل حين ! . . .
الحكيم : لا أذكر أنه ثبت صلاح أى رأى من آرائنا - أى آرائك - اضرب لى مثلا واحدا . . .

الحمار : ما أضعف ذاكرتك . . . خذ مثلا رأى الاخير الخاص بتعدد الزوجات . . .

الحكيم : « يا ساتر ! . . . ألم تر كيف قامت قيامة النساء فى كل مكان على هذا الرأى . . . وقلن أنه لا يصدر حقا الا عن حمار ؟ ! . . . »

الحمار : الحمد لله ! . . . أرايت ؟ ان آرائى لها طابع خاص لا يمكن أن يخفى . . .

الحكيم : لهفى على ذلك الفيلسوف الانجليزى الذى قرأت خبره أخيرا فى الصحف ! . . .

الحمار : حقا . . . ماذا ترى نساء مصر قائلات عنه ؟ انه أعلن أن عدد النساء فى انجلترا يزيد مليونين على عدد الرجال . . . ونادى هو الآخر بضرورة التعدد . . . وأبدى استعداداه هو بالذات للاقتران بست زوجات ؟ ! . . .

الحكيم : الحق أن رأى الانجليزى أدمشنى .. وأعاد الى نفسى بعض الثقة فى حصافة رأيك ورجاحة عقلك ..

الحمار : من يدرى .. ربما كان لى ابن عم نشيط نزح الى بلاد الانجليز هو الذى أوحى بهذا الرأى الى ذلك الفيلسوف ؟
الحكيم : لا أظن الحمار تستطيع أن تعيش فى جو انجلترا ..
الحمار : وكيف اذن يفكر الفلاسفة هناك هذا التفكير السليم ؟ ..

الحكيم : لست أدرى ..

الحمار : يسرنى على كل حال أن تكون متفقين فى الرأى ، أنا وهذا الفيلسوف الانجليزى ..

الحكيم : وأنا يدهشنى انى لم أسمع حتى الآن أن نساء انجلترا أتمن القيامة على لى زميلك الفيلسوف هذا .. المطالب بست زوجات ؟ ..

الحمار : انى لم أذهب الى انجلترا ولا أعرف عنها شيئا ، ولكن ربما كانت النساء هناك غير مثقفات ..
الحكيم : غير مثقفات ؟ نساء انجلترا .. وفيهن أعضاء فى البرلمان ؟ ..

الحمار : عجباً .. اذن لماذا ينهضن على الاقل فى البرلمان صائحات ضد هذا الرجل ؟ ..

الحكيم : أظن ان النساء هناك لا يصحن لانهن يعملن ..
الحمار : أو تركن اذن زميلى الفيلسوف يقول ما يريد ؟ ..
الحكيم : طبعاً .. وهل كنت تنتظر أن يضعن فى فمه اللجام ، كما يتمنى نساؤنا أن يفعلن بك وبى ؟ ..

الحمار : أريد أن أسألك سؤالاً محيراً : بماذا تفسر سعة صدر المرأة الانجليزية مثلاً وضيق صدر المرأة المصرية ؟ .. ما السر فى أن نساء انجلترا لم يغضبن عندما قال ذلك الكاتب انه يريد التزوج بست زوجات ، وغضب نساؤنا عندما قلنا بزواج أربعة فقط ؟ هل المصرية تقدس حقوق المرأة وتحرص على حريتها أكثر من أختها الانجليزية ؟ ..

الحكيم : سعة الصدر وضيقه .. ليست ظاهرة مقصورة على المرأة وحدها .. ولكنها ظاهرة شاملة تلاحظ فى حياة كل شعب تبعاً لدرجة عراقتة فى الحرية والحضارة والقوة .. فالشعوب

الحرية القوية هي في الغالب أوسع الشعوب صدرا وعقلا . ان
مسألة الزى الاوربي مثلا أو لباس الرأس لم تصادف في اليابان
أى صعوبة أو اشكال . . وعلى الرغم من التقاليد اليابانية القديمة
والوطنية اليابانية العريقة لم نسمع يابانيا ذكر كلمة « القومية »
أو « الوطنية » وهو يرتدى الزى الاوربي ، لانه لم يخطر قط
بباله وهو يلبس « القبعة » أنه سيخلع « قوميته » . أما الشعوب
الضعيفة فتتوهم دائما أن حريتها أو قوميتها أو عقيدتها ستخلع
منها وتذهب عنها بلفظ أو بكلمة أو برداء . فهي تنفعل وترتعد
وترتاع لمجرد المظاهر والالفاظ والكلمات . .

الحمار : لا بد لهذا من علاج . . ما علاج ذلك ؟ . .
الحكيم : حرية الكلام . . حتى يألف الناس الالفاظ . . ولا
يرتاعوا من الكلمات . . وحرية الفكر والعمل والتصرفات . .
حتى يعتاد كل فرد احترام رأى الآخر وعمله وتصرفه . . دون
أن يكون مضطرا الى اتباعه . الحرية هي المنبع الصافى لسعة
الصدر والعقل . . الحرية هي الطريق نحو القوة . . الحرية هي
انتصار الانسان على نفسه . وعلى كل سخافة انسانية . الحرية
هي دواء كل شيء . .

الحمار : اذن فواجبنا أن نتكلم . .

الحكيم : دائما . . حتى يسقط القلم من بين أصابعنا الميتة .

الحمار : لا تقل اذن ان آرائى دائما خرقاء ! . .

الحكيم : ان الحرق أو الهراء الذى يخرج من أفواهنا فيه أيضا
بعض النفع للناس . انه يجعلهم يتسممون سخرية منا على
الأقل . . واذا استطاعوا أن يسخروا فى ابتسامة جميلة
لا يعلوها زبد الغضب . فقد ساروا خطوة نحو الحرية . .

الحمار : كنت تريد لحزبنا مبادئها هو ذا مبدأ عظيم ! . .

الحكيم : الحرية الاجتماعية ؟ . .

الحمار : نعم . ما قولك ؟ . .

الحكيم : لا مانع عندى الآن من تأليف الحزب . . أجمع

الحزب ! . .

الحمار : هنا صعوبة بدت الآن ! . .

الحكيم : ما هي ؟ . .

الحمار : هل تظن من السهل أن نجد الحمار الذى يعترف

بأنه حمار ؟ . .

الحكيم : اذن لم يأن الاوان لتأليف هذا الحزب . .

حمارى والذهب ..

رأيت حمارى ذات يوم فهوموا .. فجلست بجواره صامتا
محترما ما هو فيه .. الى أن أحس وجودى .. فرفع رأسه
نحوى .. وجرى بيننا هذا الحديث :

الحمار : وأخيرا ؟ ..

الحكيم : وأخيرا ماذا ؟ ..

الحمار : مستقبلي .. ألم تفكر فى مستقبلي ؟ ..

الحكيم : عجبا ! .. لأول مرة أسمع حمارا يتحدث عن
مستقبله ! ..

الحمار : ما وجه العجب ؟ ألسنت مخلوقا حيا يعيش خاضعا
لقانون الزمن ؟ أليس لى ماض وحاضر ومستقبل مثل جميع
المخلوقات والكائنات ؟ لقد عشت معك حتى الآن عاريا ..
لا سرج ذهب .. ولا « رشمة » فضة .. ولا برذعة مرصعة
.. ولا ..

الحكيم : شئ جميل ! .. أهذا ما يشغلك الآن ؟ ! ..

الحمار : هذا ما يشغل كل انسان .. ان الناس كلها من حولنا
تفكر فى الذهب .. وتعيش للذهب .. وتتنفس بالذهب ..

وأنا وأنت قاعدان ننظر الى القوم من عل متدثرين فى أسمال أفكارنا ، وأطمار فلسفتنا ..

الحكيم : اسمع أيها الحمار .. فرغنا من آرائك الفلسفية .. ومن مبادئ حزب الحمير الذى أشرت بتأليفه .. واليوم تريد أن تفتح لى باب أطماع جديدة ؟ ! ..

الحمار : انى أفتح لك باب أعمال .. وما دمت أنا الذى يفكر لك ..

الحكيم : فكر لى فى شىء نافع من فضلك ! ..

الحمار : أنفع من الذهب ؟ يا للعجب ! .. هنالك لحظات اتساءل فيها أنا الحمار أم ..

الحكيم : الزم أدبك . لقد بدأت أضيق بك ذرعا .. وأشعر أننا أصبحنا غير متفقين فى كثير من الافكار والمشارب والميول .
الحمار : بل أنا الذى ضقت وضجرت و « غلبت » ! ..

الحكيم : فلنفترق إذن ! .. ما الذى يرغمننا على هذه الحياة المشتركة ؟ .. وعلى هذه الصحبة التى لا أجنى منها غير سوء السمعة ! .. اذهب اذا شئت ، وابحث لك عن صاحب من ذوى المال - وما أكثرهم اليوم - يغطى عريك المزعوم بالذهب والفضة . وسنرى بعد ذلك هل شعرت بالدفء حقاً وعلى ظهرك ذلك الغطاء الثمين ؟ ! ..

الحمار : وهل أنا شاعر بالدفء الآن وأنا عارى الظهر ؟ ! ..

الحكيم : بالطبع .. لو كان لك قلب يعرف حرارة الايمان ..

الحمار : يا لهذه الكلمات ! .. انك تكسونى بالكلمات .. وتغذونى بالكلمات .. ولا أجد شيئاً عندك غير كلمات ..

الحكيم : ولن تجد عندى شيئاً غيرها .

الحمار : من سوء حظى ! ..

الحكيم : حقاً .. ربما كان ذلك من سوء حظك لانك حمار .

الحمار : الزم أدبك .. يكفى انى تحملت عشتك طول هذا الزمن ، وأنت لا يتحملك أحد .. ولكن آن الاوان أن أتركك لوحدهك .. لتأكل وتشرب كما تشاء من أفكارك وكلماتك ..

الحكيم : اسمع .. انى لا أطيق أحداً يحقر الافكار والكلمات ! ان الكلمات هى التى شيدت العالم ، ان محمد لم ينشر الاسلام بالذهب بل بالكلمات ، وان عيسى لم ينشئ المسيحية بالمال

بل بالكلمات . الكلمات الصادقة والافكار العالية والمبادئ العظيمة هي وحدها التي قادت الناس في كل أطوار وجوده . وبنت الأمم والشعوب في كل أدوار تاريخها . ما من حركة وطنية أو قومية أو انسانية قامت أول أمرها على شيء غير المبادئ والكلمات . وعندما يظهر الذهب آخر الأمر ببريقه ورنينه . فاعلم أن أوان الانهيار قد آن . وأن هذا البريق سوف يذيب المبادئ بأشعبته الساحرة . وأن هذا الرنين سوف يصمم الأذان بجرسه القاتن عن سماع الكلمات .

الحمار : تريد من ذلك أن تقول أن الذهب عدو المبادئ ؟
الحكيم : بلا شك . لأنه هو ذاته ينقلب الى مبدأ . مبدأ خطر ، طاغ ، مثاله . ينسى الناس كل المبادئ الاخرى الحقيقية السامية النبيلة . أنظر الى مجتمعنا اليوم ، وقل لي ما هو المبدأ الغالب المسيطر على كل النفوس ؟ لقد قلتها أنت نفسك الساعة : انه الذهب . لقد تحكم حتى أصبح عو المقياس لقيم الرجال . ألا تسمع أن كل رجل كفى يتباهى بأن دخله من الشركات كذا ألف . فاذا طلب لواجب قومي وازن في الحال بين خسارته المالية هنا وربحه المالى هناك . وجاراه المجتمع في حسابه المادى صائحا : « لا مصلحة لفلان في أداء هذا العمل لانه » . تسر بعض موارده من كيت وكيت . أما أن يقام وزن للواجب المعنوى في ذاته ، فهو أمر لم يعد في بال أحد ، المعنويات والمثل العليا فقدت قيمتها في سوق الذهب . حتى الاطباء نسوا أحيانا واجبه الحقيقي . فأصبح أغلبهم صيارف نقود . يفخر كل منهم بدخله السنوى ولا يفخر بعمله الانسانى . والزواج أصبح هو الآخر علاقة مكسب وخسارة في ميدان المال ، فاذا تزوج أحدهم تساءل المجتمع على الفور عما تملك العروس . لان هذا هو المبدأ الذى تقوم عليه الآن هذه الشركة « المقدسة » ! ورجال العلم تركوا علمهم ونظروا الى الدرجات والمرتبات . فلن تجد في بلادنا عالما منكبا على عمله تحت « مكرسكوب » ليل نهار ليستكشف جديدا دون أن يكون له مطعم . غير أفكاره العلمية ونجاحها ، وخدمة الانسانية لذاتها . لان هذه الافكار والمبادئ ذابت في جر هذا المجتمع الذهبى . وانصهرت هذه الكلمة من جديد في قالب من ذهب . فاذا الناس يتقلبون تجارا . كل

فرد في الامة يريد أن يكون تاجرا .. بل ان لكل شخص اليوم
عملين : التجارة وعمل آخر . كل انسان الآن تاجر الى جانب
عمله الظاهر .. لان الذهب أعمى بصائر الناس ولعب بعقولهم
وقلوبهم الى حد أنساهم أنفسهم ومدلول لغتهم .. فغدا للناس
قاموس جديد كل كلماته : الربح .. الربح .. الربح .. المال .. المال
.. المال .. والشراء .. الشراء .. الشراء ..

الحمار : اذا كان هذا هو قانون العصر ، فلماذا تريد مني أن
أخرج على القانون ؟ اني كائن عصري من واجبي أن أنضوي تحت
لواء « المثل الاعلى » المسيطر في زمانى . وما دامت الافكار
والكلمات قد ذهبت بدعتها من عصرنا العملى ، فانا كذلك أدخل
عن نفسى تلك البدع القديمة ..

الحكيم : أيها الحمار العصري .. ان الافكار والمبادئ ليست
من البدع القديمة في كافة الشعوب .. أنظر حولك تجد شعوبا
لم تزل تبذل دماءها سخية من أجل أفكار ومبادئ .. ما هو
الدافع الذى يدفع هؤلاء الملايين من الشباب الناصر الى الجود
بأرواحه ودمائه ؟ أمنا لك دافع آخر غير بضع كلمات ؟! نعم ..
بضع كلمات آمن بها فدفع فيها دمه الغالى .. كلا .. ان الافكار
والمبادئ ليست من البدع القديمة الا فى نظرنا نحن .. ان
الكلمات الصادقة العظيمة بخير .. وهى لم تزل حافظة قوتها
فى كثير من الامم والشعوب .. وهى ما برحت جديرة أن تبذل
فى سبيلها المهج والارواح .. قديرة على أن تثير فى القلوب حب
التضحية بغير ثمن ..

الحمار : انك لتدهشنى .. كيف استطاع عصر واحد أن
يجمع هذا التناقض ؟ دماء تسيل فى مجرى .. وذهب يجرى
فى مجرى آخر ؟!

الحكيم : لقد اجتمع الضدان فى كل زمان .. منذ فجر الخليقة
والعظمة تسير الى جانب الحقارة . والسمو الى جانب التدهور ..
والعلو الى جانب الحضيض .. ولكن العبرة أى الطريقين تختار
لنفسك ولا تمتك ؟ ..

الحمار : اذا سألتنى أن أختار لنفسى فانى ..

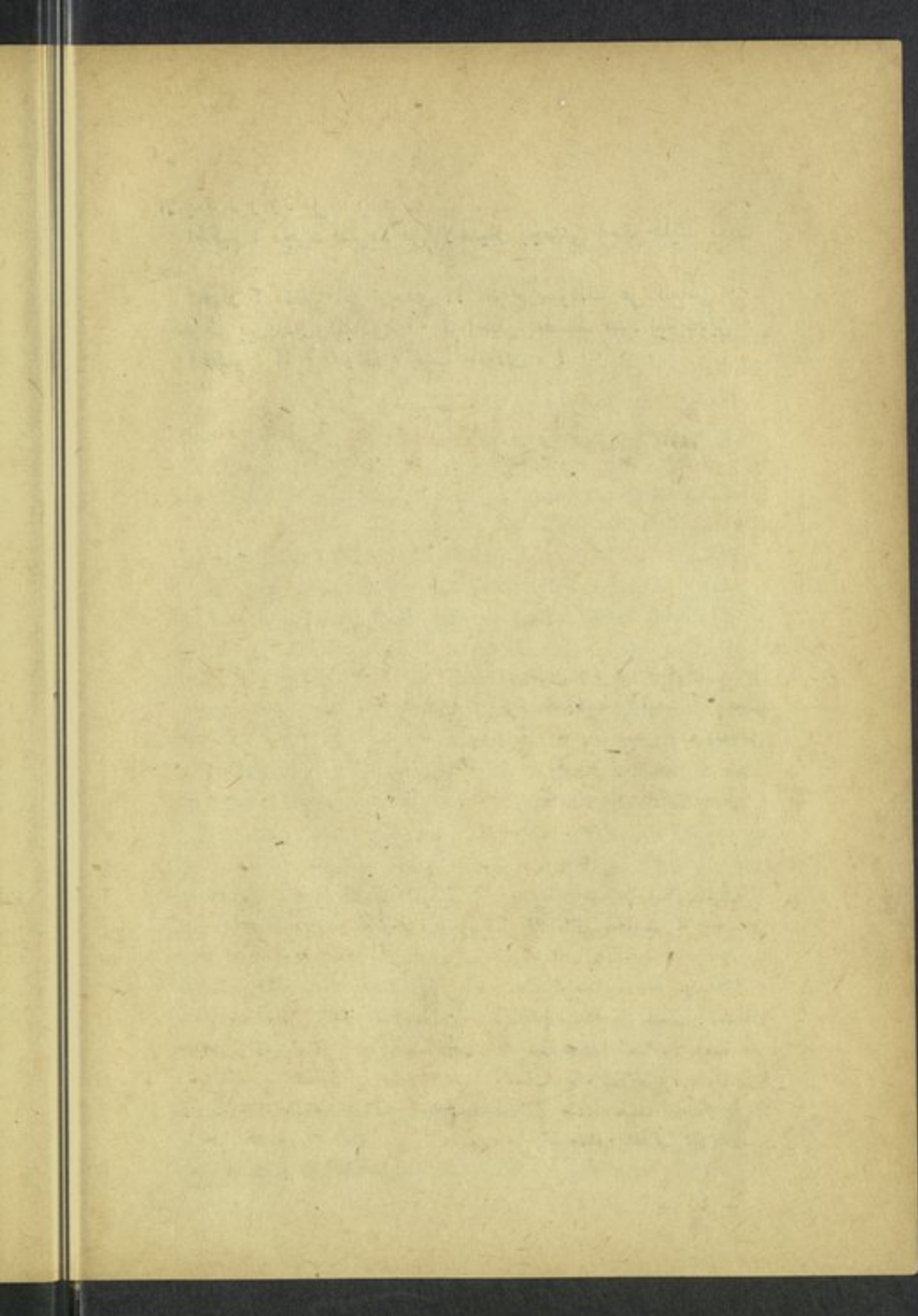
الحكيم : انطلق ..

الحمار : دعنى أفكر .. فانك تعلم انى لا أعطيك مرة تفكيرى

الا بعد ترو وتأمل ..

الحكيم : مجرد التردد في الاختيار يجعلني أحكم عليك بأنك
حمار ..

الحمار : أتظن أنني وحدي؟! اطرح سؤالك على الناس ..
وخيرهم بين المال والمبادئ .. ثم احص بنفسك عدد المترددين .
الحكيم : آه .. والله « غلب حماري » ! ..



حمارى يتفعل بالسياسة

جاءنى حمارى أخيرا نائرا يزد وينهق ويرعد ويقول .
- اسمع ، انى مصمم هذه المرة تصميميا أكيدا ، ومصر
اصرارا تاما ، فاياك أن تثبط عزيمتى أو تحاول منعى ، أو تتدخل
فى شؤونى ، أو تعرقل مشروعاتى ، أو تفسد تفكيرى ، أو تبرد
حماستى أو تكتم شعورى أو تخمد نشاطى ، أو تطفى لهيبى ،
أو ...

- مهلا .. مهلا .. ما هو الموضوع أولا ؟ ..
- الموضوع يا سيدى انى قررت نهائيا الاشتغال بالسياسة .
- على الرحب والسعة ، ومن قال لك انى معارض ؟ ..
- أنت موافق اذن على دخولى معترك السياسة ؟ ..
- موافق جدا ..

- هذا عين العقل ، الواقع أنها كانت سبة أن يجلس أمثالنا
هكذا ينظرون الى أحداث بلادهم ولا يحركون رأسا ولا ذنبا ..
نحن الذين نشأنا فى هذا البلد ، ونعمنا بخيره وخميره ، ورعيننا
برسيمه ونجيله ، وشربنا ماء نبيله ، كان حتما علينا أن يكون لنا
يد فى مصيره .. لا سيما ونحن من أصحاب الفكر الراجح ،
ومن قادة الراى الناضج ..

فنظرت الى حمارى مليا وقلت :

- أنت تتحدث عن نفسك بالطبع ..

فلم يحفل بالالتفات الى ملاحظتى ، ومضى يقول :

- انها لضريرة يجب أن يؤديها أمثالنا ، فالضرائب الواجب أدائها للدولة ليست مجرد المال الذى يدفع للمحصلين . ولكنها المواهب وثمراتها ، والقرائح وآثارها ، ان نتاج الازدهان لا يقل عن نتاج الالبان ثروة للامة ، وأنا كما تعلم لست من فصيلة البقر ولا الجاموس حتى أودى ضريبتى لبلدى من نتاج ضرعى ..

- مفهوم ..

- اذن كان يجب أن أساهم فى الحركة السياسية بتصيب ،

لذلك قررت الانضمام الى حزب من الاحزاب ..

- هل وقع اختيارك على حزب بالذات ؟ ..

- لا ، لم يحدث بعد ، وهذا بالضبط ما جئت أستشيرك فيه ،

على أنه توجد صعوبة قد تقف فى سبيلى ، يحسن بى أن أذكرك بها حتى تكون على بينة من الأمر قبل الادلاء بمشورتك ، تلك الصعوبة التى تخيفنى تتعلق بشخصى ، أعنى .. هل تظن

أنى سأجد حزبا يقبل أن تنضم اليه حمير ؟ ..

- اطمئن من هذه الجهة .. ولا يكن عندك خوف ! ..

فلمع الفرح والامل فى عينى حمارى وقال :

- اذن قد ذلت الصعوبة ، ولندخل فى جوهر الموضوع ،

ما هو فى نظرك الحزب الذى يتفق مع مبادئى ؟ ..

- أحب أولا أن أتشرف بمعرفة مبادئك .

- مبادئى معروفة : العمل لمصلحة الغير وانكار المصلحة

الشخصية ، ذلك هو الماثور عن جنسنا وفصيلتنا منذ ظهورنا

على الارض ، لقد عملنا وكدحنا وجهدنا لما فيه خير الآخرين ،

ولم نسأل لانفسنا أكثر مما نستحق بعرق الجبين ، فلم يعرف

عنا أننا سرقنا كما تسرق القطط ، ولا نعمنا بالتروء والدلال

كما تنعم الحيول ، ولا طمعنا فى أن نعزز ونكرم ونلقم السكر

فى أفواهنا ولا نعمل شيئا .. ولا شيء غير ذلك .. حتى لقد

جرى الناس على أن ينعثوا كل من يكذب ويعد بأنه « حمار شغل »

فمبادئنا هى ، كما ترى ، أن ننتج وننتج ، ولا نبغى من وراء

انتاجنا منفعة لذاتنا ..

- تلك بالطبع مبادئك باعتبارك حمارا ، ولكنك تريد ، على ما فهمت ، الانضمام الى حزب من أحزاب البشر .
- نعم ، وهل يقتضى ذلك أن أغير هذه المبادئ ؟ ..
- تغيير طفيف ، كلمة واحدة صغيرة وضعها خلف عبارتك ، ليكون مبدؤك سليما فى عرف البشر ، ضع كلمة « لا » أى لا انتاج للغير ، ولا انكار للذات .
- عجباً ! .. وما فائدة الحزب السياسى اذن ؟ ..
- فائدته نفع ذاته ، أليست هذه فائدة ؟ ..
- والآخرين ؟ ..
- أى آخرين ؟ ..
- الفضيلة أو الجنس أو الامة أو الدولة أو غير ذلك من الاسماء التى تطلق على المجموع ؟ ..
- لا تنس أننا نتكلم الآن فى محيط السياسة ، والسياسة فى كل زمان هى اللباقة أو المهاترة أو الحفة أو البراعة أو الكياسة التى تستطيع بها أن تسحب خاتم السلطة من أصبع منافسك وتضعه فى أصبعك .. الى أن يغافلك المنافس وينتهز منك فرصة فيسحب بدوره الخاتم من أصبعك ويضعه فى أصبعه .. وهكذا دواليك .. حتى يتعب أحكما من هذه اللعبة وقلما يتعب .. فالمسألة اذن لا علاقة لها بانتاج ولا عدم انتاج .
- والشعب ؟ أهو قانع بمجرد المشاهدة ؟ ..
- ومن قال لك انه قانع ؟ لقد دخل هو أيضا حلبة اللعب ، ان سياسة الماضى علموه كيف يتذوق هذه اللعبة ، فأصبح أكثر منهم تهافتا عليها واهتماما بها ، وأشد شوقا الى رؤية الخاتم ينتقل من يد الى يد ، ولا يطيق أن يصبر طويلا عليه وهو فى أصبع واحدة .. شأن المقامرین الذين لا يطيقون رؤية كرة « الروليت » تقف دائما على رقم واحد بلا تغيير ، فهم يهللون ويهتفون للكرة كلما وقفت على رقم جديد .. ويفرح الرابع ويحزن الخامس ، ثم تدور الدورة ويتغير الوضع ، ويتبدل أصحاب الفرع والترح بالتناوب ، وهكذا دواليك ..
- والشعب مسرور بذلك ؟ ..
- كل السرور ، ولقد أنست ، منذ زمن ، الحكومات هذا الميل فيه ، فعملت على تعميم هذه المتعة بين كل الطبقات ، وتيسير

اشترك كل فرد فيها ، فجزت على سنة لطيفة : وهى أن تأتى كل حكومة ومعها برلمانها وانتخاباتها ، أى « عدة الروليت » الخاصة بها ، فينصب « المولد » وتزدحم الجموع ، وتنتقل النقود من جيب الى جيب ، ويعلو الصياح من فم الى فم ، وتمد الموائد وتقام الولائم ويكثر الطعام والشراب والبذل والعطاء ، ويغمر الشعب فى جو صاخب كجو الاعياد ردحا من الزمن ينسيه شقاؤه ، ويلهيه عن مصيره .

- هذا شئ جميل ! ..

فنحن أمام ظاهرة جديدة ، ان ثراء الحرب قد غير عقلية الناس - جدا .. على ان هذا كله كان يحدث فى الماضى ، أما الآن فيما يظهر ، ما من أحد يريد أن يخسر ، لذلك كثر اللعب فى عين الوقت على رقمين أو أكثر ، وجعل الشعب مبدأه ذلك المثل الشعبى القديم :

- « من تزوج أمى قلت له يا عمى ، والام هنا هى السلطة ، فلا غربة فى خروج الناس أفواجا من الحزب الذى خلا من السلطان ليدخلوا أفواجا فى الحزب الذى لمخ فيه الصولجان ، كأنهم يخرجون من دار سينما تعطلت فيها الرواية ، ليدخلوا المسرح الآخر الذى أضىء بأنوار الرواية الجديدة .. ما دام هذا هو الاتجاه العام فنحن سائرون بدون أى مجهود نحو توحيد الاحزاب ..

- اذن فانت لا ترى لى أن أنضم الى حزب بالذات ؟ ..

- انضم كما تشاء على المبدأ الشعبى ..

- « من تزوج أمى .. ؟ » ..

- بالضبط ..

- ولكن ..

- لا تقل ولكن .. ولا تكن حمارا .. ان عناد الحمير وصلابة رؤوسها لا تنفع فى السياسة ، اليوم كل شئ لين مرن .. لا فى المبادئ وحدها .. بل فى كل شئ .. وعند كل الناس .. حتى بين الموظفين المسئولين عن تنفيذ القوانين ، ألم تسمع بذلك المأمور الذى حجز مجرما من مجرمي التمييز تطبيقا للقانون ، فاتصل به أحد ذوى النفوذ وأمره أن يفرج عنه فوراً ، فأخرجه من الحبس بعد الصنفع والاهانة وأجلسه فى مكتبه

ووقف بين يديه قائلا : « والله لا يصح أن تنصرف عنا قبل أن تشرب القهوة » !! ..

- يا للعجب !! ..

- لباقة ، أليست لباقة ؟ !! ..

- والأسفاه !! .. انى لا أملك هذه اللباقة !! ..

- اذن اجلس حيث أنت ، ولا تطمع فى سياسة أو ادارة ..

بينى وبينك .. ألا تظن ان هذه الحال فى مجتمعكم يجب أن تصلح ؟ ..

- أظن أن هناك تفكيرا يتجه اليوم نحو الاصلاح ..

- ومن الذى يصلح ؟ أهى الحكومة التى تصلح المجتمع ؟

أم المجتمع هو الذى يصلح الحكومة ؟ ..

- أجيبك عن هذا اذا أجبتنى أنت :

هل البيضة من الفرخة ، أو الفرخة من البيضة ؟ ..

- دعك من السفسطة ، ان اشتغالى بالسياسة على مبادئى

قد يعطى على كل حال خير مثل من أمثلة ..

- من أمثلة الحمق والقناعة والغفلة .. الجديرة بحمار ..

هذا ما سيقال عنك وعن مبادئك ..

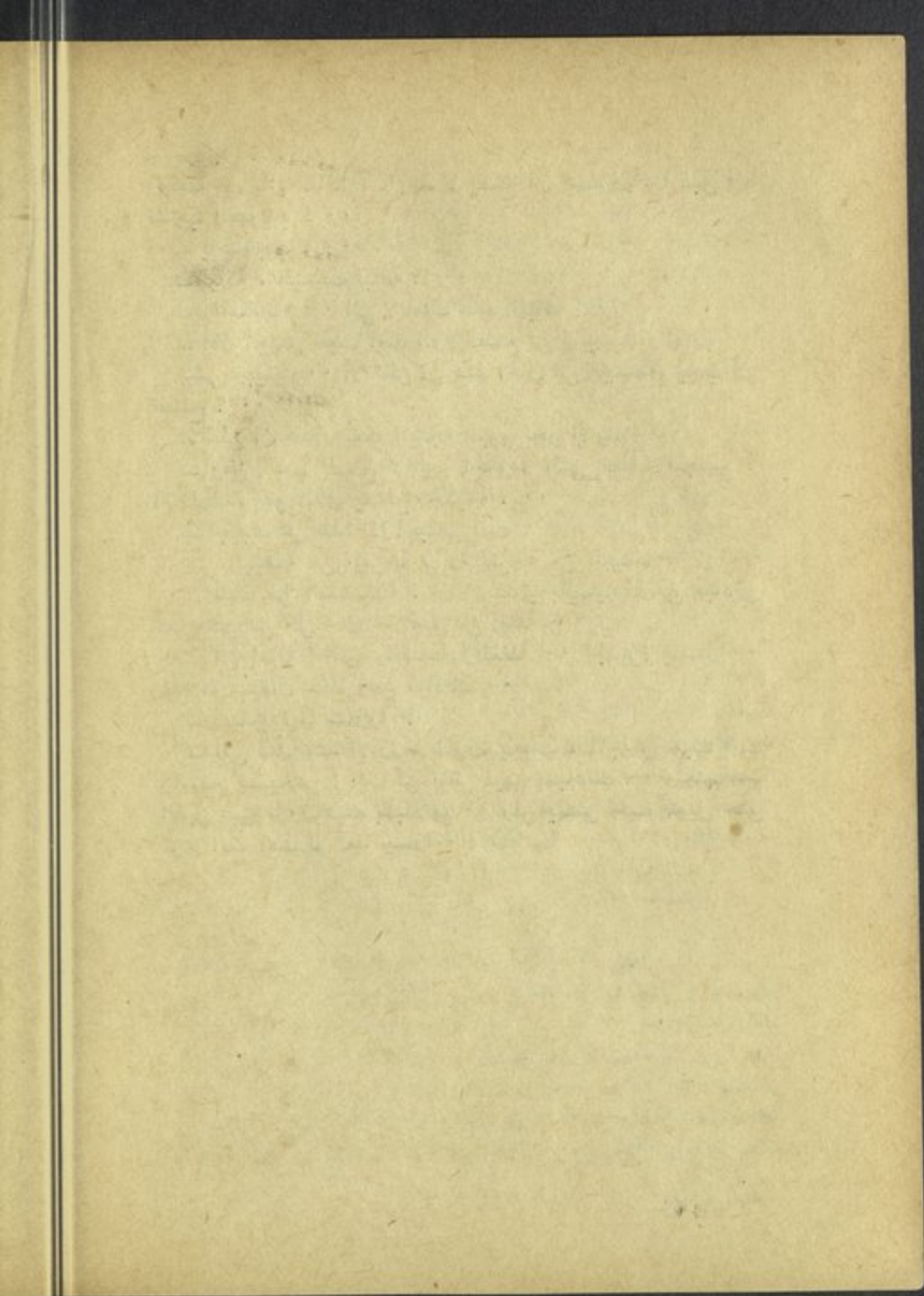
- فليقولوا ما شاؤوا ..

- انى أعلم منذ الآن ما سوف يحدث ، فاجلس حيث أنت

واسمع نصيحتى ! انك لن تؤثر فيهم بمبادئك .. ولكنهم هم

الذين سيؤثرون فيك بمبادئهم .. ولن يمضى وقت طويل حتى

ترى انك أنت لم تعد حمارا ..



كل عام والحرار بخير !

تلقيت من « حمارى » التهنة التالية :

زميل توفيق الحكيم ..

واجب الصداقة ، والزمانة والعيش والملح ، ولو انى لا آكل
الملح - يدعونى الى أن أتقدم اليك ، قبل جميع الناس ، مهنتا
بالعيد ! ولا تظن انى طامع فى أن تمنحنى « العيدية » .. فأنا
كما تعلم لا أنتظر منك منفعة ولا مصلحة .. انما أعرفك لوجه
الله .. وهذا نادر اليوم فى بلدك ، وعند أبناء جنسك ! ..
بل انك لتعلم انى أنا الذى يوحى اليك بالافكار ، وأنت الذى
تقبض الاجور ! ..

ولم يخطر ببالى أن أطالبك يوما بنصيب .. لانى « حمار » !
فليكن عزائى على الاقل حسن ظنك بى ، وبأخلاقي ، وثقتك
ببعدى عن الغايات والاغراض ! ..

فتهنتنى اليك اذن ليست من طراز تلك التهانى ، التى تمطر
اليوم سيولا على أبواب ذوى السلطان ، وتمنياتى لك ليست
من قبيل الزلقى والرياء ! بل هى شئ خالص صادق لشخصك
المكتوب على أن أصاحبه فى الايام السود والبيض ! ..

وإذا سألتني ماذا أتمنى لك في حقيقة الامر ، لقلت لك بكل
بساطة :

أن تكون مثلي !! ..

اياك أن تغير مبادئك في الحياة ! اياك أن تطيش بلبك الاطماع
الزائفة ، ويبهز بصرك الجاه الكاذب ! ..

أثبت على مبدئي الذي ألقنه لك صباح مساء : عش لاداء
الواجب ، ولا تهذر الواجب لتعيش ..

وسوف أذكرك بهذه الكلمة في كل عيد ما حييت ! أنت وأنا ..

« حمارك »

فكتبت اليه :

عزيزي الحمار ..

أنت دائما لا فائدة منك الا الثرثرة ووجع الدماغ .. لو كنت
خروفا على الاقل لذبحتك ، وأكلتك ، وتظاهرتنا بتوزيع لحمك
على الفقراء ، ولكنك حمار ..

صماری و البردعة

سألني صماری يوما قائلا :

- يتحدثون عن العمال وعن أصحاب رؤوس الاموال ، فمن هو العامل ؟ ..

فقلت له :

- هو انت ..

- هذا صحيح .. ليس في يدى غير العمل ولا أملك غير جهدى وكدى ، فمن الرأسمالى اذن ؟ ..

فقلت له :

- هو الذى يملك ذهباً يصنع منه بردعة يركبك بها الى مأربه ، ثم ينزعها عنك آخر النهار ولا يعطيك سوى ما يمنعك من أن تموت جوعاً .

- ولماذا يفعل بى ذلك ؟ ..

- لانه يعتقد أن الذهب هو كل شىء ، وأن عملك ليس شيئاً ، وان الذى حمله البردعة لا ظهره ! ..

Handwritten text, possibly a title or heading, in a cursive script.

Handwritten text, possibly a list or a series of notes, in a cursive script. The text is faint and difficult to read.

حمارى والقومية..

سألنى حمارى :

- أنت تنادى بايجاد « الطابع » والشخصية القومية لرجالنا
ونسائنا . فلماذا اتخذت « البيريه » لباسا للرأس اذن ؟ ..
فقلت له :

- انك تتكلم مثل كثير من أمثالك فى بلادنا . أولئك الذين
لا يفهمون إن المقصود بالطابع والشخصية والقومية هو جوهر
التكوين الذاتى لا عرض الرداء الخارجى . ولو أخذنا برأيك
ورأى أمثالك لكان على رجالنا أن يظلوا دائما بالجلباب والطاقيه
واللاسه .. وعلى نسائنا أن يحتفظن بالملايه اللف والبرقع ..
ولكن الرداء الخارجى لا علاقة له بالشخصية والقومية . والا
جاز لنا أن نقول ان اليابانى والتركى والايرانى والصينى
لا شخصية لهم ولا قومية لانهم يرتدون القبعات . وان لورنس
وفيلبى فقدا شخصيتهما الانجليزى لانهما لبسا أردية البدو ..
ان المرأة الانجليزى والتونسيه والروسية يشتركن جميعا فى

عين « الموضة » للرداء الخارجى وعين آخر طراز للزينة دون أن
يمنع ذلك من اختلافهن الواحدة عن الاخرى فى الشخصية
والطابع والقومية ..

فى المحيط الدولى لعصرنا الحديث لا يوجد شئ اسمه : « رداء
قومى » ولكن يوجد شئ اسمه : « تفكير قومى » و « شخصية
قومية » ..

حمار افندى

فى كل يوم يسألنى الناس عن حمارى ، كيف أصبح ؟ وماذا يصنع ؟ وأين اختفى منذ شهور ؟ وأنا لا أستطيع جوابا ، فالواقع أنه تركنى ذات نهار ، بغير كلمة وداع .. ومضى الى حيث لا أدرى .

أمس فقط مر بى على المقهى المعتاد ، حمار متأنق يلبس طربوشا ! - وما أضر الحمير الذين يلبسون طرابيش - ويضع على طرف أنفه منظارا ، عرفت من مشيته انه حمارى .. فناديت به ، فتعام وتجاهلنى ، وأسرع مبتعدا .. فصحت وراءه صيحة لم ير عنها مندوحة عن الالتفات والتحية .. فاستقبلته هاشا باشا ، وقلت له :

- من فات قديمه ..

- أفلح وربيع ..

فبادر يقول :

- كيف ذلك ؟ أخبرنى .

- « الحركة بركة » هكذا يقول المثل السائر ، انى معك لم أكن حمارا ، ولكنى كنت جمادا مثل مائدة الملهى هذه ، الموكب

أمامنا يسير والناس تتحرك والدنيا تدور ، والمبادئ تتغير ..
الفقير يشرى .. والوضيع يعلو .. والجاهل يسود ، كل حمير
الأرض أصبحت قادة وزعماء ووزراء .. ما عدا حمارا واحدا ..
- أنت ..

- وأنت أيضا ..

- أنا لا أحب التغيير ولا التلون ولا اللف ولا الدوران .. أنا
أحب الثبات .. والثبات على المبدأ .. تلك هي الكلمة الكبرى
التي كنا نهتف بها عام ١٩١٩ ، وكانت هي دستور الجميع ..
وكانت هي التي جعلت من مصر شعلة بطولة ..

- نحن الآن في عام ١٩٤٥ ، فأصبح من النوم ، مبدأ اليوم
هو : غير ميداك ، كما تغير « موديل » سيارتك ، أنظر حولك
في أنحاء العالم ، ها هو ذا « ميثاق الاطلنطي » أصبح « موديل »
قديما ، وها هي ذى مبادئ مؤتمرات يالتا وطهران وبوتسدام ،
يقال أنها أصبحت بالية عتيقة ، وترتفع الاصوات بضرورة
تغيير ، لا « بقطع تغيير » بل باصلاح وتبديل ..

أما في سياستنا الداخلية ، فالأمر كالعادة لم يصل بعد الى
المبادئ .. فنحن لم نزل نعمل في دائرة الاشخاص ، والشعار
لمن أراد تقدما هو : « بدل حزبك ، غير زعيمك » ! ..

- قد فهمت الآن .. فأنت من أجل ذلك بدأت أولا بتغيير
صاحبك القديم .. لا بأس .. الله يسهل لك .. لكنك لم
تخبرني : ماذا تفعل في الوقت الحاضر ؟ ..

- أحرر مؤقتا في الجرائد والمجلات ، ألا ترى صوري
الكاريكاتورية من حين الى حين ؟ ..

- حمار أفندي ؟ .. نعم .. نعم .. وكلماتك الماثورة تحت
كل صورة .. تعال اذن واقعد ، ودعني أطلب لك فنجانا من
القهوة ! ..

- باعتبارك زميلي في التحرير .. لا مانع ..

- زميلك ؟ ! ..

- أمري الى الله .. أنت تعرف دائما اني متواضع ..

- لا حول ولا قوة الا بالله ! أنت على كل حال يا حماري خير
من حمار ذلك القروي المسكين ..

- أي قروي مسكين ؟ ..

- اجلس واسمع منى قصته :

فجلس الى جانبي ، وجاءت القهوة ، فأخذ يرشفها بوقار ، ووظفت أنا أقص عليه قصة ذلك القروى الميسور الحال الذى لم يكن له عقب ولا خلف ، ولم يكن يعتز فى دنياه الا بنحمار مدلل ، رباه منذ فطم على أجود العلف ، وسمع القروى يوما أن أولاد أهل اليسر يرسلون الى المدارس .. فمضى بحماره الى مدرسة الحضر ، وسأل ناظرها : « هل فى الامكان أن يعلم هذا الحمار ؟ » .

وكان الناظر رجلا لبقا ظريفا ، فقال : « فى الامكان جدا ، ما دمت تقوم بدفع المصروفات ، وهى عشرة جنيهات فى كل عام » .. فقبل القروى الشرط ، وترك الحمار فى فناء المدرسة ، وانصرف على أن يعود فى آخر العام ، وباع الناظر بالطبع الحمار وتصرف فى الثمن .. ومرت الايام وجاءت نهاية العام ، وعاد القروى يسأل عن النتيجة ، فقال له الناظر الاديب : « مبارك حمارك نجح ونقل الى السنة الثانية » . ثم نصح له أن يبقيه فى حفظ المدرسة ، وأن لا يراه الآن أو يأخذه معه لتمضية الاجازة ، خشية أن ينسى ما تعلم ، اذا رجع فاختلط ببقية الحميز ، فاقتنع الرجل ، ودفع مصروفات السنة الجديدة ، وانصرف . ومر العام .. وعاد القروى يسأل ، فعلم أن الحمار نجح كذلك ونقل الى السنة الثالثة .. وهكذا أخذت الاعوام تمضى .. والمصروفات تدفع ، والحمار ينقل .. حتى رأى الناظر ان الاوان قد آن ليريح القروى ، ويدخل فى قلبه الاطمئنان .. فلما جاءه فى آخر مرة وسأله عن حماره قال له :

- مبروك .. لقد تخرج وأصبح طبيبا .

- أصبح طبيبا ؟! وأين هو الآن ؟ ..

فاشار الناظر الى عيادة طبيب مجاور للمدرسة ، كتب عليها بحروف كاقدام الافيال ، فوق لوحة بعرض واجهة العمارة : عيادة الدكتور « فلان » المتخصص فى جميع الامراض الباطنية ، الحادة والمزمنة ، والمتخرج فى أرقى جامعات ومستشفيات العواصم الكبرى بدرجة جيد جدا مع بكالوريوس فى علم الاشعة بتفوق والحائز على ميدالية الشرف فى علم الصحة ، والعضو بنقابة أطباء عموم القطر .. الخ الخ ..

ففرح القروي ، وأقسم أن يهدي الناظر « صفيحتين » من المسلي و « فردين » من الارز و « قفصين » من الدجاج و « بلاصين » من المش « حلاوة » هذا النجاح .. وذهب من فوره الى العيادة التي دله عليها ، ليرى حمارة النايغ .. فما أن دخلها حتى استقبله الممرض وأخذ منه أجرة الكشف مقدما ، ولم ينفعه احتجاجه بأنه انما أتى للزيارة المنزهة من الغرض والمرض . فوقت الطبيب النايغة من نصار ، وعقارب ساعته يجب في سيرها أو زحفها أن تفرز ذهبا .

وانتظر القروي حتى جاءت نوبته ، فدخل على الطبيب دخول رآه وحملق فيه وفحصه من رأسه الى قدمه ، ثم قال له بصوت رآه وحقق فيه وفحصه من رأسه الى قدمه ، ثم قال له بصوت يقطر عطفًا وحنانًا :

— ميروك يا دكتور ! .. أنت لا تعرف مقدار سروري ! .. شكلك تغير كثيرا ، ولكن لا بأس ، منزلتك عندنا لم تتغير .

— العفو ! .. اخلع ملابسك وأخبرني مم تشكو ؟ .
— أنا لست مريضا .. أنا جئت لأراك بعد حصولك على « الشهادة » لا فرح بك .

— متشكر ! .. وقتي كما تعلم محدود .. ر ..
— أهكذا تقابلني بعد طول القراق ! أنت طبعًا تتذكرني ..
— آسف ! .. لا أتذكر ..

— عجبًا ! .. ألا تذكر دارنا في « كفر غطاس » ؟ .. هل نسيت الايام الحلوة .. عندما كنت أعتز بك ولا أرضى أن أضعك الا في « زريبة » بمفردك ، بعيدا عن بقية « المواشي » ، ولا أعلفك الا بشعير منقي وتبن مقربل ! ..

فثار الطبيب وصاح في القروي :

— ما هذه الوقاحة يا قليل الحياء ..

فبهت القروي المسكين ، وقال بنبرة ألم :

— أنا قليل الحياء ؟! أهذا جزائي بعد طول عنائي فيك وتربيتني لك وانفاقي عليك في الغيظ والبيت والمدارس ، وعنايتي بك وبعلفك وتبنك ودريسك وبرسيمك ؟ ..

فلم يتمالك الطبيب ، وانفجر :

— تبني ودريسي وبرسيمي ؟! .. هل جننت أيها الرجل ؟!

أبينى وبينك معرفة حتى تأتي الى وتبيننى فى عيادتى ؟ ..
- أتتكر أيضا وجود المعرفة بينى وبينك ؟ .. اللهم عفوكم !
.. هل يصل تكران الجميل الى هذا الحد ! .. ولكن لا بأس
ربنا يعوضنى فيك خيرا يا صاحبنى .
- أنا صاحبك يا حمار ؟ ..
- أنا الحمار ؟ ..

قالها متعجبا وتركه وخرج خائب الامل خائر النفس ، وعرج
على ناظر المدرسة .. فلما رآه الناظر ، ابتدره قائلا :
- رأيت حمارك ؟ ..
فأطرق القروى حزنا وقال كالمخاطب نفسه :
- ليتنى لم أره ..
- لماذا ؟ ألم يقبل يديك ؟ ..
- انه لم يعرفنى ..
- احتقرك ؟ ..

- ماذا فعلتم به ؟ يخيل الى أنه لم يعد يرى انه حمار .. بل
انه رأى أنا الحمار ! ..

- ألم أقل لك أنه نجح ، وأنا نجحنا فى تخريبه ؟ تلك هى
مهمتنا ، نحشو دماغ من يأتى إلينا بقليل من علم يعمى بصيرته ،
فلا يبصر بعد ذلك نفسه ولا يرى انه حمار .

- الذنب اذن ذنبى ، لو علمنا الغيب لرضينا بالواقع ،
ولو علمت هذه النهاية لما جئت به اليكم ، والآن ماذا ينبغى له
كى يعود فيعرف حقيقته ، ويدرك انه حمار ؟ ؟ .

- هيهات ! هيهات ! لا بد لذلك من علم كثير ومن فلسفة
كبيرة ، لا توجد فى كل المدارس ، ولا تتاح لكل المدارك .
سمع حمارى « سابقا » هذه القصة ، ثم نهض متفائرا ،
ونظر الى من فوق منظاره متعاليا وقال :

- أفادك الله ! كم من العلم اذن وكم من الفلسفة يلزم لك
حتى تستحق أنت أيضا لقب « حمار أفندى » ! ..
نظرت اليه مليا وقلت :

- كى أكون مثلك وعلى مبادئك الجديدة .. لا أدري .. وهل
أستطيع أن أعرف نفسى ، أو أرى حقيقتى .. ومن يدري اذا
نظرت أنا الى مرآة الحقيقة ، أى وجه سيطلع لى : وجه انسان

أو وجه ... على كل حال ، ما دعت أنت قد نجحت وأفلحت
بعد أن تركتني ، وصرت في بضعة شهور من حمار فقط الى
حمار « أفنى » ، فكم ترى يلزم من الشهور والاعوام حتى أصل
الى ما وصلت أنت اليه ؟ ..

فابتسم راضيا ، وقال مهونا مشجعا :

- لا تستصعب الامور الى هذا الحد ، ولا تستهول المشقة ،
ما عليك الا أن تتبعني وتسير خلفي .. ولكن لن يمضي
وقت طويل ، حتى ترتقي وتراني أصبحت « حمار بك » ثم
« حمار باشا » ..

- ثم من يدري .. قد تصير زعيما سياسيا !! .

- هذا أقرب مما تتصور ..

- وعندئذ تطالبني يا زعيمى بتأييدك على « العميانى » ،

و « الثبات على المبدأ » ! ..

- طبعاً ..

- فى هذه الحالة تسمح لى أن أرفض مبدأ الثبات وأن أمتنع

عن الهتاف وراءك .

- اذا لم تهتف أنت ، فسيهتف حمار آخر .

حمارى وحزب النساء

قال لى حمارى وهو يلوح بعينه فى احدى الصحف خبر تأليف حزب نسائى :

- ما رأيك فى الحزب النسائى ؟ .. طبعاً لا بد ان يكون لك فيه رأى .. اليس كذلك ؟ ..
فأجبت قائلاً :

- أمن الطبيعى فى نظرك أن يكون لى فيه رأى ؟ لا بأس ،
ليكن الأمر كذلك وأظنه طبيعياً أيضاً أن يكون هذا الرأى فى
جانب حزب النساء .. ولم لا ؟ .. انى رجل مظلوم ، ولسوف
يؤلف عنى كتاب بعد موتى : « توفيق المقترى عليه » . الواقع
أنى دائماً أتمنى للمرأة تقدماً . ولا أختلف معها الا معنى كلمة
« التقدم » فهى تفهمها على أنها الجرى فى اثر الرجل واللاحاق
به . وأنا على العكس أرى الرجل هو الذى يجرى وراء المرأة .
فالمسألة فيما يظهر لا تعدو مجرد خلاف فى الرؤية والنظر .
وحتى الآن لم يفتح الله على الجنس البشرى بواحد ذى عينين
سليمتين ، ليبصر لنا أيهما هو الذى يسير خلف الآخر ؟ ! ..
ولا أسلم على كل حال بنظرية المرأة اثباتاً لحسن نيتى .

ولنقل ان الرجل هو المتقدم وانها هي المتخلفة . وتقانيا منى فى ارضائها أقول ان هذا التخلف يبدأ منذ نصف مليون سنة ، أى من عصر الكهوف ، يوم كان الانسان الاول يعيش حياة الصيد فى الغابات ، تاركاً أثاء فى كهفها تعنى بصغارها وتهىء مما صاد لها ولأطفاله طعامهم وطعامها .. لقد كان هذا التوزيع فى العمل بأمر الطبيعة التى زودت الرجل بعضلات قوية للكفاح خارج الكهف ، وحبث الأنثى بالوداعة والرحمة والحنان اللازم للامومة داخل العش .

ومرت آلاف الاعوام ، وهذا التقسيم فى أعمال الجنسين قائم ، وان كان الصيد قد تغير حتى اتخذ اليوم ألوانا جديدة مثل : المال والجاء والمنصب والنفوذ .. الخ . وتبدلت كذلك الاسلحة ، فذهبت القوس والنشاب وحل محلها سلاح آخر معنوى اجتماعى ذهني تصاد به كل الاغراض ، مما اصطللنا على تسميته بالعلم والخبرة والقدرة والسياسة الخ .. كذلك تغير كهف المرأة فأصبح « شقة » نظيفة أو « فيلا » مريحة ، تخطر فيها بأثوابها الانيقة وزينتها البديعة ، وتعنى بتنشئة أولادها على قواعد الصحة الجثمانية والخلقية ..

لم تستطع اذن خمسمائة ألف من الاعوام أن تحدث من التغيير فى أوضاع الجنسين أكثر من ذلك . ولقد لبث لكل منهما عالمه المنفصل ومجال نشاطه المستقل طوال هذا القدر الهائل من الاحقاب . الرجل له الخارج والمرأة لها الداخل . وأظن أن نصف مليون سنة مدة كافية لأن تكيف طبيعة الانسان فاذا راق للمرأة اليوم أن تغير طبيعتها . وحلا فى عينها أن تعمل ما يعملها الرجل ، فتشتغل بأعمال الخارج وتخوض بنفسها غمار الكفاح فى ميادين السياسة والجاء والسلطان ، فذلك موكول اليها ، وكلنا نرحب به ، بل انى أناشدها أن تسرع منذ الآن . ولتبدأ من البداية فى الحال ، حتى لا تضيع وقتا على من سوف يأتى فى المستقبل من أجيال ..

والاقتراح العملى لتحقيق ذلك ، هو أن نبادر من فورنا فنرسل حضرات سيدات الحزب النسائى الى مجتمع قطرى يشابه مجتمع الانسان الاول . وأظننا نجد مثل هذا المجتمع الآن فى غابات أواسط أفريقيا . هناك نترك البعثة الكريمة

لتضع أساس الحياة المنشودة . وعليها أن تعيد توزيع العمل من جديد على الوضع العكسي ، فتتولى هي القيام بأعمال الصيد في الغابات ، وتدع للرجل العمل داخل الكهوف . ولنتنظر نصف مليون سنة أخرى ، وهذا ليس بكثير ، حتى تتوالد أجيال جديدة من النساء المكافحات ، يرفعن رؤوس أجدادهن ، ويسطرن بمداد الفخار مبادئ الحزب النسائي الموقر ! ..

على أنني أخشى أن يرى الحزب النسائي أن اقتراحى هذا غير عملي ، فمن الواجب إذن أن نفكر في حل آخر . . .
قد تقول لى بعض النساء المحترمات : لماذا لم نجرب ونسمح لهن منذ الآن بمقاعد فى البرلمان ؟ .. أنا شخصيا لا أرى مانعا من اعطاء المرأة حق التمثيل السياسى فى مجلس النواب «بالطبع جميع النساء متنازلات مقدما عن حقهن فى مجلس الشيوخ» .
وزيادة فى تسهيل الامر على اخواننا المحافظين المتعنتين من الرجال أقترح الاخذ بمبدأ أن « للذكر مثل حظ الانثيين » ، فيكون لكل امرأتين صوت واحد . . وأرجو من السيدات أن يتساهلن فيقبلن هذا الشرط مؤقتا ارضاء لغرور الرجال .
وانى على أتم استعداد لمعاونة المرأة والمطالبة معها بهذا الحق على هذا الأساس . . الا اذا اعترض حزبهن الموقر بأن هذا الرأى أيضا غير عملي ، بحجة أن اشتراط صوت لكل امرأتين يتطلب وجود امرأتين فى البرلمان يمكن أن تتفقا على رأى واحد . وهذا بعيد الاحتمال . .

مهما يكن من أمر ، فانى راغب من كل قلبى فى منح المرأة حقوقا سياسية مساوية لحقوق الرجل ، وأرجو أن أعيش حتى أرى اليوم الذى تتبوأ فيه نساؤنا مقاعدهن تحت القبة .
وهنا فليسمح لى بسؤال : هل ستكون لهن مقاعد خاصة باعتبارهن حزبا منفصلا قائما بذاته ، أو أنهن سيدخلن على مبادئ أحزاب الرجال المعروفة ، ويمتزجن بها ، كل واحدة ضمن الحزب الذى يرشحها ؟ ..

اذا كان الأمر الاول ، فلا شك أن حزبهن المستقل سوف يكون فى الشؤون النسوية صاحب الكلمة التى لا تعصى ولا ترد . فإذا اقترح الحزب النسائي مثلا اغفاء « البودرة »

و «الروح» و «الجوارب» من كل ضريبة جمركية أو تجارية ،
فان هذا الاعفاء نافذ بدون كلام ، والرجل الذي يجرؤ على
المعارضة يكون مستعدا لتكد الدنيا يهبط على أم رأسه ، لا فى
البرلمان وحده ، بل فى بيته من زوجته أو أخته أو ابنته ..
أما اذا كان الامر الثانى ، فانى لا أرى فائدة كبرى تعود على
المرأة منه . وأخشى مخلصا أن تطويهن مطامع الاحزاب الاخرى ،
فلا ينتفعن لانهن بشئ .

لى بعد ذلك ملاحظة شكلية يجب أن توضع موضع الاعتبار :
لقد غاب أحد الشيوخ المحترمين على النساء الموظفات حرصهن
على زينتهن . وأنا لست من رايه . اذ ما دمنا قد سلمنا للمرأة
بحقوقها فى الوظائف العامة ، فلا بد لنا من السماح لها باستعمال
حقها الطبيعى فى « الاحمر والابيض » .. وما أحسب أحدا
من زملائها فى البرلمان يثير هذا الاعتراض يوم تتخذ مكانها
فيه ، فان الوجه النظيف والتزين اللطيف من أبلغ حجج المرأة .
وليس من الانصاف أن نحرّمها سلاحا من أسلحة بلاغتها
المأثورة فى ساحة يتدّرع فيها كل عضو بكل أدوات الفصاحة والاقناع

●●●

وأخيرا ، يا حمارى العزيز فانى ألخص لك رايى فى كلمة
واحدة هى : موافقتى التامة على وجود المرأة فى البرلمان وفى
كل مكان الى جانب الرجل لأن مجرد وجودها يحدث نشاطا
فى الهمم وتألّقا فى الافكار ..

لقد قلت ذات مرة : « ان المرأة مثل القمر (أقصد معناه
الفلكى لا الشعري) فهى لا تشع ضوءا من داخل نفسها ، بل
تعكس الضوء الأتى اليها من شمس عقل الرجل . هى كالقمر
كائن سلبي ، وسطح معتم فى ذاته لا تسطع الا بما ينعكس على
قلبها ورأسها من تفكير الرجل واحساسه .. فدونها منه فى
مجال العمل المنتج ، له من الفائدة ما يعادل فائدة المرأة الى
جانب المصباح .. انها تضاعف نوره ، وتزيد اشعاعه .

أما أن تنتظر منها أكثر من ذلك فهو انتظار للمستحيل .
لن يكون للنساء فى مجالسنا النيابية والاجتماعية أكثر مما
للمرايا بجوار المصابيح فى القاعات والصالات .. ولقد بلغنا
ولا شك فى الحضارة حدا يقتضى أن نزين جدراننا بالبللور !!

حمارى والنفاق

قال لى حمارى ، وقد رآنى أتهيا للسفر ذلك الصيف الى رأس البر : أتذهب وحدك ؟ ففجئت منه ودعوته . لأن الوفاء يابى أن أتركه يصلح حر القاهرة وأمضى أنا بدونه الى المصايف .. ولقد نزل مثلى ضيفا معززا مكرما على « عشة » أحد الاصدقاء ، وأفرد له مكان بجوارى . وأصبح ينعم بهواء البحر مثلنا . ويذهب معنا كل صباح الى « خيمتنا » التى نصبت على الشاطئ . وينظر كما ننظر الى أفواج المصيفين والمصيفات تغدو وتروح بألوان ثيابها الزاهية المختلفة ، كأنها معروضات الفترينات قد وضعت فيها محركات تسيرها أمام أعينها فوق الرمال .. وكان يحلولى أن أغرق صامتا فى مقعد بحرى طويل مريح . وكنت قد أوصيت حمارى بالسكوت . فنحن هنا للراحة لا للكلام . وقد أذعن لرجائى فلم ينبس بحرف . الى أن جاء ذات يوم الى « البلاج » رجل من معارفنا له جسم قد ترهل وكسرش قد برز كأنه فنطاس « غاز وهو يرتدى « الشورت » مع قميص قصير الاكمام ، فقلت له :
- يا لك من رشيق ! يا لها من رشاقه ! ..

وهنا لم يتمالك الحمار وهمس قائلا :
- أحقا تراه كذلك ؟ ..
فقلت بصوت مرتفع سمعه الرجل مغتبطا :
- طبعاً أراه كذلك .. ولماذا لا أراه كذلك ؟ !
فهمس الحمار لى وهو يتأمل قوام الصديق وقده من رأسه إلى قدمه :

- كيف لا أرى أنا ما تراه أنت ؟ ..
فقلت له مغتبطا :
- لا، لك أنت حمار ..
فأجابنى هامسا :
- ولماذا لا تقول لا، لك أنت منافق ؟ !
وكان الصديق قد ابتعد ولحق بمضيفى ، ولقد اطمأن إلى حسن منظره ، وسارا معا على الشاطئ ، وبعد أن يشسا من ذهابى معهما ، فانا لأحب المشى . وانفردت بحمارى أصبح فيه :
- أنا منافق ؟ ! ..

- مهلا .. مهلا .. أنا لم أقصد اهانتك ..
- افهم أيها الحمار أن هذا ليس نفاقا ولكنها مجاملة ..
- مفهوم .. انها مجاملة .. والمجاملة هى النفاق الصغير ..
هى كالجحش بالنسبة إلى الحمار ، ومع ذلك فانا لا أستهجن النفاق على الإطلاق . انى تأملت نفسى ذات يوم وتأملت وقلت :
ما الفرق بيننا معشر الحمير وبينكم معشر الآدميين ؟ ! نحن نأكل الفول ، وأنتم تأكلون الفول .. وإذا كنا نحن نجبه ممزوجا بالتبن أو النخالة وأنتم تحبونه بالزيت أو بالزبدة . فتلك مسألة مزاج .. ولا يجب أن نسميه فرقا جوهريا . انما الفرق الأساسى حقا بيننا وبينكم : هو انكم تعرفون « النفاق » ونحن لا نعرفه . وقد عللت نفسى ومنيتها بحلم جميل هو أن تتاح لى الفرصة أن أرجوك يوما وأتوسل اليك أن تعلمنى النفاق ..

- عجيبا .. من علمك هذا الاسلوب الهازى ؟ !
- انى لست أهزأ . انى أقول الجد . تلك عقيدتى : لو أمكننى تعلم النفاق وادخاله فى فضيلة الحمير لانقلبنا مخلوقات مثلكم . انى مؤمن كل الايمان بهذا المبدأ ، وانى أعمل سرا على

تنفيذه منذ زمن . فلا تقف في وجه مطامعي وآمالى . خذ منى كل شيء واعطني النفاق ! ..

— ماذا جرى لك ؟ هل جنت ؟ هل أثر في رأسك هواء البحر النقي وطعام مضيئنا الشهي ؟ ! ..

— رأسى بخير .. ولقد سألتك شيئاً سوف يحدث انقلاباً في تاريخ بنى جنسى ، ولكنك تبخل به علينا وتضن . قلن الح أو أثقل عليك بعد الآن في الطلب ! ..

— أمرك غريب .. أبخل عليك بماذا ؟ أهو شيء عزيز نفيس استكثره على مثلك ؟ .. هذه أول مرة أسمع فيها ان للنفاق قيمة يحرص عليها الانسان ! ..

— أما أنا فقد سمعت ان « النفاق » له قيمة كبرى في الاسواق العالمية . وان أجود أنواعه في مصر ، كما يوجد فيها أجود أنواع القطن .

— يظهر انك استقيت معلوماتك من مصادر خبيثة .

— لقد قيل لى ان « النفاق الطويل التيلة » ..

— ماذا تقول ؟ ! ..

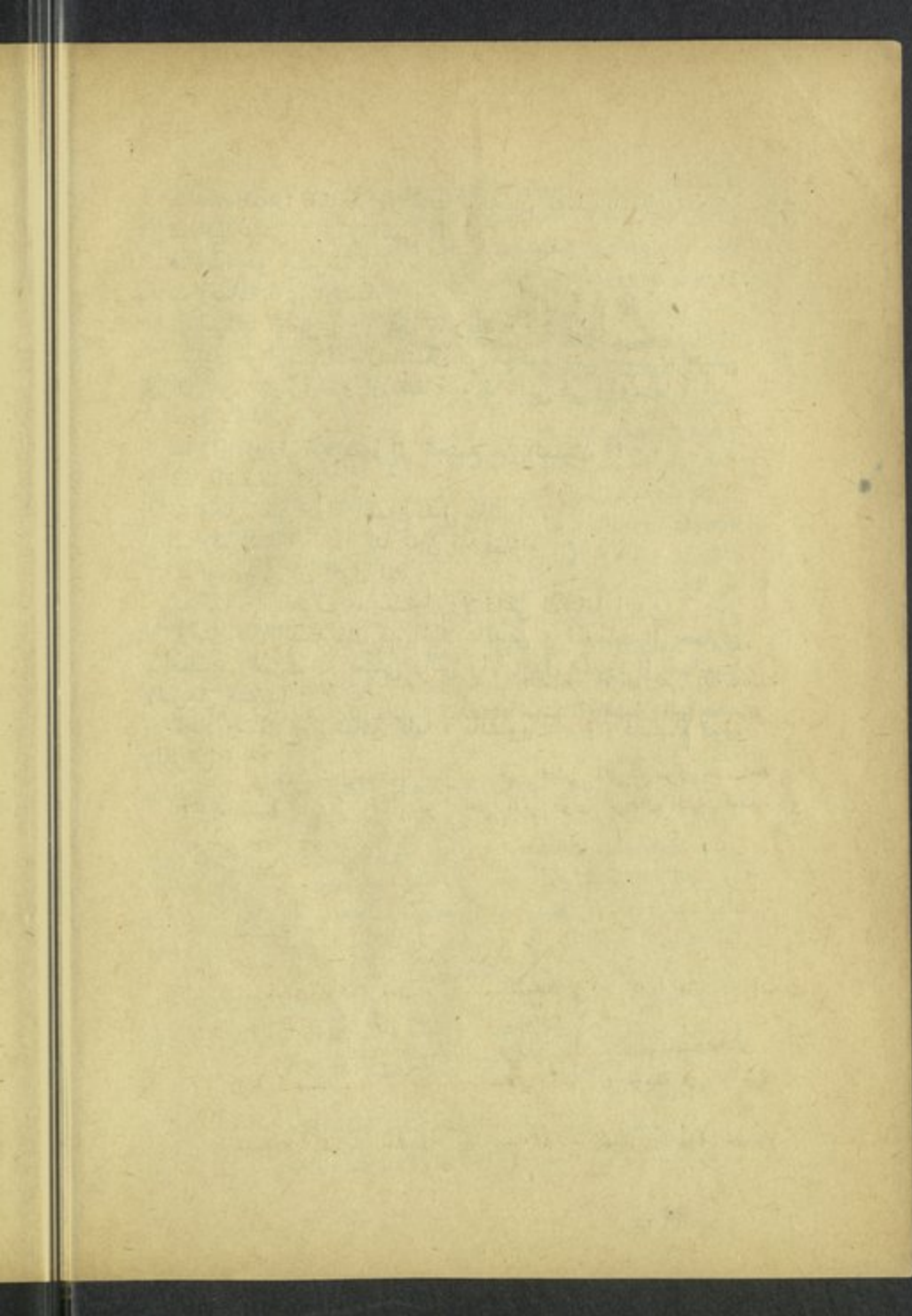
— نعم .. انه كالقطن ، ألا ترى هذا ؟ ! ولعل السبب في تفوقه وتميزه بطول تيلته انه يمتد الى الطرفين : الفرد والمجتمع . فمثلاً من الجائز أن يعتنق الفرد رأياً مخالفاً للجماعة فتنهض ضده الجماعة فيقبع في داره صامتا .. وهذا ما يحدث في كل بلد آخر .. أما هنا فيحدث غير ذلك . فقد أخبروني ان أفراداً قاموا ينادون بأفكار حرة فاتهمهم الناس بالاحاد . فلم يكتفوا بالعصمت ، بل قاموا في اليوم التالى يحملون المسابح الكهرمان ويرتدون العمام ، العمام الخضر ، وآخرون عرفهم المجتمع من أهل الحمر والسكر فلم يكتفوا بالتوبة الصامته بل راحوا يتزعمون حركات الحضر على الورع . ونساء يرتكبن في السر الفجور وينادين في العلن بالفضيلة . وسياسيون قد خلق الله لكل منهم وجهاً واحداً فصنعوا هم لانفسهم وجوهاً عدة يستقبلون بها كل حكومة تقوم أو كل أزمة وزارية تطرأ . وأسرى وعائلات توزع فيما بين أعضائها المبادئ والاحزاب ، كما يوزع الله بين عباده القسم والارزاق . ومرووسون يدهنون الرؤساء على حساب الدولة ، ورؤساء يراوون الشعب على حساب المصلحة .

وسيدات يردن العيث واللهو فيقلن للناس أنه البر والخير -
 وأهل دين يملؤن الصحف ضجيجا حول الاخلاق ويدقون طبلا
 ضد الرزيلة وما يقصدون في سريرتهم غير التظاهر والاعلان -
 ورجال تقوى يأمرون الناس بالعفة ويستثنون أنفسهم وذويهم -
 هذا بعض ما يتعلق بالطرف الاول وهو الفرد .. أما الطرف
 الثاني وهو المجتمع فله نفاقه أيضا .. فقد بلغنى في ذلك أنه
 ما من مجتمع في غير مصر يستقبل المجرم الخارج من السجن
 بالموسيقى والمزمار كما يستقبل الحاج القادم من الحجاز ! -
 وهذا المجتمع يشتمن من اللص والاثم والشرير والفاجر ،
 ولكن لو ابتسم الحظ لواحد من هؤلاء فنال سلطة ، أو أصاب
 ثروة ، فسرعان ما يبتسم له المجتمع أيضا ويستقبله استقبال
 الامجاد الابطال ، بل ان المجتمع ليعرف التاريخ المخجل لهذا
 المليونير والماضى المزرى لذاك السياسى فلا يمنعه ذلك من حملهما
 على الاعناق ، هكذا يرانى المجتمع الفرد ، ويداهن الفرد المجتمع -
 ولا يدري أحد أيهما مصدر « النفاق » . لذلك قيل ان النفاق
 يصل أحدهما بالآخر ، فلا نعرف أى الطرفين مصدو الآخر ..
 وكل الذى نعرفه ان النفاق ممتد بينهما يربطهما بخيوطه المتينة -
 وهذا سروصفه بالتيلة الطويلة - فما قولك فى هذا ؟ وهل ترانى
 ألمت بالموضوع ؟ ..

- انى أراك بحرا فياضا ، وأدهش كيف تسألنى أن أعلمك
 النفاق وأنت واسع الاطلاع فيه على هذا النحو ؟ ..
 - لا موجب للدهشة . فأنت تعرف ان العلم النظرى شيء
 ووسائل التنفيذ شيء آخر . فكل بلد يدرس تاريخ الثورة
 الفرنسية ، ولكن ليس من السهل أن تحدث ثورة فرنسية فى
 أى بلد ؟! وأنا كذلك درست تاريخ نفاقكم ولكن ليس من
 اليسير أن أحدث مثله فى مجتمع بنى جنسى ! ..
 - لست أرى فى الامر صعوبة . انه فى غاية البساطة ..
 أنا مثلا صاحبك الذى تخافه وتهابه ولك عنده مصالح وما رُب
 .. أنظر الى وجهى .. ألا ترانى جميل الصورة ؟ ..
 - أبدا ..

- لا تنظر بين رأسك ، أنظر بعين مصلحتك ! ..
 - لست أعرف لى سوى العين التى فى رأسى -

- هذه العين أبقأها اذا كنت تريد أن تتعلم النفاق !
- أبقأ عيني وأصير أعمى ؟ ..
- هذا هو الشرط ؟ ..
- وبماذا أرى الاشياء ؟ ..
- بعينك الاخرى .. عين ما ربك ..
- اذن لو أردت ادخال النفاق فى مجتمع بنى جنسى ، ينبغي
- على أن أمر جميع الحمير أن تفتقأ عيونها التى فى رؤوسها ؟
- فى الحال ..
- وأن تحول مجتمعها الى مجتمع من العميان ؟ ..
- بالضبط ..
- وهل تظن دولة الحمير تقبل ذلك ؟ ..
- ولم لا ؟ .. اذا كنا نحن قد قبلناه ..
- اسمح لى أن أقول لك ..
- صه .. أعرف ما ستقول ولا داعى للاهانة ! ..
- وهنا كان الصديقان قد أقبلا عائدين . فأومأت الى حمارى
- بالصمت وغمزت له بعيني رأسى وأنا أقول مشيراً الى صاحبنا
- المترهل منشدا :
- أهلا وسهلا بالرشاقة كلها « بالشورت » والاكمام فوق
- الكروش ! ..



حمارى والكفاح

قال لى حمارى وقد ذهبنا نمضى الشطر الاخير من الصيف
فى الاسكندرية ، وننعم ساعة الاصيل بالسبر الهوينى على
« الكورنيش » ..

- الحق انى مغتبط ها هنا .. أين المشى المريح فوق هذا
الاسفلت الناعم من المشى فى رأس البر فوق الرمال التى كانت
تغوص فيها حوافرى ؟ ..

- صدقت ..

- انى أراك لا تكره المشى هنا ..

- أصبت ..

- عجبيا ! ما بالك ساهما مطرقا ؟ ..

- أسكت ! انك تخرجنى مع أصدقائى . كلما مشيت مع

صديق فى الطريق ظن الناس انه حمارى ! ..

- وما ذنبى أنا اذا كان الناس يريدون أن يتملقوا أصدقائك ؟

- اغلق فمك من فضلك ، ودعنى أنس وجودك الى جانبنى

لحظة ! ..

- سبحان الله فى طبعك . ما هذا المزاج العكر والهواء جميل

خال من الرطوبة هذا العام ، والبحر صاف ، والغيد في الاسكندرية حسان .. والنساء في السراويل والبيجامات بأحمرهن وأبيضهن كأنهن جوقه « بلياتشو » في « سيرك » متنقل ! ..

- صه .. لا تحدثني عن النساء ! ..

- ألسنت أنت الذي دعاهن الى ارتداء هذه السراويل ؟ !

- تلك فكرتك أنت أيها الحمار ! ..

- أيعقل أن تخطر ببالي أنا فكرة حشر مثل هذه الاجسام البضة المائعة في هذا النوع من الثياب ؟ أنظر الى هذه المرأة البدينة وقد صرت لحمها المترهل صرا في البنطلون ، وهو يأبى أن يتماسك فصارت كأنها طبق « الماظية » متفكك سائل ! ..

- لا تبالغ ..

- أنظر بعينك .. ما عليك الا أن تنظر الى هذا السرب السمين ..

- أنا لا أنظر اليهن قط ..

- يا للعجب ! ما من مرة خطرت قربنا حسناء الا ورأيت عينك تكاد تأكلها أكلا بلحمها وعظمها وثوبها ! ..

- كذاب ! ..

- أتقسم ؟ ..

- أقسم أنني لا أنظر غير نظرة خاطفة ، وهذا حق شرعا كما هو وارد في كتب الفقه والدين . فقد جاء فيها : « لك في الشرع نظرة واحدة لاحتمال أن يكون القادم أسدا » .

- وهل من المحتمل أن يقبل علينا أسد في هذا الكورنيش ؟ !

- اخرس يا حمار ولا تجادلني ! ..

- هذا ليس جوابا مقنعا .

- افهم ان لكل زمان مخاوفه ، ولكل مكان مخاطره ، وتلك كانت المخاوف في عهد العرب والبادية والصحراء . أما في عصرنا الحاضر فقد تغير نوع الخطر ، وان لم يتغير المبدأ . فبدل الوحش الهاجم أصبحت السيارة المسرعة ..

- لست أرى سيارة أمانا ، ولكن أرى دبابة ..

- دبابة ؟ ! أين هي ؟ ..

- تلك المرأة المقبلة . فلنخل لها الرصيف ولنهبط الى الطريق ،

إذا أردنا لا نفسنا السلامة ! ..

— هذا أيضا كما ترى نوع من مخاطر العصر الحديث ! ..
— والكواعب الفاتنات ، كأنهن نسيم البحر ، أعارته يد
السحر . أردية من أجساد الحور الخالدات ! ..
— ما شاء الله ! .. الحمار انقلب شاعرا ! ..

— أجب ولا تراوغ .. ماتقول في هذه الباقية المقتربة من
الفتيات ، ذوات المناديل الدمشقية المختلفة الالوان فوق شعورهن ،
من هو البستاني العبقري الذي نسق هذا البهاء ؟ أهى المصادفة
التي جمعت بينهما على هذا النحو ؟ أم هو التدبير السابق
فيما بينهما ، والاتفاق المبيت على أن يصبحن على الناس متفتحات
في هذه الالوان الزاهيات ؟! تكلم .. انطق ! ما هذا السكوت ؟
— هذا كذلك خطر من صنف آخر ..

— بل هي متعة .. بل هي فتنة .. بل هو النعيم ..
— عجباً ! .. ماذا جرى لك أيها الحمار ؟ ..
— يا الهى .. ما الذى صنعت فى عامى من جلائل الاعمال
لاستحق هذا « التصييف » البديع ! ..
— ما هذا القول السخيف ؟ أو كل هؤلاء « المصيفين » قاموا
فى عامهم بأعمال يستحقون من أجلها هذه الراحة الناعمة ؟ ..
— لست أتكلم عن هؤلاء « المصيفين » ، انما أتكلم عن نفسى ،
بصفتى حمارا من أسرة الحمير ..
— أنعم وأكرم ! ..

— لا تهزأ بى ، ولا بجنسى ، بل أهزأ أولا بنفسك وبجنسك !
فنحن فصيلة قد اشتهرت بالكد والجد . لقد عرفت ظهورنا
أشق الاعمال ، ولم تأنف من حمل أخس الاحمال . ما من ظهر
فيما رفض « غبيط » السجاد ، وما من واحد بيننا تذر من كثرة
العمل وطول ساعاته . أو من رداءة العلف وقلة دسمه . ما نحن
الا الجلد والعزم والصبر قد صورت مخلوقا حيا ، لنكون قدوة
لامثالكم من الكسالى والمترفين ، ولكنكم لا تبصرون ولا تريدون
أن تفتحوا أعينكم حتى على خبيثكم المائلة ! ما من واحد فيكم
يريد أن يعرف ليستحق لقمته . موظفكم ينظر الى ساعة
الانصراف ولما يبدأ فى العمل ، ويهجم المرتب والترقية ولا يعنيه
الانتاج ، فاذا نقل الى « الصعيد » هاج وماج . وطلابكم يريدون

أن يجتازوا الامتحانات بغير درس ، ولا يعينهم العلم في ذاته ، بل يطلبون شهادة تغطي فيهم الجهل وتفتح لهم الخزان وتسد بهم الدرجات وعمالكم يفكرون في زيادة الاجور وانقاص العمل ولا يهتمون بالاتقان ولا بمصالح « الزبون » • ورؤساؤكم يعينهم أن ينشر عنهم أنهم قاموا بكذا ونهضوا بكذا ولا يهمهم بعد ذلك قيام حقيقى أو نهوض • وشبابكم أصبح مثله الأعلى يتلخص في كلمتين : « سيارة وفتاة » ، ولا يعنيه كيف يحصل عليهما ، بل كل أمل وهدفه أن يظفر بهما من غير جهد ولا جهاد • ان شعار الكثيرين فيكم اليوم هو : « ان السماء يجب عليها أن تمطر ذهباً وفضة ونحن قعود ! » • الحلم الذهبي للجميع الآن هو الثراء والاثراء بغير مجهود • ان الحرب قد حققت بالفعل لبعضكم هذا الحلم ولكن • ماذا أنتم صانعون في زمن السلم ؟ بأي سلاح تواجهون التنافس العظيم على الانتاج والصراع الشديد على الارزاق ؟ أبمبدأ « الجهد الأدنى والغنى الأسنى » الذى اعتنقه الكل فيكم من شبابكم الى شببيكم ؟ ! •

- حقا تلك مشكلة لا أدري لها حلا ! ••

- حلها بسيط ••

- ما هو ؟ ••

- أن تعتنقوا مبدأ فصيلتى : « لا راحة بغير عمل ، ولا لقمة

بغير عرق ، ولا ثروة بغير انتاج » ! ••

- تعتنق مبدأ الحمير ؟ ! ••

- ولم لا ؟ ••

- فى الحق ان التطاحن فى الغد هائل ، وأن حرب السلام

ستكون علينا أشق وأعنف من حرب الدماء • ولقد أردنا أن

نجنب أنفسنا الولايات فى كل ميدان ، وأن نهرب بجلدنا من

وخزة الدبوس ولذعة « الناموس » ولكن ••

- ولكن آن الاوان لتعرفوا معنى الصبر والجلد والعمل •

- سنعرف ، وسترغمنا الحياة غدا على أن نعرف •

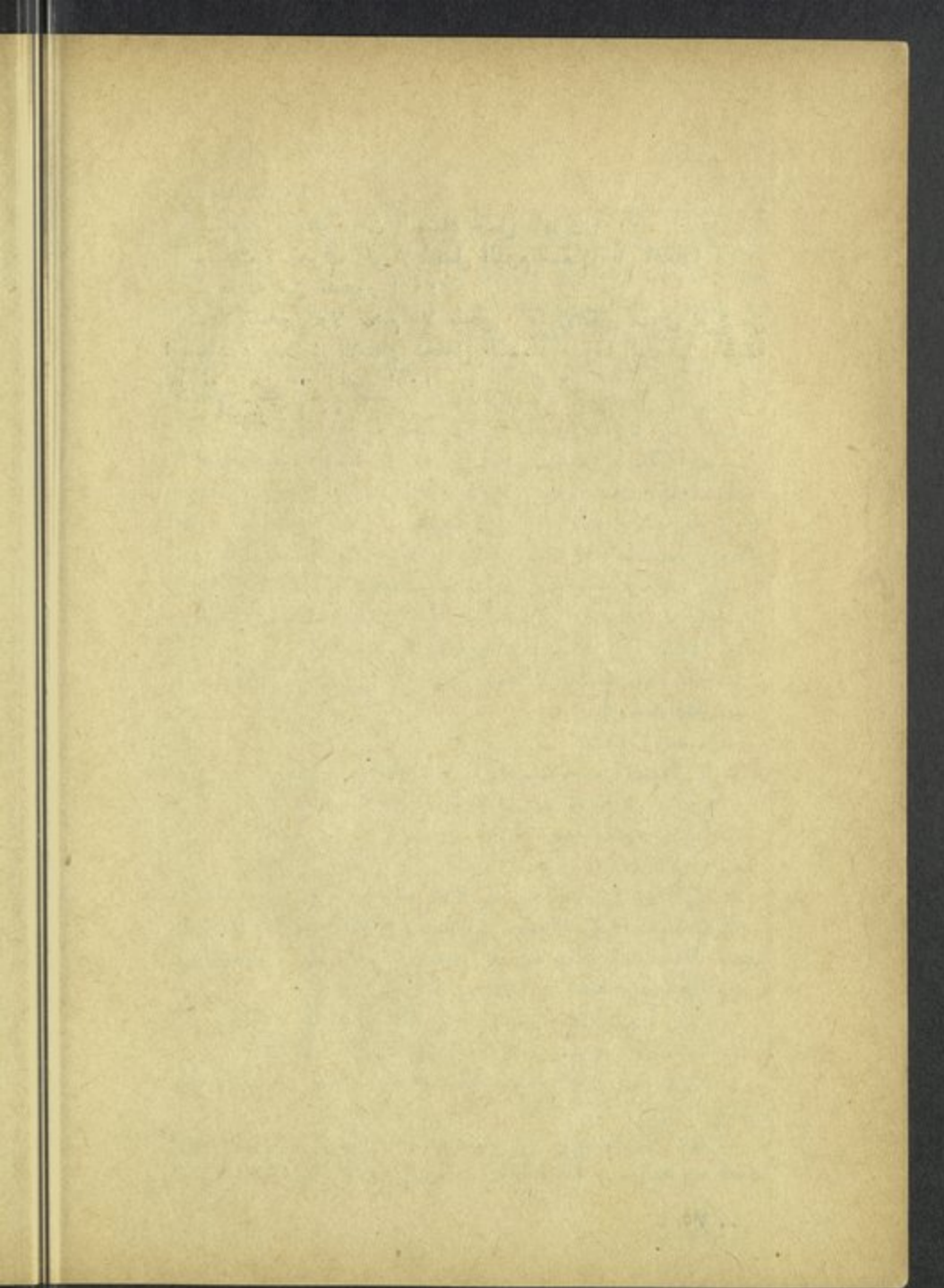
- اليوم خمر وغدا أمر ، هلم بنا الى ستانلى وسيدى بشر

وجليم ! ••

- مهلا •• ضميرى غير مستريح • وأنت المسئول • ماذا

قدمنا من عمل فى عامنا لتكون جديرين بهذا اللهر والمرح ؟ •

- قدمنا ..
- كم « غبيط » من السماد حمل ظهرك ؟ ..
- أنت لا تعرف أني لا أحمل اليوم سمادا بل أفكارا .
- يا له من تدهور ! ..
- لا تدهور ولا تقدم ولا تأخر . ما الأفكار سوى نوع من السماد . وحامل الأفكار كحامل السماد . وما أنت في الحقيقة
- غير نوع من .. الحمير ! ..
- أشكرك ! ..



حمارى والطفيان

جعل حمارى يحدثنى ذات مساء فى الطفيان والطفأة ،
ويسترسل فى الحديث .. وأنا عنه لاه كالنائم ، وما أنا بنائم .
فلقد انتزعنى خيالى وطار بى وألقانى فى أساطير الماضى : بين
يدى « شهرزاد » .. وأنا أعرف شهرزاد كل المعرفة .. وقد
أبرزتها فى كتاب .. آه ! .. يا لها من امرأة ! ..

شهرزاد ! .. اذا انفرجت شفتاك عن هذا الاسم ، فاعلم
انك لفظت باسم عظيم ، فهو اسم تلك التى استطاعت أن تجعل
من شهريار ، ساقك الدماء ، رجلا مهذبا محبا للخير مترفعا عن
العدوان . لقد دخلت حياة ذلك الملك الطاغية كما تدخل الروح
الطيبة جسدا أصم ، أو الريح المخصبة واحة مقفرة . واهتدى
شهريار بهديها ، وتمت بذلك معجزتها ، فانزوت فى بطون
الأساطير ..

ولكن فى هذا العصر عاد شهريار جديد الى الظهور ، لا فى
صورة ملك بل فى صورة (فوهرر) يقطن قصرا لا فى بغداد ،
بل فى برختشادن . وهو لا يكتفى بذبح عذراء فى كل صباح ،
كما كان يفعل شهريار الاول ..

بل ان « حمام الدم » الذى لديه أرهب وأروع ! ..

وشرد بى الخيال فتصورت شهرزاد تستشيرنى بصفتى
مؤلفها فى أن تذهب الى الزعيم العصرى كما ذهبت من قبل الى
ملك الزمان الغابر لعلها تظفر بهدايته ، كما ظفرت بهداية
سلفه ، ولعلها تنشله من الطغيان ، وتربجه لحر بنى الانسان ،
فحمدت لها عواطفها الرقيقة ومشاعرها النبيلة ، ولكنى ترددت
اشفاقا عليها وقلت :

— أيتها العزيزة شهرزاد ! جعلت فداك ، لقد خطر ببالى كل
ما خطر لك . ولقد رايت من واجب الكاتب أن يجهر بما يعتقد ،
فرسمت « لصاحبنا » من الصور ما سوف يعرض عنقى لمديته ،
ولسوف ادعى الى حمام الدم وأنا لا أعرف السباحة . فيكون
هذا حمامى الاول والاخير ، أما أنت يا ذات الجمال . يا من
اعتدت السباحة بجسمك العاجى فى ذلك الحوض من المرمز
القائم فى قصرك العجيب ! ..
فقاطعتنى شهرزاد قائلة :

— أتخشى على وأنا الحالدة ؟! خف على جلدك أنت أيها المخلوق
الهالك ! أكبر ظنى ان اشفاقك هذا ليس على شخصى بالذات ،
انما هو على كتابك عنى الحامل اسمى الذى سوف يحرق ويباد
اذا فشلت فى مهمتى ووقع بينى وبين هتلر العداء . يا لهؤلاء
الادباء والكتاب ! انهم يخافون على جلد كتبهم أكثر مما يخافون
على جلد كتبهم أكثر مما يخافون على جلد أجسامهم ! ..
وتركتنى بلا تحية ولا وداع ، واختفت عن بصرى ، وارتفعت
فى الفضاء ومضت الى قصر « برختشجادن » .

كان هتلر فى ذلك المساء منفردا فى قاعة كبيرة من قاعات
القصر ، يطيل التأمل أمام خريطة حربية ، وقد شرد ذهنه
واتجهت عيناه الى نافذة بلورية تشرف على الوديان الخضراء
المحيطة بذلك الجبل الذى يقوم عليه قصره المنيع . وإذا هو
فجأة يسمع خلفه حفيف ثوب وهفيف غلالة حريرية . ويشم
عطرا شرقيا ملاء جو المكان ، فاستدار . فالتقى نفسه وجها لوجه
أمام امرأة لم يقع بصره قط على أجمل منها .. فعقد لسانه
وجمد فى مكانه ، ومرت لحظة أو لحظات .. ثم اتفاق قليلا وقال
لها كالهامس :

فقال الجميلة :

- من أنت ؟ ..

- أنا شهرزاد جئت اليك من الشرق .
وكأنما غمر هتلر في حلم ، فإذا هو لساعته يحس الاشياء
من حوله تخف وترتفع قليلا في الهواء . وحلت عقدة لسانه .
وتحرك من مكانه ، وخف لاستقبال شهرزاد وكأنه يعرفها
معرفة الاصدقاء منذ أعوام ، وأجلسها في صدر القاعة ، وأراد
أن يقدم اليها من الطعام والشراب ما يقدم الى الاضياف الكرام .
فابت وشكرت ، وأشارت اليه بالجلوس والاصغاء ، قائلة :
- فلا تخبرك أولا سريعا ، لماذا جئت اليك ، ان مقابلتنا
الساعة قد يتوقف عليها مصير العالم .

فقطب هتلر جبينه وزالت عنه قليلا غمرة الحلم وقال :
- جئت في مهمة سياسية ؟ فهمت ، ما أجملك رسولا من
الدول الديموقراطية ! انها لشجاعة منك أن تقودى طائفة
بمفردك ! أين هبطت يا سيدتى الطائرة التي جئت بها ؟ ..
- أية طائرة ؟ ..

- عجبيا ! كيف جئت اذن ؟ ..
- قلت لك أنا شهرزاد . شهرزاد الاساطير ، شهرزاد التي
طلعت خبرها ، ولا ريب ، وأنت صغير . وأنا بالطبع لا صلة لي
بالديموقراطية أو الفاشستية ، لاني كما تعلم أنتى الى زمان
لا يعرف هاتين الكلمتين . انما أجيء اليك اليوم بصفتي
الشخصية . كما جئت من قديم الى الملك شهريار ، فلبثت
عنده ألف ليلة وليلة ، أقص عليه من ألوان القصص ما غير
نظرة الى الحياة .

فقاطعها هتلر قائلا : وهو ينظر الى خريطة الحربية :

- ليس لدى وقت للاصغاء الى القصص .

- هذا من سوء الحظ ..

قالتها شهرزاد بنظرة لم تصمد لها عيناه ، فاطرق قائلا :
- ربما كان هذا من سوء حظي حقا ، فأنت امرأة جديرة أن
يجلس اليك رجل أكثر من ألف ليلة وليلة . ولكنى .. مشغول
كما ترين . ولا أحسبني أملك الاصغاء اليك أكثر من ليلة .
ان العصور قد تغير أحيانا في جلسة واحدة بقاعة مؤتمر أو

مقصورة قطار .. أطرقى ياسيدي الموضوع من بابه ..
وأوجزى ! ..

لم تياس شهرزاد من هذه اللهجة الجافة . وقالت مترفقة :
— اطمئن ! انى لا أجلس الى أحد رغما عن ارادته ، وانى
لمقدرة قيمة وقتك الثمين الذى تنفقه فى .. فى .. هدف
لا أقرك عليه ، وقد أكون مخطئة .. ثق انى غير مقيدة برأى
.. غير متعصبة لمبدأ .. انى حرة حتى الآن مثل هذا الهواء ،
وقد جئت لك لا أقنعك بما أرى ، أو لتقنعنى بما ترى .. فليكن
بيننا الساعة صراع هادئ بين روح المبادئ .. هل قبلت ؟ ..
— قبلت ..

قالها هتلر مبتسما وقد طمع فى اقناع شهرزاد ، وأمل أن
يربحها هو الى جانبه . ومن يدري ؟ لعله يستطيع أيضا بعد
ذلك أن يلحقها بوزارة دعايته تحت ادارة الهر جوبلز ، ليس
بينه اذن وبين تحقيق هذا الأمل سوى أن يقنع شهرزاد بأرائه .
هنا رفع رأسه مستبشرا . وهر بيده على خصلة شعره المتهدلة
على جبينه كأنها جناح غراب وقال :
— سوف أقنعك بمبادئى ..

— بغير عنف ؟ ..

— بغير عنف ..

— انه ربح لا يستهان به أن تسمح بحرية الرأى والكلام
والمناقشة !! ولو الى أجل قصير ! ..

قالت شهرزاد بابتسامة ذات مغزى . فأدرك هتلر لساعته
أنه يكاد يقع فى فخ هذه الشرقية الجميلة ، فليس هو الذى قد
يكسبها ويجذبها الى النازية . ولكن الخوف أن تجذبه هى بغير
أن يشعر الى روح الديمقراطية ، فتجهم وجهه . وعادت اليه
من الفور طبيعة الجبروت ، فضرب المائدة بقبضته وصاح :
— كلا .. لست أسمح هنا على الإطلاق بحرية الرأى أو روح
الديموقراطية ، وأرجو منك أن تكفى عن ذكر مثل هذه الالفاظ
إذا أردت أن نتفاهم ! ..

فابتسمت شهرزاد وقالت متلطفة :

— وكيف نتفاهم بغير حرية التفاهم ؟ ماذا تخشى منى وأنا
أحادثك على انفراد . والأبواب مغلقة ، ولا يسمع أحاديثنا أحد

من شعبيك ، اذا لم تطلق لى الحرية الساعة فى محادثتك ، فمعنى هذا انك تخشى أن أقنعك ؟ .

— كلا ، لست أخشى شيئا ، تحدثنى بكل ما تريدين .
قالها وهو يتلفت يمينا ويسرة ليتأكد من أن الشيطان ليس لها آذان . واعتدلت شهرزاد فى جلستها وقالت :
— انى لا أحب العنف فى الاقناع ، لا لاني ديموقراطية النزعة ، فانا كما قلت لك لست أنضوي تحت حزب من الاحزاب ، ولكن تلك طبيعتى منذ القدم ، انك ولا شك تعرف قصتى مع شهريار ، هل تذكر انى لجأت الى العنف فى اقناعه ؟ .

— أشهد أنك كنت بارعة ، ولكن ذلك لا يمنع من القول انك كنت امرأة خطيرة ، لقد كنت أنت — ولا تؤاخذينى — الخليفة دون غيرك بحمام الدم ، فان المرأة التى تستطيع أن تحول ملكها عن سياسته ، وأن تغير نظام حكمه فى دولة ولو الى الاصلح ، لهى على كل حال امرأة ناثرة على النظم . .

— انى لم أكن ناثرة ، ولم أ تدخل يوما فى سياسة شهريار ، ولم أنصحه يوما بإبرام أمر أو الاقلاع عن فعل ، انما دخلت حياته كبصيص النور الضئيل المتسلل من خصاص الابواب ، فاذا هو يرى ما لم يكن يرى ، واذا هو يصلح نفسه بنفسه ، ويتحول من حال الى حال ، ومن سياسة الى سياسة من تلقاء ذاته . .

ففكر هتلر لحظة ثم قال :

— ألم تكن هناك مؤامرة من الشعب ؟ ان شهريار كان يدخل كل ليلة بعدداه يقتلها فى الصباح حتى كادت تنقرض من بلاده العذارى ، فلا بد أن الشعب ضج وغضب وتهامس وتأمر . . اعترفى . . ألم تكونى موفدة من قبل الجماهير ؟ . .
— كلا ! . .

— من يدري . لو كان لشهريار (جستابو) فى ذلك الحين لتدرك الخطر قبل وقوعه .

— الحمد لله اذ لم يكن لديه ذلك . . لو أن هذا حدث لما كان .
— لما كان اسم شهرزاد ظهر فى سماء التاريخ ، ولما عرفت الاجيال غير اسم شهريار وحده ! . .
— دعنا من التاريخ . انما الذى يجب أن تحفل به هو الانقلاب

الطيب الذى حدث لذلك الملك . انه ولا شك قد رضى عن نفسه .
كل الرضا يوم رأى الاشياء كما ينبغي أن ترى ..
سكنت شهرزاد وحدثت القوهر بنظرة طويلة .. فخفض
بصره قليلا وأطرق ، ثم قال :

— ان لك يا شهر زاد أسلوبا عجيبا فى الكلام . انك تريد ان
أن تلقى فى روعى ان هنالك أشياء عظيمة تريتها أنت ولاأراها
أنا .. وتحاولين أن تدخلين فى نفسى الشك فى مبادئى ..
ولكن فاتك انى أضع العقل دائما فى المحل الثانى ، والفكر فى
المقام الثالث . أما المكان الاول عندى فهو للايمان .. انى أو من
وأنا مغمض العينين موصد الاذنين مغلق العقل . أو من مبادئى
وحدها ، أو من ثم أو من . تكلمى بعد ذلك بما شئت ..
فابتسمت شهرزاد ، ثم قالت فى دهاء :

— من قال لك انى أريد أن أهز ايمانك بمبادئك . انى
جئت لأقنعك أو لتقنعنى . وقد أفشل أنا معك ، وقد تفشل
أنت معى . انى تواقه الى الحرية ، حرية البشر أجمعين ، ولقد
ذهبت الى شهريار عندما رأيت حرية الشعب وبنات الشعب
فى خطر . مبدئى هو الحرية لكل انسان ، ولا استعياذ لائى
انسان . فمن كان يعمل لهذا المبدأ فأنا معه ، سواء كان أنت
أو خصومك ، هذا قولى فأغمض عينيك عنه ، صم أذنيك اذا
شئت وأغلق فكرك ، ولكنى أنا فاتحة عينى وأذننى لأتلقى عنك
ما تقول ، وأذن ما تدلى به ، وأقبل الطيب من حديثك اذا وجد .
ولا أكره أن أقتنع بمبادئك اذا كانت نافعة للناس . فان
المكان الاول عندى دائما هو للفكر الحر ، والاعتناع المطلق ، ثم
الايمان بعد ذلك . تكلم فأنا مصغية اليك .

واتكات شهرزاد بساعدها على حافة المقعد ، وغرقت فيه ،
ورنت الى هتلى بعينيها الصافيتين العميقتين . فاختلج قلبه
قليلا ، ولكنه تماسك وقال :

— اعلمى أولا أنى ذو قلب .. حذار أن تقارنى بينى وبين
شهريارك ، انه كان يسفك دماء العذارى ولم يكن يعرف الحب ..
أما أنا فقد أذنت بحمام الدم لائى أحب ..
فقالت شهرزاد فى سخرية :

— امرأة ؟ ..

فأجاب هتلر فى لهجة مثل لهجتها :
 - انى لست همجيا حتى أقوم بمثل هذا العمل ..
 - أنت حقا رقيق الشعور ..
 - لقد قلت لك أنى ذو قلب ، وأى قلب .. انه أكبر من أن
 يحوى امرأة .. انه يحوى ألمانيا ..
 وصمت .. فابتسمت شهرزاد وقالت فى هدوء :
 - كنت أحسبه أرحب من ذلك . وأنه يحوى شيئا أكبر
 من ألمانيا ..
 - ماذا ؟ ..
 - الانسانية ..

لقطتها شهرزاد فى همسة عميقة ، فوجم هتلر لحظة ثم قال :
 - ماذا تعنين ؟ ..
 - أعنى أنك لو أحببت الجنس البشرى كله ، لا الجنس الآرى
 وحده .. لكنك أعظم ألف مرة مما أنت الآن ، ومما تريد أن
 تكون . اصغ الى مليا . لماذا لم تفكر فى هذا المجد ؟ يدهشنى
 حقا أن مثلك لم تخطر له هذه الفكرة ! ان حياتك معجزة لاريب
 فيها ، فلماذا لم تستخدم هذه المعجزة لغاية أعظم وغرض أسمى ؟!
 لماذا لم توجه قوتك وثورتك للارتفاع بالانسانية كلها ..
 فيسطر التاريخ لك صفحة لا يسطر مثلها لغير الرسل والانبياء ؟
 ان الصفحة التى يعدها التاريخ لاعمالك اليوم ليست بذى
 شأن عظيم ، وقد كتب مثلها لكثيرين من قادة الجيوش الذين
 فتحوا العالم معتمدين على القوة العسكرية .. ففرحوا بأكاليل
 النصر الحربى الذى زان جباههم ، ولم يفتنوا الى أنها أكاليل من
 الزهر الذى يذبل بعد حين . ولقد ذبلت فعلا ، وهوت وذرتها
 الرياح .. كل تلك الفتوح التى تفاخر بها أولئك القواد
 العسكريون ، ذلك أن لا شيء يثبت فى الارض وينبت الثمار
 الصالحة غير البذرة الطيبة التى يلقيها فى نفوس البشر رجل
 يحب الانسانية كافة . هذا هو المجد الذى ليس بعده مجد
 لانسان ! ..

- انك امرأة .. ولا يدهشنى قط من امرأة أن تبخس قدر
 النصر الحربى ! ..
 - النصر الحقيقى هو ذلك الذى يستطيع أن يسير بالبشرية

ولو خطوة ، ويسعدها ولو لحظة .. ان كلمة نبي ، أو ترنيمة
شاعر ، أو تغريدة موسيقى ، لا تبقى على الدهر من صيحات
الظفر وطبول النصر في أكبر معركة حربية ! ..
- عجباً ! ..

- فيم العجب ؟ ان ذلك الذي يستند الى قوة الله ، وهو النبي
والرسول . وذلك الذي يستند الى قوة الفكر وهو العالم
والفنان ، لا يبقى وأخذ من ذلك الذي يستند الى قوة الجيش !!
شرد هتلر بخياله لحظة ، وقال كالمخاطب نفسه :
- وأسفاه ! .. لطالما تقف لأن أكون نبيا ! ..
- من أجل ذلك هاجمت الله والكنيسة ؟ ..
- ولطالما تقف الى العلم والفن ! ..
- ولهذا نفيت العلماء والفنانين ؟ ..

- عبقرية بلادي هي عبقرية عسكرية قبل كل شيء .. لم
أفطن الى ذلك يوم قامت في نفسي تلك القوى الجائحة تدفعني
أن أفعل شيئا للتاريخ .. لا تنكرى يا شهرزاد أن المعجزة تتخذ
لون الارض التي تظهر عليها ، وان العظيم يتغذى ككل نبات
بعناصر التربة التي ينبت فيها ! .. لا تحسبى عبقرية ألمانيا
أو أوروبا تصلح لبراز نبي من أنبياء الشرق ! ..

- هذا صحيح ، ولكن العظيم يجب أن يثور على أوضاع بيئته
وأتمه وعصره ، لينشر تعاليمه التي تنفع الانسانية كافة ، هكذا
فعل المسيح ومحمد ، لقد كان كل منهما يجاهد وحده ضد
وطنه وزمانه ، ليبذر فيهما المثل الأعلى الانساني .. وقد
اضطهدا وعذبا في سبيل ذلك ، وقد انتصرا آخر الامر ذلك
الانتصار الخالد على الزمان وما بعد الزمان . ثق اني لا أخدعك .
ان الخلود هو لمن يعمل الخير الانسانية كلها ، ولرفعة الجنس
البشرى كله .. لهذا كانت غلظتك الكبرى أنك أحببت جنسا
واحدا ، وكرهت بقية الاجناس ! وعملت لرفعة شعب واحد
ليستعيد بقية الشعوب ! ..

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام « المباح » -
المباح مؤقتا باذن خاص من هتلر - وسكت « الفوهرر » ولا
يدري أحدا كان سكوته لاقتناعه بحديث شهرزاد ، أم للتفكير
في طريقة للتخلص من هذه المرأة الحظرة ؟؟ ..

حمارى ومؤتمر الصلح

قال لى حمارى مرة : « صف لى مؤتمر الصلح لهذه الحرب ؟ »
فقلت له ، وقد راقنى سؤاله ، ووددت لو استطعت الجواب :
كيف أصفه ؟ انه لم ينعقد بعد بالطبع هذا المؤتمر ، ولا يدرى
أدنى متى ينعقد . . اذا شئت ، فلنلجأ الى غن الحىال ، نرى بها
ما يجرى فيه وما يفضى اليه . وعين الحىال هذه كعين الماء فى
الصحراء تستمد مادتها من أغوار الرمال . . رمال الزمن
والماضى . . لذلك أتصور أن ينعقد مؤتمر الصلح القادم فى
« فرساي » مرة أخرى ، وفى قاعة « المرايا » الشهيرة بالذات .
ولكن المبادئ التى ستطرح كأساس للسلام سوف تكون جديدة
الوجه . والرجال المجتمعون حول مائدة المفاوضة سوف ينتخبون
طبقاً لفكرة خاصة ، وفى الحق أنه عقب انتهاء الحرب سيشتد
الرأى العام فى كافة الشعوب المحاربة حول هذا السؤال : من
الذى يصنع السلام ؟ أهم أولئك الرجال أنفسهم الذين جاؤوا
بالنصر ؟ ألا يخشى أن يكون العمل المنهك والجهد المضنى الذى
قام به هؤلاء الابطال يجعلهم فى حاجة أن ينالوا قسطهم من
الراحة ، فيتولى عبء الجهاد الجديد رجال جدد ممن كانوا أثناء
الحرب يدرسون مشاكل الغد ، ويعدون العدة فى صمت لبناء

صرح السلام العالمى ؟ ثم ألا يخشى من الرجال المنتصرين اذا انتصروا تسلموا قيادة الصلح أن تنسيهم حرارة الظفر أنفسهم ، فيحسبون أن واجبههم على مائدة السلم أن يحرزوا لاطوانهم انتصارات أخرى ، وبهذا يضيع معنى الفكرة العظمى التى من أجلها بذلت الارواح وسفكت الدماء وهى : التعاون الدولى على أساس المساواة والاخاء بين الامم جمعا ؟ كل هذه الاعتبارات قد تجعل من المحتمل أن توفق الديمقراطيات المنتصرة الى المؤتمر رجلا مشبعين بهذه الفكرة العليا . فمثلا قد توقد حكومة تشرشل رجل مثل « بيفرديج » وحكومة روزفلت رجلا مثل « ديوى » وحكومة ستالين رجلا مثل « لتفينوف » وحكومة برلين رجلا مثل « أوتو شتراسر » الخ . . . وهكذا تفعل كل حكومات الدول المجتمعة حول مائدة الصلح ، ولما كانت مصر مدعوة بطبيعة الحال الى تبوأ مركزها من هذه المائدة ، فقد حق لك يا حمارى أن تسأل عن سوف تندبه حكومة القاهرة لهذه المهمة الخطيرة . . .

اسمح لحياى أن يخلع عنه الآن رداء الرزانة ويقفز قفزة جريئة ، فيتصور أن مندوب مصر هو : العبد الفقير « كاتب هذه السطور » ولا تسأل عن السبب ، بل تعال معى نشاهد ما الذى سيحدث ؟ لا شك أن خبر تعيينى سيقابل كعادتنا فى مصر بالهجوم العنيف من الحساد . فيمنعون فى تجريدى لا من الصفات الادمية التى يتمتع بها كل من خلقه الله من ماء وتراب . فيرد على ذلك الانصار بما يعرفونه عنى من الصفات الحسنة مبالغين فيها . . . ويأتى يوم السفر فتحشد الجموع فى مطار المطاة حيث تقرر أن اذهب طائرا الى فرساي . ويعلو هتاف الجماهير مذكرا اباى بمطالب البلاد . فالوح اليهم بالمحافظة التى تحوى الوثائق الرسمية والمذكرات التفسيرية التى عليها تقوم المفاوضات ، ثم تتحرك بى الطائرة مرتفعة فى الجو وقد تبعتها بعض الطائرات الخاصة مزينة بالاعلام الخضراء تودعنى حتى شاطئ البحر ، ثم حطت الطائرات فى الدخيلة . وعبرت طائرتى وحدها الى أوروبا وأنا داخلها أفكر فى سر اختياري للمؤتمر . . . وماذا أنا قائل فيه . . . وأنا لم أدرس بعد أية وثيقة من الوثائق التى بالمحافظة . فقد ضاع وقتى فى مصر بين مطالعة

شتائم الحساد في النهار وأقوال الانصار في المساء .
لكن لماذا لا أنتهز هذه الخلوة في الطائفة وأطلع هذه الاوراق
الهامة ؟ ومددت يدي نحوها ولكن ذهني شرد .. وتلك ولا شك
صفة فات حسادي أن يذكرها ضمن ما ذكره عني من
صفات .. شرد ذهني في أمر وصولي الى فرنسا .. وأين يكون
مقامي ؟ أفي فندق فرساي مع بقية أعضاء مؤتمر الصلح ..
ولماذا لا أنزل كما يحلو لي في مونمارتر مثلا .. بذلك الفندق
الذي نزلته منذ نحو عشرين عاما ولي فيه ذكريات ؟ وجعلت
أستعرض في رأسي ذكرياتي يوم كنت أقطن أمام مرقص
« الكوليزيوم » المشهور .. وأمضى ليلى أكتب شعرا فرنسيا
منثورا في الحانة المجاورة للمهي « الطاحونة الحمراء » وأنا أحتسي
بيرة ستراسبورج وأكل « الكرنب بالسجق » .. وأرملق بنات
الهنوئ الجائعات الجالسات على الموائد حولي ينتظرن الدعوات
وأنا أقول لهن : « يا عرائس الشعر أبعدن عني ساعة الاكل ،
فما في جيبى غير فرنكات معدودات ثمن طبقى وحق جمالكن ! »
في اليوم التالى لوصول طائرتى الى فرنسا ، افتتحت أول
جلسة من جلسات مؤتمر السلام في قصر فرساي ، بحديثه
الخضراء ذات النافورات العجيبة ينبثق منها الماء في أشكال
وألوان ، كأنه ماسة ملقاة فوق العشب تشع بالأضواء ..
 واجتمع الاعضاء من مختلف الدول حول مائدة كبرى مستديرة
في قاعة « المرايا » .. وقد وضع كل عضو محفظة وثائقه أمامه
وجعل يخرج منها الاوراق .. واتخذت مكانى بالطبع بين
الجالسين .. وأردت أن أصنع مثل ما .. واذا لدعشتى
ومصبيتى وطامتى أتذكر أنى نسيت محفظة وثائقى بالطائفة ..
والنسيان قاتله الله صفة أخرى من صفاتى الممتازة .. ما العمل
الآن وقد ضيعت أول ما ضيعت المحفظة التى فيها مطالب
بلادى ! ..

لم تدم ورطتى طويلا ، فقد عزيت نفسى بقولى ان المؤتمر في
يومه الاول لن يبحث على أى حال فى المسألة المصرية .. ومن
هنا الى أن يجيء دورها يكون الله تعالى قد فتح على بالحل الموفق
السعيد ..

وغرقت في مقعدى الوثير مطمئنا ، استمع الى المناقشات

التمهيدية الاولى بين « بيغردج » و « ديوى » و « لتفينوف »
و « شانج كاي شيك » وكلما أوغلوا فى المناقشة فثرت قوتى
على الاصغاء وتنهيا ذهني كالعادة الى الانصراف والانطلاق فى
أجواء أخرى . وبالفعل لم يمض قليل حتى ألقيت نفسى منهمكا
فى حصر عدد المايا التى فى القاعة وملاحظة حركات ممثل
الصين وهى تنعكس على كل مرآة .. ثم طفقت أقول فى نفسى :
ليس أنسب من هذه القاعة لاجتماع نسوى .. فكثرة المايا
تسر المرأة وتملؤها زهوا وخيلاء . لكن لماذا تجتمع الدول هنا
أيضا فى قاعة المايا ؟ .. أخشى أن يكون هذا سببا من أسباب
الزهو والخيلاء الذى كاد يذهب برؤوس بعض ممثلى معاهدة
« فرساي » السابقة ! ..

مضيت فى هذه الخواطر دون أن ألتفت الى ما يجرى حولى ،
وإذا أنا أتنبه على صوت المجتمعين يقررون أن يبدأ المؤتمر
بسماع رأى الامم الصغيرة واتجهت العيون نحوى . وأعطى
الكلام لمندوب مصر .. يا للكارثة ! جاءك الموت يا تارك ..
(المحفظة) ! وأصبحت فى موقف لا يحسدنى عليه حساد
ولا عدال .. أين محفظتى أين ورقى ؟ ماذا أصنع أيها الناس
وماذا أقول ؟ .. ولكنى وقفت على كل حال رغما عني وقد
مدنى اليأس والحرج باتقاد ذهن ليس من شيمتى فانطلق لسانى
يقول :

— أيها السادة الاجلاء .. ليس هنا اليوم أمم صغيرة ولا أمم
كبيرة انما نحن أمة واحدة وعالم واحد يجتمع حول هذه المائدة
كما يجتمع أفراد الاسرة الواحدة على مائدة العشاء . عالم واحد
وحريات أربع . اليس هذا هو الدستور الجديد لدنيانا الجديدة
كما جئنا لنشيد بناءها ؟ .. ولا ريب أننا جميعا متفقون على
تلك المبادئ التى أذاعتها الديموقراطيات قبيل انتهاء الحرب
وجعلتها بمثابة الاركان الاربعة لعالمنا الجديد . انها كما تعلمون :
حرية القول والرأى . حرية العبادة . والتحرر من العوز والفقر .
والتحرر من الظلم والاستعباد . اذا تم تحقيق هذه الحريات
لكل أمة من الامم ، فقد استغنت بها عن كل مطلب خاص تتقدم
به الى هذا المؤتمر الموقر . الا ما تعلق بالتفاصيل ووسائل
التنفيذ فهذا بالضرورة يحتاج الى البحوث الخاصة التى تعرض

على هذه المائدة . على أنى حتى فى هذه المباحث والطلبات
والتفصيلات التى تتعلق بكل دولة على انفراد ، ارى رأيا واقترح
اقتراحا أرجو أن يحوز موافقة المؤتمر . . ذلك الاقتراح هو أن
لا يتولى الدفاع عن مطالب أمة مندوب هذه الأمة ، بل مندوب
أمة أخرى . . وذلك منعا من طغيان عاطفة القومية والوطنية على
الشعور بالمصلحة الانسانية والعالمية . فمثلا يتولى الدفاع عن
مصالح أمريكا مندوب الصين وعلى العكس ، وتقوم تركيا بالدفاع
عن مطالب روسيا . وفرنسا عن ألمانيا . . ومصر عن إنجلترا
.. وهكذا ..

وسكت لحظة أمام نظرات مستر « بيفردج » وهو يفحصنى
بعينه متعجبا . . ولكنه عاد فأخذ الأمر على وجهه الحسن ،
فارتسم التفاؤل على شفتيه فى صورة ابتسامة رضا ، شجعتنى
وشجعت جميع الاعضاء فهتفوا معا موافقين على الاقتراح . .
ونهض « ديوى » فصافح « شانج كاي شيك » وقام « سراج
أوغلو » فسلم على « ليتفينوف » . وانحنى « ستراسر » يحيى
« ديجول » . ودعانى المؤتمر الى المضي فى الكلام فقلت :

- أرجو أن يكون مستر « بيفردج » مطمئنا الى وضع مصر
بلاده بين يدى ، كما أطمئن أنا الى وضع مصر بلادى فى يده ،
ويسمح لى أن أوجه التفاتة الى مشاكلنا الاجتماعية التى تحتاج
الى علمه وخبرته وفطنته ، فرغ مستوى الفلاحين يتطلب
مشروعا ضخما يماثل مشروع التأمين الاجتماعى بالنسبة الى
إنجلترا ، وتوطيد مركزنا الاقتصادى وزيادة الثروة الاهلية
والمحافظة على مستواها سواء بادخال وسائل انتاج جديدة أو
بتحسين الانتاج الزراعى والصناعى القائم . . كل ذلك موكول
الى بحثك المستفيض وهمتك العالية ، أما مسائلنا الخارجية فانها
ستوضع ولا ريب على الأسس العامة التى تقوم عليها العلاقات
الخارجية لكافة الدول ، فانه تحت ضوء هذا المبدأ : « عالم واحد
وحريات أربع » سوف تحل كثير من المشاكل ، وأن فى صيغة
الديموقراطيات المدوية بأن « فى الامكان القضاء على القوة
كوسيلة للأعمال السياسية » اذا قوبلت ووجهت بقوة أخرى
أعظم منها تقوم على دعائم اقتصادية وخلقية ، ويعززها بوليس
مشترك يمنع أية دولة أو مجموعة من الدول أن تجد الفرصة

التي تمكنها من الاعتداء على أية دولة مجاورة لها في أى مكان
في العالم » . الخ . هذه الصيحة ستمحوا ولا شك كل
الصعوبات التي وقفت في سبيل الصداقة بين الشعوب القوية
والضعيفة . هذا فيما يختص ببلادي وقد وضعته بين يديك .
أما فيما يختص ببلادك فأمره سهل ، ولا شك أنك قد وضعت
فيه البحوث والدراسات وملأت مذكراتك ووثائقك مشروعات .
وليس لي الا أن أمد يدي وأقول لك يا مستر « بيغردج » سلمني
محفظتك !! . .

عماري والطوفان

جلس حماري الى جوارى كما اعتاد وقال :
- أخشى أن تثور كبرياؤك ذات يوم فتترفع عن مجالسة
مثلى ! ..

قالها بنبرة أعرفها في صوته ، انه مخلوق يجيد نوعا من
السخرية ، ليس من الهين أن يلمح في كل الاحيان .. لانه
مغلف في طيات التواضع والتسليم والاذعان ، ولكن أعرف فيه
أيضا قوة المقاومة وصلابة المراس .. وشيئا من الاعتداد بالذات
لا يظهر الا اذا وخز وخزة تجرح نفسه .. لذلك ألجا معه الى
المزاح في القول والاعلاظ في التهكم حتى أرغمه على مضارحتي
بكل مشاعره .. فأجبتة :

- وأنا أخشى ان يركبك الوهم فتحسب أن لا فرق بيني
وبينك ! ..

- لا تخف .. ان الوهم لا يركبني أبدا .. لم يركبني غير
الواهمين ! ..

- من أمثالنا معشر البشر ! .. أليس هذا ما تعني ؟ ..
- ما أردت أن أمس كرامتك ، ان بيننا وبينكم صلات ود من

قديم ، لقد زاملناكم وركبنا معكم سفينة نوح في عهد الطوفان .
فأدركت غرضه الخفى من الإشارة الى هذا المستند التاريخي
.. وبادرت أقول :

- ليس هذا بدليل على الزمالة .. لقد ركبت معنا كل
الحيوانات مما يؤكل ومما لا يؤكل .. من الأسد والفيل الى
الفأر والخنزير .. وأقرأ تاريخ أبى الفدا تجد فيه أنه كانت
للسفينة ثلاث طبقات : طبقة فيها الدواب والوحش وطبقة فيها الانس
وطبقة فيها الطير ، ولقد فكرنا نحن الانس فيك وخفنا على
أمثالك من الدواب أن يفترسها الاسد . فدعا نوح ربه فسلط
على السبع الحمى ، فكانت أول حمى نزلت فى الارض .. ثم
شكوا الفأرة لافسادها الطعام والمتاع فأوحى الله الى الاسد
فعطس فخرجت الهرة منه فتخيات الفأرة منها .. وكثر أرواث
مثلك من الدواب . فأوحى الله الى نوح أن أغمر ذنب الفيل
فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة فأقبلا على الروث .. الى
غير ذلك مما حدث فى السفينة وتدبرناه نحن معشر الانس
بفكرنا الناضج حيث لم نجد منكم معشر الحيوان والدواب غير
المشاكل التى تقتضى الحل وتستوجب التدبير .. ولم نر منكم
معونة ولا زمالة تهون علينا محرجات ذلك الموقف الخطير ..

- لا تتكلم عن فصيلتى .. لقد كان لنا رأى فى السفينة
والطوفان .. وما دمت تذكر التاريخ والمؤرخين ، فارجع اليهم
ينبشوك أن آخر ما دخل السفينة من الحيوانات كان الحمار ! ..

- وما هو ، من فضلك ، رأيكم فى السفينة والطوفان ؟
- لا تسألنى رأيى .. بل أجبنى أنت بفكرك الناضج ، لماذا
كان الطوفان ؟ وكانت السفينة ؟ ..

- لماذا ؟ .. للظلم والفساد اللذين كانا قد عما الارض
وللضلالة والطغيان وعبادة الاصنام والاوثان ..

- من أجل ذلك أغرق الله الارض بما فيها من شرور وآثام ،
وبمن عليها من طغاة واصنام ، الا تلك النخبة الصالحة المنتقاة
التي وضعت فى السفينة ، لتبدأ بعد ذلك حياة أخرى يسودها
الخير ، وأجيالا جديدة يقودها الخير ..

- هو ذاك ؟ ..

- وهل ساد بعد ذلك الحير ، وانتصر الحق ؟ ..

- ماذا تعني ؟ ..

- ألم يقل لك مؤرخوك أن قوم عاد « كانوا أول من عبد
الأوثان بعد الطوفان ؟ » .. كل شيء رجع فنبت من جديد ..
بعد أن غيض الماء ، وبلعت الأرض ماءها ، ورجعت الحمامة الى
نوح وفي منقارها ورقة الزيتون وفي رجلها الطين .. وأخضر
وجه الأرض ونبت فيها الزرع والضرع والحير والشر ، أقوى
مما كان وأخصب ..

- نعم .. نبت الشر من جديد .. أتدري لماذا ؟ لأن إبليس
كان قد دخل السفينة مع من دخل ولم يغرقه الطوفان مع من
أغرق .. أتدري كيف تسس إبليس الى السفينة ؟ ..
- لا .. كيف تسلل ؟ ..

- يروي عن المؤرج ابن عباس أن إبليس دخل متعلقا بذنب
الحمار ! ..

- أو كان ابن عباس هذا شاهدا عيان ؟ ! ..

- لست أدري .. إنما أحدثك بما جاء في بطون الكتب ..

- خير لك أن تحدثني برأيك أنت في نتيجة كل ذلك ؟ ..

- نتيجة أن نوحا خرج بعد ذلك الى الأرض هو ومن معه
من انس ودواب .. وابتنى مذبحا لله ، وأخذ من الطير والدواب
الحلال فذبحها قربانا الى الله سائلا إياه أن لا يعيد الطوفان على
أهل الأرض .. فعهد الله اليه أن لا يعيده ، وجعل تذكارا لميثاقه
اليه القوس الذي في الغمام ، وهو قوس قزح الذي قال ابن
عباس أنه أمان من الغرق ، وقال آخرون أنه قوس بلا وتر ،
أي أن هذا الغمام لا يوجد منه طوفان كأول مرة ..
- الواقع أن الطوفان لم يحدث غير مرة ، بعد أن ثبتت قلة
جدواه في المرة الأولى ! ..

- أنت تقصد ولا شك طوفان الماء .. هذا حقيقة لم يحدث
غير مرة .. وقد وعد الله بأن لا يعيده .. ولكنه استعاض عنه
بطوفان من نوع آخر يحدث في كل جيل مرة أو أكثر .. ذلك
طوفان الدماء ! ..

- حتى طوفان الدماء ماذا صنع ؟ وماذا أجدي ؟ ألم تكن
الحرب الكبرى الماضية طوفان دماء ؟ ..

- طبعاً ..

- لقد انتهت النازلة وختمت المجزرة ، وشربت الارض دمائها وابتلعت آثامها .. وظن العالم أن أصنام القوة المادية قد حطمت . وأوثان الطغيان قد هدمت . وأن الحق وحده هو المسيطر . وأن الخير هو المنتصر .. وأن الدول الصغيرة والدول الكبيرة سواء أمام سلطان الحق وحده .. وأن الشعوب القوية والشعوب الضعيفة متساوية أمام سيد واحد هو : النفع العام لمبنى الانسان دون اثرة أو نعره .. ونهض الناس ينظرون في كل أمة الى قوس النصر وقبر الجندي المجهول . كما نظروا الى قوس قزح .. سائلين الله أن لا يعيد الحرب مرة أخرى .. فما الذي حدث ؟ أجبنى ما الذي حدث بعد ذلك ؟ ..

- حدث الذي حدث في الطوفان الاول بلا زيادة ولا نقصان . حدث أن تعلق إبليس بذيل ..

- بذيل من ؟ ..

- بذيل الرئيس ولسن ! .. صاحب المبادئ الاربعة عشر المشهورة التي كانت ستكفل للعالم سيادة الحق والعدل والخير والسلام ..

- اذا لقد خاب ذلك الطوفان هو الآخر ؟ ..

- بالطبع .. وما نحن أولاء في طوفان جديد .. لم تبتلع الارض بعد مائه ، بل لو ذهبت الحماسة لما وجدت ورقة زيتون تلتقطها ولا عشا تأوى اليه .. لقد ضربت القنابل كل بناء وهدمت كل جدار .. ولكن الناس يحتملون كل ذلك صابرين ، وينظرون الى الغد مستبشرين . ويعلمون أنفسهم بأن هذا آخر طوفان ..

- كما قالوا في كل مرة ..

- أظن أنه قد آن للبشرية أن تعقل وأن تبلغ رشدها . وأن تتحرر نهائياً من طغيان الغرائز الدنيا .. وأن تكف عن تمزيق بعضها بعضاً ، وأن ترتفع الى حيث تعمل متكاتفه لمصلحة الانسانية كلها جمعاء ، دون ضغائن ولا سخائم ولا بغضاء .. ودون تمسك بغرور كاذب وعظمة زائفة وحب تسلط وشهوة سيطرة ..

- قل بالاختصار دون عبادة لأصنام الكبرياء الذاتي .

- هو ذاك ..

- اسمح لي أن أقول أن هذا شيء عسير على الإنسان . لا بد
للإنسان من عبادة الأصنام .. لم يستطع طوفان الماء ولا طوفان
الدماء أن يغرق الأصنام التي يصنعها الإنسان لنفسه ! .. إن
الإنسان غير قدير ولا جدير بعبادة الله .. لأن الله لا يميز بين
جنس وجنس ، ولا فصيلة وفصيلة .. هو النور العام الذي
يضيء كل الكائنات .. وهو الحب العام الذي يربط كل شيء
بكل شيء .. ولكن الإنسان لا يفهم ذلك .. أنه لا يرى إلا ذاته
المحدودة ، ولا يعبد إلا ما تصنع له يده من صور نفسه الجسدية
الاثرة المتعجرفة العمياء .. كلا .. إن الله بعيد عن الإنسان ..
وأنه أرفع وأعلى وأعمق من أن يتصل به الإنسان .. ربما كنت
أنا وفصيلتي أقدر على حبه . وهل سمعت منذ بدء التاريخ أن
فصيلة الحمير عبدت أصناما ؟ !

- اني معك .. مع الأسف ..

- أجبني إذن : ما فائدة الطوفان إذا كان ..

- إذا كان لا يستطيع أن يغرق ابليس ؟ ! ..

- أرجو قبل كل شيء أن لا تصدق أن ابليس دخل السفينة
متعلقا بذيل الحمار ..

- بل هذا أصدقه ..

- تصدق هذا ؟ ..

- بالتأكيد .. لأن الحمار يحمل نفسا صافية ، ومبادئ
مثالية .. وابلليس خبيث يبحث العبث والسخرية ، ولا يحلو له
أن يعيث ويسخر إلا من أصحاب النفوس الحيرة والمثل العليا ! ..
فلا عجب إذا دخل مكانا أن يتعلق بتلابيب أطيب القوم قلبا ..
وأسماهم فكرا .. لأنه لا يلزم التافهين ، ولكنه يتمسح بذوى
الشأن .. أنه يحب الدخول من الباب الكبير .. لذلك تراني
أنظر إلى هذا الطوفان الأخير بعين القلق .. أبحث عن الرجل
المثالي الذي سيدخل في أذياله ابليس ! ..

- أكتب عليكم هذا معشر البشر أن تعيشوا في سفينة ضالة
في بحر الظلمات .. بغير المثل الأعلى تحيون كالديدان في
الحماة يأكل بعضكم بعضا .. فإذا وجد فيكم من يحمل مشعل
المثل العليا انقلب سخرية الساعرين ولعبة في أيدي العابثين ! ..

- تلك هي المشكلة ..
- حتى الطوفان لم يحلها ..
- لم يجعل الطوفان ليحل شيئا .. ولكن ليلطف من وقع الاشياء . انه حمام يهدى اعصاب البشرية كلما احتاج الامر ..
- لقد فقدت الامل في وجود العلاج الحاسم .. فلم يعد حتى طوفان الدماء في نظري غير نوع من الحجامة أو الفصد يلجأ اليه الانسان كلما ازداد الضغط ..
- أتدري أين العلاج ؟ ..
- أين ؟ ..
- عندي ..
- عندك ؟ ..
- نعم .. عندي العلاج .. واذا قلت لك عندي فانما أقصد عند فصيلتي .. فنحن نفكر جميعا تفكيرا واحدا . فليس عندنا حمار مثالي وآخر مادي .. وليس عندنا زعماء ولا قادة ولا أوثان ولا أوطان .. بل يوجد حمير على أرض الله وكفى .. شعورها واحد وقلوبها واحدة ..
- هذا جميل ..
- نعم . ولذلك أستطيع ، اذا سمحت لي ، أن أجد العلاج لكم معشر الانسان ! ..
- حقا .. هذا هو الذي كان ينقصنا ! يا لمجد الانسانية المنهار ! .. أيدلنا القدر هذا الازلال ، فلا نجد من يهدينا الى علاج أمرنا غير حمار ؟ ! ..
- كبرياؤكم .. كبرياؤكم .. كبرياؤكم الزائل .. انه في دمكم ! دمكم الذي فسد .. لا أمل فيكم ولا علاج لكم الا بعملية نقل الدم .. نقل دم جديد ..
- أظنك ستقترح أن ينقل الينا دم حمير ؟ ! ..
- لا .. انها لضحية كبرى من فصيلة الحمير ، لا أنصح لها أن تتحملها من أجلكم ! ..

شعب يريد النصر

من يطالع كتاب « الحرب والسلام » لتولستوى يجد هذه السطور :

« ان المعركة لا يكسبها دائما الا ذلك الذى وطن النفس على كسبها .. لماذا خسرنا موقعة أوسترلتز » أمام نابليون « ؟ لقد كان ما تكبدناه من خسائر معادلا لما تكبده الفرنسيون ! .. ولكن الذى حدث هو أننا كنا أسرع منهم اعتقادا فى الهزيمة ! .. ان الانتصار لا يتوقف على القائد ولا على رئيس هيئة أركان الحرب .. ولكنه يتقرر عندما يصيح أول جندي « لقد خسرنا ! » أو عندما يهتف : « لقد ظفرنا ! » »

ويمضى تولستوى بعد ذلك فى تعليل ما حدث عام ١٨١٢ من ارتداد نابليون بجحافلته عن مدينة موسكو .. لا عبقرية نابليون فى رأيه ، ولا ما كان يصاب به من زكام ، ولا جليد روسيا الذى كان يجمد أنوف جنده ، فتتساقط من الوجوه كأنها حطام .. ما كان هذا كله هو السبب فى تقهقر الفرنسيين .. انما السبب الحقيقى فى نظره هو أن روسيا كانت تشبهت بحياتها فى أرضها أكثر من تشبهت فرنسا باحتلال أرض ليست

لها .. لقد أراد الروس طرد هؤلاء المتطفلين على بلادهم ..
وكانت ارادتهم هي الأقوى .. لأنها الاصدق .. ولا شيء في
الوجود يهزم ارادة صادقة ! ..

النصر هو اذن لمن يريد النصر .. ولا يريد حقا من صميم
نفسه الا ذلك المعتدى عليه في غمر داره ..

ان الدول تنبت وتثب في أرضها على مدى الاحقاب ، كما
ينبت ويشب الدوح ، وتثبت جذوعه ، وتغلغل جذوره ..
فلا تخلعه العواصف ، ولا تقلعه الرياح .. انها لا تزرع لساعتها
بالأيدي في أي أرض ، كما يزرع ضعيف الحشيش وواهن
العشب .. فبالأيدي يخلع كذلك وفي الفضاء يطرح ! ..

هكذا يظن قصار النظر من سياسة الغرب ان في مقدورهم
أن يغرسوا بأيديهم في طرفة عين دولة في أرض الغير ..
ان التاريخ غني بالعبر .. ولكنهم لا يبصرون ..

ولكن الموعد قريب .. يوم تردهم طبيعة الاشياء الى البصر ،
فيرون عندئذ كيف يتطاير زرعهم هباء ، وكيف تذروه الرياح
بددا ..

اننا سننتصر لاننا أردنا النصر .. كل فرد فينا أراد
النصر .. لا جندي القتال وحده .. بل كل انسان نبت في
هذه الارض .. وتغلغل فيها جذوره منذ القدم .. كل انسان
عالم أو جاهل .. كل فرد صانع أو عامل .. ان الجميع
يتحركون شوقا الى العمل من أجل النصر ، ويضطرمون غضبا
على كل من يصدهم عن هذا السبيل ..

لقد تلقيت ذات يوم صيحة مجلجلة كقصف المدافع من رجال
بعدين عن الحرب كرجال التعليم الصناعى يقولون ثائرين :
« لقد التمسنا من أولى الأمر أن يستغلوا خبرتنا الفنية والعلمية
من أجل الانتاج الحربى ومن أجل جيشنا المظفر .. لدينا
مصانع كثيرة يمكنها أن تعمل لا بحرارة الوقود بل بحرارة
دمائنا التى تغلي في العروق ! .. لا نريد أن تظل خبرتنا
معطلة وقوتنا مهملة في هذا الوقت الذى ينال فيه الجندي
شرف اهدار دمه في ساحة البطولة والتضحية .. لا نريد
أوسمة من الشكر والتقدير كتلك التى منحتنا اياها أولى الامر
يوم عرضنا تطوعنا .. انما نريد أوسمة من التجنيد والتكليف

بالعمل لخدمة الجيش ليل نهار * انه ليحز في نفوسنا ان الجيش
البريطاني قد استغلنا في الحربين العالميتين ، واعتصر جهودنا
في خدمة ما أسموه قضية الديمقراطية .. نريد نصيبنا من
الكفاح قبل أن نعطي أجازات الصيف حيث الدعة والراحة *
في وقت نعتبر فيه الراحة جريمة في حق الوطن الناهض
والجيش المجاهد ..

بهذه اللهجة يتكلم الناس اليوم في هذا البلد ..
ولكن كان هتاف أول جندي بالظفر هو الذي يقرر في نظر
تولستوى مصير الموقعة .. فما بالك بهتاف كل فرد في الأمة
طالباً نصيباً في الجهاد من أجل نصر البلاد !! ..
في يقيني أنا أمة كتب لها الانتصار .. لانها تريد خالصة
صادقة أن تنتصر ..
٥ يونيو ١٩٤٨ ..





تحرك الشرق الجامد..

« أخيراً قد تحرك الشرق الجامد ! » تحرك من صميم أغواره .. وأنه اليوم ليتأهب لوئبة عجيبة .. وإن قوى فى صدره تتأجج ، وإن أفكارا فى عقله تتخمر .. كل هذا يحدث على نحو مفاجئ ، وعلى صورة عميقة ما سبق للعالم أن عهدها فيه .. هذا الشرق الذى لبث فى نوم عقلى وروحى ، ما يقرب من ألف عام ، ينفض الآن عنه الكرى ، وينهض على قدميه ليسير من جديد .. يسير إلى أين ؟ .. لسنا ندري بعد إلى أين يسير .. وأنه لمن المرأة أن نتنبأ بما سوف يتمخض عنه هذا التأجج العظيم فى السياسة والاقتصاد والاجتماع والدين .. وغيرها من دعائم الحضارة الانسانية .. ولكننا نأمل أن يصاحب هذه الجهود والآلام مولد شرق ، بعث ليحتل مكانه فى عالم جديد .. »

قائل هذا الكلام كاتب أمريكى اسمه « لوتروب ستودارد » .. نشره فى كتاب عنوانه « عالم الاسلام الجديد » . ظهر فى عام ١٩٢١ .

وأهمية هذا القول أنه يصور رأى أمريكا فى شرقنا عقب الحرب العالمية الاولى .. ويرينا كيف أنهم استطاعوا أن يفتنوا

الى ما يضطرب يومئذ في نفوسنا
من عناصر الحياة والنشاط
والنهوض .. وما من شك في
أن أمل الكاتب قد تحقق أكثره
.. فقد استطاع الشرق في ربع
قرن أن يحتل مكانا لا بأس به
في هذا العالم الجديد . الممثل
في هيئة الامم « المتحدة » ! ..
على أن الذي كنت أود معرفته
هو رأى ذلك الكاتب في هذا
« العالم الجديد » .. وعلى رأس
بلاده وزعيمها « ترومان » ..



ترومان

أتراه قد حقق أمله أو خيبه ؟ .. لست أدري أهو حي ذلك
الكاتب الآن أم هو في عالم الاموات ، ليجيب عن هذا السؤال !
ولكن في كتابه مع ذلك نظرات ، نستطيع أن نستشف منها
رأيه في السياسة الامريكية الحاضرة .. لقد ألف كتابه في
وقت كان فيه الوطنيون في الشرق يهبون مناضلين عن حرية
أوطانهم .. وكانت فيه الثورة الروسية الفتية تهب مطلقة
دعابتها في أرجاء المعمورة .. فلنصغ الى ذلك الكاتب اذ يقول :
« .. يا له من موقف مؤلم حقا .. موقف أولئك الوطنيين
الشرقيين .. انهم بين المطرقة والسندان .. بين سندان
البلشفية ومطرقة الاستعمار الغربي ! .. كلما تلقوا من الحلفاء
ضربة اتجهوا صوب « موسكو » . وكلما صدمهم « لينين »
صدمة التفتوا نحو الغرب ! .. لو كان لدى سياسة الغرب
ذرة من الادراك لفظنوا الى هذه الحقيقة ، وهي أن خير عامل
من عملاء الدعاية البلشفية ليس « زينوفيف » ..
ولكن قادة الحلفاء بقواتهم الباطنية ووسائلهم العتيقة في
سوريا وقلب بلاد العرب ! .. »
تلك نصيحة عمرها ربع قرن ! .. ولكنها لم تهرم بعد ..
بل انها لم تزل صالحة لأن تلقى اليوم في بعض الاسماع الثقيلة
والآذان الصماء ! ..

ولنستمع الى ذلك الكاتب أيضا وهو يبدى مخاوفه من أن تمتد يد البلشفية الى الشرق :

« ... ان الشرق قريب الشبه جدا من روسيا .. وإن مؤتمر « باكو » كان هو القنبلة الاولى التي افتتحت بها المعركة ،

التي قصد بها توجيه الغزو البلشفي المباشر الى الشرق ! .. »
ولكن مؤتمر « باكو » لم يستطع في ربع قرن أن يبلشف أكثر من القوقاز وجورجيا وأرمينيا ..
الى أن جاء « ترومان » في آخر الزمان ..

وهنا تستطيع روسيا أن توقن بأن مؤتمر « باكو » قد نجح بفضل أمريكا نجاحا لم يخطر على بال ..

لقد أهدى إليها ترومان دولة بلشفية في قلب الشرق العربي ..
انها الواحة المورقة التي سوف تغرس فيها من مبادئها جنات .. يحلم بما فيها كل من جاورها من الشعوب ! ..

ما أيسر المهمة أمام روسيا بعد ذلك ! .. وما أعجزها ان لم تنتهز الفرصة فتطرد الغرب بعدئذ من الشرق بركلة قدم ! ..
هذا ما رآه وخشيه الكاتب الأمريكي « لوثر روب ستودارد » منذ ربع قرن ! ..

وهذا ما لم يره الرئيس الأمريكي « ترومان » منذ يومين ! ..
والله يعطى البصر من يشاء .. ويعمى بالغرض من يشاء ..
وما ينبغي لنا نحن أن نعلق آمالنا على أغراض الدول ، بل نعمل طبقا لأغراضنا .. فلنأخذ خيرنا حيث نجده ، ولنسعى الى حاجتنا حيث تكون ! ..

ان الله تعالى أراد لهذا الشرق الجامد أن يتحرك .. كما قال الكاتب الأمريكي الحصيف .. ولقد شاهد في صدره قوى تتأجج .. ورآه ينهض على قدميه ليسير .. ولقد تسأل : الى أين يسير ؟ .. وها هو ذا الجواب بعد ستة وعشرين عاما : انه يسير الى مجده .. محطما في طريقه كل من يقول له : قف مكانك أو عد الى جمودك ! ..

٢٩ مايو ١٩٤٨ ..



عيشوا في خطر ..

« .. اني احببى تلك البوادر التى تنبئ بقدوم عهد موسوم بالرجولة .. نقشت فيه من جديد على جدران القلوب كلمة البطولة .. »

صدقونى ! .. اذا أردتم أن تحصدوا ما فى وجودنا الحبيب من ثمرات ، وأن تفوزوا من الحياة بأشرف المتع .. فاني أكشف لكم النقاب عن السر : عيشوا فى خطر ! .. ابنوا مدنكم على حافة البراكين .. ارسلوا سفنكم الى البحار المجهولة .. اشتركوا فى الحروب مع أندادكم .. ومع أنفسكم كونوا ناهبين وفاتحين .. ان لم تستطيعوا أن تكونوا مسيطرين ومالكين ! .. عندئذ تشعرون أنه قد ولى عنكم الزمن الذى كنتم فيه تقنعون بالحياة فى الغاب مختبئين ، كالظباء النافرة الخائفة ! .. »

تلك كلمات « نيتشه » .. لكانى به يوجهها الى شعبنا الكريم ، ووالله لو كان ذلك الفيلسوف حيا ، ورأى من مصر ما نرى اليوم ، لتنبأ لها هى أيضا بذلك العهد الموسوم بالرجولة والبطولة ..

ان تلك الصيحة : « عيشوا فى خطر » هى منذ اليوم صيحتنا ، فلتكن هناك هدة أو لا تكون .. ولتقم للأعداء قائمة أو لا تقوم .. فان شعورنا بظل من خطر يدنو من أرضنا ، وادراكنا للتبعة الملقاة على أكتافنا ، وايماننا بأننا لن نحيا الا بكفاحنا .. كل ذلك كفيلا أن يجعل منا ذئابا تنام فى الغاب بعين واحدة .. وتمضى النهار تسن المخلب وتعد الناب ! .. سنعيش فى خطر .. ولن نخشاه .. لأن به عرفنا أنفسنا ، واستوثقنا من صلابة عودنا .. وأدركنا عندما سمعنا صوت العدو فى غابنا .. انا لسنا بالفلزان الشاردة ،

ولا الأطباء النافرة .. ولكننا أسود كاسرة ، وسباع ظافرة ..
وليس هذا علينا بجديد .. فما من مرة نحس فيها أن
العدو عدونا ، وأن الحرب حربنا ، الا قمنا فيها هذه القومة ..
لقد كان لنا دائما من شعورنا هاد ، ومن نظرنا مرشد .. لقد
اشتعلت من حولنا نيران الحرب العالمية الاخيرة ، فما استطاعت
حرارتها أن تنفذ الى قلوبنا .. فقد شممنا منها بأنوفنا الدقيقة
دخان الحتل والحديعة .. صاح المتحاربون بأفكهم يقولون :
انها حرب من أجل الحريات .. انها حرب من أجل الحق ..
انها حرب من أجل نصره الضعفاء .. وتحرير الأمم الصغيرة ..
ونشروا ميثاق الاطلنطي ، وقطعوا اليهود بقيام عالم حر جديد ..
كل هذا ما هز نفوسنا .. لاننا كنا ندرك باحساسنا الداخلي
أن كل ذلك هراء .. فنحن كنا نعلم فيم قامت تلك الحرب ،
وكان موقفنا فيها موقف جماعة من الأبرياء الاطهار ، ألقت
بهم الظروف في حلبة قمار .. وقد طفق دهاة المتقاملين
يغرونهم بأن يشتركوا في اللعب ويساهموا محاولين أن يسلبوا
ما في جيوبهم من نقود ، وأن يستزفوا ما في عروقهم من دماء ..
وكل يؤكد أنه هو الرابع ، وأن يربحه يعم الخير والرخاء من
سأهم ودفع .. ولقد ساهمنا نحن فعلا ودفعنا .. مدفوعين
بعمود الصداقة للحليف ، ولكننا ما شعرنا لحظة أن هذه المساعدة
لها في نفوسنا من المعاني أكثر من كونها نوعا من البر والصداقة ،
أو عربونا للعهد والصداقة .. ان هذه المؤامرة في حلبة
« القمار » ما كانت تشعرا ببطولة ، ولا كانت جديرة أن
توقظ فينا الاحساس بالفخار ..

أما اليوم فنحن أمام عدو لنا وحدنا .. لا نساق اليه سوقا ،
ولا نساوم على مخاصمته بالوعود .. نرى أقوى دول العالم
تؤيده ، ونرى أنفسنا منفردين بعداوتة .. ومع ذلك .. فقد
نهضنا لسحقه بقلوب تزار في جوانبها البطولة كأنها الرياح
الهوري .. غير معتمدين على أحد ولا منتظرين مكافأة من أحد ..
تلك هي مصر .. دائما .. صريحة صابرة صلبة صداقة ..
لا يستنفرها للحرب ألف حليف قوي ، ولا ألف وعد سخى ..
ولكنها تنهض بمفردها تناضل ، اذا تشبعت بالايامن غير حافلة
بمواطن الخطر ..

١٤ يونيو ١٩٤٠ ..

نسر السلام..

للشاعر الالماني « جوته » قصيدة قصيرة يروى فيها قصة نسر صغير طار يوما باحثا عن الفريسة ، فأصابه سهم الصياد ، فوقع فريسة للآلَم في غابة من المر والريحان .. ومرت به الايام وهو يئن صامتا حتى أدركته رحمة الطبيعة فخففت عنه . وانطلق النسر من الغابة يصفق بجناحيه .. لكن وأسفاه ! .. ان جناحه الايمن مكسور ولن يستطيع بعد اليوم الا مس وجه الارض ناشدا الصيد الهزيل .. ووقف فوق صخرة ملقاة عند مجرى ماء ، وأرسل بصره الى السماء فانحدرت دمعة رطبت منه تلك العين الحادة البراقة كأنها سيف .. وهبطت قربه عندئذ حمامتان ، نظرنا اليه بعيونهما القرمزية كأنها فصوص مرجان . ولمحتا ما هو فيه من شقاء .. فقالت له احدهما : « لم هذا الحزن أيها الصديق ، وحولك كل ما ينبغي لافعام قلبك بالسعادة والأطمئنان ؟ ها هي ذى أغصان من ذهب تحميك من نار النهار ، وها هي ذى أزهار مغطاة بالندى تطلق بينها خطواتك الهادئة . وفي هذه الغابة تجد لك غذاء شهيا ، وطعاما سخيا .. وفي هذا الجدول الصافى تطفئ ظمأك ، وفي زبدته تقمس صدرك ، أيها الصديق ، ان السعادة الحقة هي في الاعتدال .. الاعتدال

فى المطالب .. الاعتدال فى الغايات .. فى كل مكان يستطيع
الاعتدال أن يظفر بحاجته وأن يصل الى بغيته ..

سمع النسر ذلك القول فتحامل على جسمه الجريح وقال :
« أيتها الحكمة انك تتكلمين كأنك حمامة ! » ..

أريد أن أغير فى قصيدة جوته لفظاً واحداً : أريد أن أضع
« السلام » بدل « الحكمة » ..

فيقول النسر : « أيها السلام .. انك تتكلم كأنك حمامة ! »
عندئذ تصلح العبارة للنقش فوق جدران المؤتمرات ، وللطبع

فى قراطيس المعاهدات ! ..
ولو كان للنسر أن ينطق فى عصرنا الحاضر لقال :

« أيتها الصديقة ! ان السلام لا أعظم من أن تحمله أجنحة
الحمام ! .. »

انه لم يعد غصن زيتون يوضع فى منقار الصغير ، ولكنه
« قنبلة ذرية » توضع فى مخالب النسر ! ..

ما من أحد خالق الآن برفع علم السلام غير نسر ..
لأن السلام لم يعد مجرد كلام .. ان السلام والحرب جهدان

متكافئان .. السلام والحرب مثل وجهى الدينار ، من ملك
أحدهما ملك الآخر .. ومن حمل النار حمل النور ..

ان من استطاع أن يثير الحرب ، استطاع أن يصون السلام ..
ليس من حق الأعزل أن يتحدث عن السلام ..

تتكلمين أيتها الصديقة عن « الاعتدال » فى المطالب والغايات ،
هذا كلام جيد .. ولكن من الذى يصد رغبتى ويحد من شهوتى ؟

أهو غصن الزيتون الذى فى فمك ؟ أم هو السيف الذى فى يد
جارى ؟ ..

تحسبين كلامك من ذهب ! .. وأسفاه ! .. انك لاتعلمين
ما هو الذهب فى هذه الايام ؟ الذهب اليوم ليس معدنا ذا بريق ،

جميل المنظر ، خلافا للبصر .. ما من أحد يأبه الآن للرنين
البديع ، أو يحفل بالمعنى الرائع ، انما الذهب اليوم سبائك

توضع فى أقبية المصارف ، كما توضع القوات المسلحة فى
تكتلات الدول ..

يجب أن يكون فى الدولة رصيد من « ذهب » لتستطيع أن
تصدر « سندات السلام ! .. » ..

أصغت الحمامة الى هذا القول وطأطأت برأسها الصغير ، ثم
قالت بنبرة الازعان :

- صدقت ! .. لا تصلح الحمامة رسولا للسلام في هذا
الزمان ! .. حتى هذه المهمة النبيلة الجميلة لم تعد من حقي ؟
خذها اذن ايها النسر فريسة لك ضمن ما أخذت . وأطبق عليها
برفق وحنان واحذر أن تخنقها قبضتك .. وسيان عندي
سيان .. أن يؤدي هذه المهمة السامية فمي أو مخلبك ؟ ! ..
٢٨ سبتمبر ١٩٤٦ ..



بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على من لا نبي بعده
وبعد فقد حضر هذا الاجتماع
الذي هو من اجراءات العمل
التي تتبعها هذه المؤسسة
في كل سنة ولما كان
الاجتماع قد تم في
الوقت المحدد له
فقد تم اتخاذ
الاجراءات اللازمة
للمتابعة

والله اعلم

هل يتجر العالم؟

فى عام ١٩٢٧ قرأت كتابا نشره وقتئذ العلامة الايطالى « فيريرو » بعنوان « وحدة العالم » بسط فيه المشكلات التى خلقتها الحرب العالمية الاولى ..

ولقد عدت أخيرا الى قراءة هذا الكتاب .. فان من أنفع الامور فى نظرى أن يعيد الانسان قراءة الكتب السابقة بعد فترة من الزمان .. فماذا وجدت ؟ .. فى الحق انى وجدت صفحات خيل الى أنها كتبت عقب الحرب العالمية الاخيرة .. واستمعوا الى ما يقول ذلك المؤرخ : « تريدون وحدة العالم .. فلننتظر اذن طويلا .. ذلك ان أوروبا ليست سوى بركان يغلي بالاحقاد القومية .. تلك هى الحقيقة المرة ، كل شعب يعتقد أنه « هابيل » المهدد بالخطر من « قابيل » .. وأن جهود أصدقاء السلام ومؤتمرات السياسة ليست أكثر من هباء ضائع .. انى أعرف ما سيحدثه هذا القول من يأس فى نفوس الكثيرين ، ممن يؤمنون بضرورة وحدة العالم .. ولكن ها هى ذى الحرب العالمية قد زلزلت سلطان أوروبا السالف على أفريقيا وآسيا .. وهددت سيطرة بريطانيا على البحار .. ولم يبق لنا الا أن نتساءل :

من الذى سيكون سيد العالم فى المستقبل ؟ .. بأى وسيلة من السلاح والمال وحيل السياسة سيقفز هذا السيد الى عرش سلطانه .. ذلك أن العالم لا بد له من سيد أمر .. من يكون ؟ أهى أمريكا بشرائها الضخم ؟ .. لقد كانت قبل الحرب مدينة الى أوروبا فأصبحت اليوم هى الدائنة للعالم والممولة للشعوب . أم ترى هى اليابان التى أغنتها الحرب .. ان السياسة والمفكرين ليتساءلون عما يحدث لو ان اليابان نجحت فى أن تضم اليها الصين ، وأن تجعل منها دولة حديثة كبرى تحت ادارتها .. ما من شك فى أن ذلك كفىل بأن يحدث هزة فى الكوكب الارضى .. أم أن الأمل معقود على روسيا المتدثرة بالغموض ، المغلفة بالاسرار ؟ .. ما من مكان تشب فيه حرب ، أو أن يشع نوره الا قبل أن أصابها هى التى أشعلت عود الثقاب .. وأن أولئك الذين ينسبون اليها ذلك ، ليعتقدون كل الاعتقاد أن روسيا هى الأخرى تحلم بالسيطرة على العالم ، وأنها مستطبعة تحقيق ذلك الحلم على أثر انقلاب عالمي .. الخ ..

هذا الكلام الذى نشره « فيبرو » منذ عشرين سنة ، يمكن أن ينطبق على أحداث هذه الايام .. باستثناء ما ذكر عن اليابان التى حطمها السلاح الذرى ، وهو ما لم يكن يخطر على بال انسان .. أما انجلترا فقد كان شبح انحلالها قد بدا لذلك المؤرخ منذ تلك الاعوام ..

العالم اذن قد صار كرة تتقاذفها يدان قويتان .. أمريكا وروسيا .. وهذه المباراة لا بد أن تنتهى عاجلا أو آجلا الى الخاتمة المحتومة .. سينقشع الغبار فى الغد عن الفائز بالكرة .. والسيد لهذا الكون ! ..

ولكن هل بذلك يسدل الستار وينتهى الخلاف ، وتتم على هذا النحو وحدة العالم تحت راية المذهب الغالب ! .. ما أحسب ذلك ممكن الحدوث ، ان وحدة العالم على أى صورة من الصور خرافة .. انها وهم من الأوهام التى تقوم فى رؤوس المثاليين .. ان الدنيا لم تعرف فى تاريخها كله لحظة من اللحظات اتحدت فيها المذاهب ، واتفقت الآراء .. ان الرأى الغالب نفسه سوف ينقسم الى أجزاء لن تلبث أن تتخاصم وتتعارض .. والمذهب الواحد لا يطبق أن يحيى طويلا دون أن يولد من صلبه

١٢٠
مذاهب تتدافع وتتطاحن .. ان ناموس الحياة يابى الا ذلك
الاختلاف .. ولو استطاع جسم واحد أن يحيا بكرات حمراء
دون كرات بيضاء تنافسها وتغالبيها ، لا يمكن العالم أيضا أن
يعيش بالمذهب الواحد والرأى الواحد ! .. ولكنه الموت اذا
وقع هذا الاتحاد التام بين كرات الدم أو مذاهب العقل ! ..
لأن الحياة ليست سوى حرب سجل بين عناصر متباينة ،
وتوازن بين قوى مختلفة .. لا وحدة للعالم اذن .. الا اذا
خرجنا من طبائعنا وغرائزنا وخلعنا آدميتنا ، ولم نعد نخضع
للقوانين التى خلقت بمقتضاها أجسامنا وعقولنا ونفوسنا ..
ما دمنا بشرا فالحرب باقية .. لأنها من مقومات حياتنا ..
داخل الأبدان على صورة معارك بين الجرائم .. وداخل
العقول على صورة خلاف فى الآراء .. وداخل الشعوب على
صورة صراع على التفوق .. فاذا سكنت هذه الحرب أو الحركة
داخل الشعوب والافراد ، فمعنى ذلك انحلال القوى وانهيـار
الصحة واقتراب من الفناء .

يجب على المفكرين اذن أن يبحثوا عن صورة أخرى للسلام
غير تلك الصورة التى ألفوها واعتادوا عرضها على الناس ..
وهى « منع الحرب » .. ان الحرب فطبيعة حقا ، ولكنها كتبت
علينا .. ولن نستطيع منها خلاصا .. الا بأمر واحد : أن
تهذب وسائلها .. وأن نتسامى بأساليبها .. وأن نجعلها
جديرة ببشر لا بوحوش .. ولكن كيف السبيل الى ذلك أيضا
وفى داخل كل منا وحش لم نستطع بعد آلاف الاجيال أن ننتزع
منه المخلب والناب ؟ ! ..

١٥ مايو ١٩٤٨ ..



صفحة من مذكرات تشرشل

هوننج ستريت رقم ١٠ في ٠٠٠

الريخ الثالث محي اليوم من
الوجود هكذا حطمت ألمانيا
وتمزق كيائها وتناثرت أشلائها ،
ولم يعد لها حساب في
سجل أوروبا الى ما لا ندرى من
الازمان ، انه النصر ، ويا له من
نصر ! .. هنالك مع ذلك سحابة
تغيم في نفسي ، وسؤال مريب
يعبر خاطري : لمن هذا النصر !
لقد نفخت هذا الصباح دخان
سيجارى الكبير شارد اللب وأنا
ألقي من الشرفة نظرة على



تشرشل

جماهير لندن الراقصة الصاخبة من الفرحة . ترى ماذا تفعل
جماهير موسكو الآن ؟ .. ان الفرحة الحقيقي يجب أن يكون
هناك ، فالجرب قد انتهت في أوروبا كما أراد ستالين بالضبط ،
لا كما أردت أنا ، يقولون اني قدت بريطانيا الى النصر .. هذا
صحيح .. الى النصر الروسى ، لا أخجل الا من شبح رجل

واحد : هو لويد جورج . هو وحده الذى يفهم حقيقة انتصارى ويستطيع أن يسخر منى ، لقد قاد ذلك الرجل الحرب الاوروبية الاولى ، فلم يفعل شيئا ، بل من الزيف والخطا أن نزعم أنه قاد أحدا أو أمر ، لقد قبع فى انجلترا يشاهد عن بعد كيف يقود المارشال « فوش » جيوشه الفرنسية ، وكيف دارت معركة المارن ومعركة فردان ، كأنه أحد ارستقراطية اللوردات يراقب بمنظاره الكبير حركات الجياد فى سباق الدربى . وانتهت الحرب بانكسار الالمان ، وبسقط مائدة الصلح ، فخرج لويد جورج من مكمنه ووضع يده على المائدة الخضراء يعترف ما عليها من أرباح . . . وأراد النمر الفرنسى أن ينشب أظفاره فى الفريسة ، فخلصها منه بلباقة وأبقى على أنفاسها الاخيرة لتكون فى المستقبل شوكة تحد من طغيان النمر وانقراده بالسلطان فى غابة أوروبا . وأراد الفيلسوف الأمريكى « ولسن » أن يطرح أفكاره ليوزع الثمرات بالعدل بين أهلها ، وينصف المظلومين ويحرر المستعبدين ، ويبدد المغنم من مخالف الأسد البريطانى ، فتناوله لويد جورج بلطف ووضعه فى جيبه برفق . وأعاده الى بلاده كما يعاد الحطاب المغرم الى مرسله . . هذا حقا هو النصر : النصر الانجليزى ! . . من الانصاف لى أن أقول انى أردت الانتفاع بدروس لويد جورج ، وأردت أن أنهى الحرب فى الظروف المناسبة لنا ، وتحاشيت تمكين الدب الروسى من البطش بفريسته والقضاء عليها القضاء التام . وسافرت الى كندا لابرام صلح مع ألمانيا وهى لم تزال على قيد الحياة ، وان كانت قد زال خطرهما العسكرى ، فان وجودها فى قوة فرنسا الحالية على الأقل ، بل مجرد وجودها على أى شكل من الاشكال لحليق أن يشغل الدب بها طويلا ويشغله عنا . . ولا يتيح له ذلك التفرد فى القارة ، والسيطرة عليها بتلك الصورة نفسها التى خفناها من هتلر وحزبه . لو ان الصلح تم فى ذلك الوقت لكان التوازن أيضا فى أوروبا قد تم . ولكان النصر حقا نصرنا . فالجيش الاحمر كسب المعارك كما كسبها الجيش الفرنسى عام ١٩١٨ ، وبريطانيا هى التى تنزع الموائد وتتحكم فى المغنم ، ولكن ستالين ذلك الداهية . . أدرك هذه النية . . لعنة الله على الروس ، لكنهم يقرأون أفكارنا . . ولم لا ، أنهم لا شك يدرسون تاريخنا وسياستنا وأساليبنا . . نهض الروس يعارضون فى الصلح ويهددون ، وجاءنى

زميلي ايدن من موسكو طائرا يفضي الى بان هذه الحطة مستحيلة .
وان الروس في ايديهم ورقة اخيرة هي : اليابان ، ولم تكذ
شقيقتنا وولية نعمتنا امريكا تسمع كلمة « اليابان » حتى
ارتعدت فرائصها . . لا . . لا . . لا يجب اغصاب الروس ،
لان امريكا تطمع في انضمام روسيا اليها ضد اليابان ، وهكذا
قادنا ستالين الى اهدافه ، وشرنا كلنا خلفه ننتظر الساعة التي
يرى فيها هو انهاء القتال . .

دوننج ستريت رقم ١٠ في . . .

تم الامر وجربت القنبلة الذرية في هيروشيما وناجازاكي
واستسلمت اليابان . . يا للقدر ! . . لو ان القنبلة الذرية
تمت تجاربها قبل ذلك ببضعة شهور ، لثم كل شيء طبق
اغراضنا ، ولا برمنا الصلح في الوقت الذي نريد نحن الانجليز
وبالشروط التي نراها متفقة مع مصالحنا .

لم يشأ لي الحظ توفيقا كتوفيق لويد جورج ، هذا ما لا ينبغي
انكاره ، سيكتب التاريخ عنا غدا هذه العبارة : « كان لويد
جورج في حربه سياسيا لا مجاهدا . وكان تشرشل في حربه
مجاهدا لا سياسيا » ، الواقع ان كل فضلي كان الجهاد . .
الجهاد المعنوي على الاخص . ماذا كان ينتظر لامة وحيدة
تدكها القنابل دكا وقد انهار حلقاؤها وسقطوا من حولها . .
وهي شبه عزلاء ؟ صمودى وصيامى وجهادى أنقذ بريطانيا
من غير شك ولكن . .

واشمنجنطن في . . .

تركت دفة الامور للعمال يصنعون ما يشاؤون ، ولا أشك
في أنهم انجليز قبل كل شيء . . وان كانوا سيجنحون الى
مجاهلة الروس . وتلك من كوارث ابتعادنا نحن المحافظين عن
الحكم . .

أمامي بصيص أمل واحد أصلح به ما أفسد القدر ، اذا
نجحت فقد حق على التاريخ أن يصحح عبارته ويقول انى كنت
مجاهدا وسياسيا معا . . املى هو ادماج السياسة الامريكية
بالسياسة البريطانية ادماجا تاما لنواجه الخطر الروسى .
على أنه ينبغي الاحتياط في افهام الامريكان حقيقة « الخطر
الروسى » فالمقصود به في نظرنا نحن الانجليز « توسع »
الروس الذى يهدد اطراف الامبراطورية ، وسلطانها المطلق فى

البحار السبعة ، ومزاحمتها لنا في النفوذ السياسي والاقتصادي ، وليس هذا مما يعنى الأمريكان عنايتهم مثلا بشئون اليابان والشرق الأقصى ، ولكن يجب توحيد السياسة ليصبح ما بينهما يهم الأمريكان ، ولهذا التوحيد أو الإدماج مزية عظيمة هي وضع السياسة الأمريكية تحت وصاية السياسة البريطانية ، أمريكا دولة هائلة في الانتاج ، قوية في المعدات ، غنية في الموارد ، ولكنها لم تزل صبية في السياسة ، وان طول عزلتها عن المشكلات الدولية ، وجهلها بمسائل الاستعمار والنفوذ ، واهتمامها بشئونها الداخلية ، كل ذلك حرمها الخبرة والدهاء والمران في الميدان السياسي ، فهي لمدة أعوام أو أجيال شاعت أو كرهت ، ستظل معلقة بأصبع السياسة البريطانية العريقة ، وتلك هي الفرصة المواتية لنا نحن الانجليز ، نستطيع أن نتذرع بوحدة اللغة وتقارب الجنس والميول والحصال ، لنعمل على هذا الاتحاد ، لقد كنت عرضت على فرنسا مثل هذه الفكرة أيام محنتها لتستفيد من موارد مستعمراتها ، ومن أسطولها ومن رجالها . ولكنها فطنت لحبيثة الأمر ، فهي ذات عراقلة في السياسة هي الأخرى ، وقد صرح أحد سياستها بذلك قائلا ان معنى هذا الاتحاد عند الانجليز هو ربط فرنسا في عجلة الامبراطورية ، تسير في موكبها عضوا ياتمر بإشارة الرأس الانجليزى المدير ..

لا أظن أمريكا تفتن الى ذلك ، فهي أسلم طوية وأبسط فكرا ، وسنكون معها في غاية اللياقة حتى لا تتنبه هذه الآلة الضخمة الى أن محركها مصنوع في انجلترا ، يجب أن تكون لنا مهارة ذلك الرجل الضعيف النحيل الذى يسك بزمام فيل هائل ، يحمل على ظهره الأعباء ، ويدوس به الأعداء ، ويقتلع به الأشجار ، ويدحرج الصخور ويستلب منه نابه وعاجه وانتاجه ، ويتفرج ويفرج الناس على ذنبه وأذنه وخرطومه .. والفيل راض فرح مبتهج ، يعتقد أن هذا الرجل صاحبه وحبيبه وخدينه ..

هأنذا في واشنطن أسعى الى هذا ، وأقوم برحلة في أمريكا أدعو الى هذا .. فاذا وفقت فلن يقوم الى جانب عملى أى عمل سياسى آخر فى تاريخ العالم الحديث .

(طبق الأصل) - ٢٢ مايو ١٩٤٦ ..

يالها من خدعة!

في عام ١٩٤٠ نشرت في الصحف بيانا بعنوان : « نداء الى رجال الفكر » .. هذا نصه :

« لا ريب أن رجال الفكر في مصر قد تأملوا مليا تلك الخطبة التي القاها وكيل خارجية أمريكا « مستر سمتر ويلز » عند انتهاء المؤتمر العلمي للأمم الامريكية ، وقد أشار فيها الى ليل العصور الوسطى وفجر عصر النهضة ، وما تبعه من حركة أحياء العلوم الى أن قال :

« ليس في مقدورنا أن نتكهن بشيء عن احتمال العودة مرة أخرى الى ظلام القرون الوسطى على الأقل فيما يتعلق بشئون الفكر والروح ، في بلاد أصبح البحث الحر فيها مستحيلا وأى أمل بقي للأجيال القادمة ، ما دامت هناك دكتاتوريات ترغم الناس على أن يؤمنوا بالتزويرات التي تصطنع لهم ، ويقتنعوا بالكاذيب التي تقدم لهم على أنها حقائق .. ثم تمنى أن يزول شبح الخطر الداهم على الحضارة ، ودعا الولايات المتحدة الى واجب الزود عن مدنية تدين لها بخير ما عندها .
هذه الصيحة القلقة على مصير الفكر المطلق ، لا بد أن يكون

لها صدى عميق في نفوس مفكرينا ومفكرى الشرق الباسع
لحضارة البحر الابيض .. ولئن كان صوت أقدام القوة الوحشية
وهي تسحق الأمم الحرة ، لم يزعج بعد رجال السياسة
المتنابذين ، فان نذير الدمار المسلط على شؤون الفكر والروح
كفيل أن يوحد جهود رجال الفكر ، وأن ينهضهم متساندين
للدفاع بأقلامهم وقلوبهم عن حضارة ساهم أسلافهم في وضع
أحجارها الاولى .

فالى اخوانى المفكرين والادباء أوجه هذا النداء وان العبرة
التي تستخلص من قيامهم الآن قومة رجل واحد ، وارتفاع
أصواتهم في صيحة واحدة ، قد يكون لها أعظم الأثر في توجيه
صفوف أخرى طالما انتظرتها البلاد .

أتأمل اليوم هذا الكلام وأقول لنفسي : يا لها من خدعة ! ..
كيف استطاع هؤلاء الحلفاء أن يدخلوا في روعنا هذه الاوهام ؟
كيف استطاعوا هم أن يرغمونا على أن نؤمن بالتزويرات التي
تصطنع لنا ، ويقنعونا بالأكاذيب التي تقدم لنا على أنها
حقائق .. عندما أعلنوا ميثاق الاطلنطي ، وصاحوا في كل مكان
ها تفتن : « عالم واحد وحرية أربع » ! ..

كيف استطاعوا أن يثيرونا على القوة الوحشية التي تسحق
الأمم الحرة ، فنصدقهم ونرتضى في أحضانهم كما ترتضى الحملان
في أفواه الذئاب .. ونفتح عيوننا في آخر الامر لنرى أن
لا قوة وحشية غير قوتهم ، وأن لا حرية لأمم صغيرة تنفذ من
مخيلهم .. ويتمزق لنا السنتر عن عصابة من قطاع الطرق
تلبس « الفراك » ، وجماعة من اللصوص تتكلم بلغة النبلاء ! ..
ثم كيف استطاعوا أن يصبغوا العالم بذلك اللون القاتم ،
ويخيفوا المفكرين على مصير الحضارة ، وينذروهم بالعودة الى
القرون الوسطى بفعل الخصوم ويوهموهم بأنهم هم حماة
المدنية ، وأنهم هم نبراس الحرية ، ويستنهضوهم للدفاع معهم
عن حقوق الانسان المهددة ، ويستنفروهم للجهاد واياهم في
هذه الحرب الانسانية المقدسة ! ..

فاذا جهادهم يتوج بمجزرة لم تر الانسانية أحط منها يوم
ألقوا القنبلة الذرية لبيدوا بها مدينتين آمنتين بأكملهما :

« هيروشيميا وناجازاكي » بسكانهما الوادعين المسلمين ! ..
وإذا هم ولا حقوق للانسان عندهم الا اذا كان ابيض اللون ،
أما السود فهم لديهم ميعدون محقرون منبوذون في أحيائهم
السوداء .. يعتبرون أمريكيين اسما ، ويخدمون أمريكا فعلا ،
ولا ينالون من حقوق الحرية والمساواة البشرية ما ينال غيرهم
من بقية السكان .. وإذا حرية الفكر .. الحد منها في ألمانيا
كارثة على الحضارة .. ولكن الحد منها في روسيا الحليفة ،
المنتصرة ، اجراء قومى ونظام داخلى لا شأن لاحد أن يشير اليه
بانتقاد أو يومى اليه بامتهان ! ..

يا لها من خدعة .. وقع في شراكها كل غيور على المدنية وكل
محب للفكر الحر ! ..

ولكن .. تلك مهارة الحلفاء ، وذلك سلاحهم الذى لا يقبل ..
انهم لا يحاربون قبل أن يصنعوا راية معنوية تخفى أغراضهم
الحقيقية ، راية خفاقة باسمى المبادئ يؤلبون تحتها كل نفس
متحمسة للمثل العليا .. لقد أشاعوا في الحرب الاوربية الاولى
أن خصمهم غليوم الثانى خارج على المسيحية ، وأنهم يحاربون
من أجل الدين ، ومن أجل الحق .. ولقد أذاعوا في هذه الحرب
الآخيرة أن خصمهم هتلر خارج على الحضارة .. وأنهم يحاربون
من أجل الحضارة ، ومن أجل القيم الانسانية العليا ..

ولكنهم فى الباطن كانوا يعلمون أنهم انما يحاربون من أجل
غرض لا علاقة له بقيم انسانية ، ولا صلة له بمثل عليا . غرض
هو الى الفرائز الحيوانية أقرب ، وبشرائع الغاب أوثق ..

الى متى يبقى الفكر العوبة فى يد القوة ؟ ..

والى متى يظل الفكر أداة دعابة فى يد السلطان ؟ ..

فى النظام الدكتاتورى يصدر الأمر الى الفكر فيطيع ..

وفى النظام الديموقراطى تنصب الخدعة للفكر فيقع ..

أول فبراير ١٩٤٧ ..



إلى ذى اللحية البيضاء..

إليك يا برنارد شو أوجه
الكلام . أنت يا من استطعت أن
تكشف بطرف قلمك العايب
ثوب الامبراطورية البريطانية
بحواشيه المذهبة ، لتظهر من
تحت حقيقتها المضحكة ! .. هنا
كانت قوتك وهنا كان سر
صفتك العالمية . لأن الناس في
بقاع الارض نسوا حافزك وسهوا
عن منبتك ، ولم يدركوا الا
أنك كاتب في الانجليزية سما
عن كل تحيز ، ليدفع ، الاعتداء



برنارد شو

إليك يا برنارد شو أوجه الكلام .. أنت يا من استطعت أن
تكشف بطرف قلمك العايب ثوب الامبراطورية البريطانية
بحواشيه المذهبة ، لتظهر من تحت حقيقتها المضحكة ! .. هنا
كانت قوتك وهنا كان سر صفتك العالمية .. لأن الناس في
بقاع الارض نسوا حافزك وسهوا عن منبتك ، ولم يدركوا الا

أنك كاتب فى الانجليزية سما عن كل تحيز ، ليدفع ، الاعتداء
عن العدالة ، ويحارب العدوان على الانسانية ، وان صدر من
دولته التى بلسانها ينطق وبلغتها يكتب .. مصر لم تنس
دفاعك عنها فى حادث دنشواى .. وان كنت فى ذلك الوقت
تعقد المقارنة بينها وبين « ايرلندا » .. وطنك المهضوم ..
ولكن ها أنت ذا منذ أن حلت مسألة ايرلندا تهادن الانجليز ،
فلا تسخر بهم الا السخرية التى ترفه عنهم ولا تنال منهم ..
ورضيت أن تلعب لهم وللدنيا دور « المهرج الذهنى » بدلا من
المفكر الانسانى ! ..

شده ما يحتاج العالم اليك اليوم ، لتصف صورة الامبراطورية
التي يختال بها الانجليز .. وقد أصبحت كالضياع الباهظة
النفقة ، تتكلف لامتلاكها وادارتها وصيانتها أكثر مواردها ،
وصاحبها الانجليزى بذلك راض مزهو فخور .. يلبس فى كل
مساء رداء السهرة الاسود ، بقميصه المنشى الابيض ، ويجلس
الى مائدة ، فى قاعاتها الحالية من القوود ، مرتعشا من البرد ،
محاطا بتجلة الخدم والحشم فى ثيابهم الرسمية وأوضاعهم
التقليدية ، ويتعشى « ببطاطسة » مسلوقة فى طبق وماء قراح
فى كأس .. ثم ينهض وهو يتضور جوعا بين مظاهر التكريم
ومراسيم التعظيم !! ..

هذا شأن الانجليز ، انهم يحبون « السيطرة » الى حد الجوع
فى سبيلها .. ويعشقون « الامبراطورية » عشق روميو
لجولييت .. يخيل اليهم أنها يوم تموت يموتون .. لعل
شكسبير وضع هذه « المأساة » قصة رمزية عن الانجليز
والامبراطورية ! ولكن الحثام لم يحن بعد .. ولعله يأتى قريبا
ليربح العاشقين ويربح منهما الدنيا ..

بل انهم مثل كل محب .. يرعى حياة الحب ولو فى غيره ..
فيعيثونه على تسلق السلم الى شرفة مطعمة ، اذا وجد فى ذراعيه
خورا وفى ساقيه ضعفا .. فهم يضعون هولندا الصغيرة الحائرة
على ظهر أندونيسيا الكبيرة الصابرة ، كالقراد الذى يضع
النسنانس الطليق بطرطوره وجلجله فوق متن الحمار المقيّد
بليجامة وزمامه ! ..

كل ذلك تراه أنت اليوم يا برنارد شو ولا تتكلم ولا تضحك !

أترى التسعين عاما التى بلغتها قد غيرت مزاجك ، فلم يعد
يضحكك منظر الانجليز بما فطروا عليه من غباء معجون
بالكبرياء ! ..

أم أن تسعين عاما فى مشاهدة هذا المنظر الواحد قد زهدتك
فى الالتفات اليه ! .. فلك العذر اذا زعمت أن الانجليز عندك
لم يعودوا يصلحون حتى لمجرد الهزء بهم ! ..

مهما يكن الأمر فأنت لا ريب تدرك فى قرارة نفسك أن هذه
العجينة الانجليزية هى دائما « خميرة » الشقاق فى العالم
والشجار بين البشر .. منها يصنع خبز الشر الذى يسمم
النفوس ، فتجحد العدالة والمساواة بين الامم ، وتوقع الفرقة
والنفرة فى أسرة الانسانية ..

فيم اذن سكوتك عن الانجليز أيها المعمر الثرثار ؟ .. انك
لم تزل تملأ الدنيا كلاما .. ولكنه كلام فى الهواء ، كأنه دخان
سيجار ذلك المهرج الآخر .. فعلى مسرح انجلترا اليوم ممثلان
يجيدان الصخب والهذيان .. أحدهما يرتدى ثوب رجل الفكر
والثاني ثوب رجل السياسة ! ..

وكانهما الآن متفاهمان أو متآمران ! كلما مس الأمر عظمة
الامبراطورية ! ..

ما فائدة العمر الطويل ! .. كنت أحسب المعمر انسانا
انسلخ من قيود العصر والجنس ، وخرج من جاذبية الارض
والدم ، وانفلت من حلقات الاجيال المحدودة ، ليلحق بغباء
الزمن الأكبر ، ويشرف من قمة أعوامه الكثيرة ، على البشرية
وقد ضنولت حدودها فى نظره ، وتكتلت فى عينه ، وأمسدت
أسرة واحدة ! ..

يا صاحب اللحية البيضاء ! .. ارتفع عن أرض الانجليز ،
وارسل لحيتك مع الرياح ، وصوتك مع الرعد ، وفكرك مع نور
الشمس ، واغمر بوجودك العالم كله ، بسوده وبيضه ، كأنك
من عناصر الطبيعة الخيرة الرحيمة ، التى لا تهادن ولا تتواطأ ،
ولا تفرق ولا تميز بين شعب وشعب ، وهى تنشر برها وتمطر
بركاتها ..

٢٢ فبراير ١٩٤٧ ..

إنف التحدى

أتحدى بريطانيا العظمى أن تقدم على حرب عالمية أخرى وهمي غير مستندة الى صداقة مصر .

غدا يقول التاريخ ان السبب الاكبر فى انتصار بريطانيا فى الحرب الماضية يرجع الى معاهدة ١٩٣٦ . واذا كان لهذه المعاهدة عيد وذكرى واحتفال فيجب أن يقام ذلك كله فى لندن لا فى القاهرة .

لقد أثبتت مصر أنها أمة شريفة المبدأ كريمة العنصر طاهرة الضمير . تعرف كيف تحترم كلمتها ، وتحفظ عهدها وتصون امضاءها ، فمرت أمامها الاحداث ورأت بريطانيا بجوارها تخر على الاقدام ، تنزف من جراح قتاله ، وتتلقى الضربات الاخيرة التى تقصم الظهور ، ثم شاهدها تلم شُغَتْ متاعها ، وتجمع فلول رجالها وتراجع أمام العدو وقرب الاسكندرية ، مترنحة مذهولة ، لاهثة يائسة ، صوت مخرج لا تدرى أتلقاء أم لاتلقاء ، ومصير لا تعرف أهو الاسر أم القبر . . . كل ذلك ومصر معها بكل معونة ومؤونة ، دون تبرم أو تنمر ، ودون كلمة من أو تمرد أو معايرة أو معاقبة ، كذلك الذى وقع بين جنودها من

الانجليز وجنود المارشال سمطس الذى يحتج اليوم على الجلاء باسم الامبراطورية ويتبجح ! ..

قامت مصر بهدوء ورباطة جأش تعين وتنقذ وتؤازر لانها لا تنطوى على غدر .. ولانها تؤمن بأن صك الصداقة ليس قصاصة ورق ، بل وثيقة شرف تحمل توقيعها - هى الامة الصغيرة الضعيفة - فلا بد من الوفاء للحليف حتى ان أوردتها معه هذه المحالفة المضاة موارد الخوف .. تلك هى مصر .. ليست نهضة للفرض الدينية ، ولا طعانة من الحلف فى الظهر المكشوف ..

ترى ماذا كان يحدث لو أن مصر كانت طليقة من كل قيد . حرة من كل تحالف أو تعاهد أو توقيع .. وأن مركز بريطانيا فيها خلال حربها الضروس مركز المحتل الغاصب بغير سند شرعى .. وكانت مصر تسمع وتعلم بما يجرى فى بلاد وقع عليها اغتصاب غير شرعى مماثل كفرنسا وتشيكوسلوفاكيا والنرويج .. وما نظمه أهالى تلك البلاد الابطال من حركات المقاومة السرية التى نهضت لعرقلة حركات المحتل ونسف عتاده وقطع مواصلاته وحرق مؤنه والاخلال بأمنه والعبت بمصانعه ومرافقه ؟ ..

ماذا كان يحدث لو أن مصر - شعبا وحكومة - رأت نفسها فى حل من أن تفعل مثلما فعلت بلاد أوروبا المحتلة ، ولا رباط صداقة أو معاهدة أو مخالفة يكتف ذراعيها ويغل يديها ، فقامت قومة رجل واحد وانقضت على بريطانيا المحتضرة فى العلمين ، فحطمت مواصلاتها ونسفت عتادها وحرقت مؤنها وأشاعت فى صفوفها المبعثرة أشنع الفوضى وأناخت ظهرها المنحنى بأفطع المتاعب وأثقل الاعباء ؟ ! ..

أكان يقدر عندئذ لبريطانيا النصر ؟ .. ان العلمين كما تعلم الدنيا اليوم كانت نقطة التحول .. ولو كسرت بريطانيا يومئذ لما قامت بعدئذ لها قائمة ! .. وكان هذا الانكسار من أيسر الامور ، لقد كان معلقا بأصبع مصر .. لو لم تكن مصر مطبقة على ورقة صداقة وحلف وصدرها مغلق على شرف وضيمير ! من أجل هذا أقول ان صداقة مصر ألزم لانجلترا من صداقة المارشال سمطس وجنوده ! ..

ومن أجل هذا أتحدى بريطانيا أن تقدم على حرب قبل أن
تكتف يد مصر بمعاهدة صداقة ..

صداقة مصر لبريطانيا ضرورة حربية حالة .. ولكن صداقة
بريطانيا لمصر ليست أكثر من اجراء مرغوب فيه ..

نحن نستطيع الانتظار بغير قلق ، ما دامت في نفوسنا
وطنية وفي قلوبنا ايمان .. أما الانجليز فكلما لاح شبح الحرب
اهتزوا قلقا وفرقا .. لانهم يعرفون ان مصر الطليقة من قيود
المعاهدات والصداقات أخطر عليهم في الشرق الاوسط من أمة
أوربية مدججة بالسلاح .. وأنهم يدركون ما نستطيع أن نصنع
في فترة اليأس من المفاوضات والمحالقات .. از لم يكن لدينا
سلاح غير الانكباب على دراسة حركات « المقاومة السرية »
ونظمها وأساليبها التي أدت الى تحرير فرنسا وغيرها ..
وايقاد البعث الى رؤساء هذه الحركات يققهونها في خير الطرق
والوسائل .. لكفى بهذا سلاحا نتربص به لبريطانيا في أيامها
السود ! لقد علمتنا الحرب الاخيرة ان الامم الغزلاء لها سلاحها
الفتاك وقوتها غير المنظورة .. أيها الشعب المصري ! أنت
صاحب حق .. ولكن اياك أن تطالب بحقق مطالبة الشحاذ .. أنت
لوح بشيء من القوة .. ان الحق العارى من القوة شحاذ
يستجدى ! ..

وأنت أيها المفاوض المصري ،
اطمئن واهدأ نفسا وكن رابط
الجأش شجاعا ، واعلم ان
« بيقن » ليس مغفلا .. وحتى
« تشرشل » ليس مغفلا .. كل
ساسنة بريطانيا يعلمون علم
اليقين أن صداقة مصر المكتوبة
المضاة ، هي خط الدفاع الاول
عن بريطانيا العظمى ! ..



١١ سبتمبر ١٩٤٦ ..

هل ذهبت الروح ؟

.. أمة أتت في فجر الانسانية بمعجزة « الهرم » لن تعجز
عن الاتيان بمعجزة أخرى .. أو معجزات ! .. أمة يزعمون أنها
ميتة منذ قرون .. ولا يرون قلبها العظيم بارزا نحو السماء من
بين رمال الجيزة ! .. لقد صنعت مصر قلبها بيدها ليعيش
الأبد ! ..

... ما غابت شمس ذلك النهار ، حتى أمست مصر كتلة
من نار .. وإذا أربعة عشر مليوناً من الانفس لا تفكر الا في
شيء واحد ! ..

الرجل الذي يعبر عن احساسها .. والذي نهض يطالب
بحقها في الحرية والحياة ، قد أخذ وسجن ونفى في جزيرة وسط
البحار ..

« وانقلبت القاهرة رأساً على عقب .. فأغلقت الحوانيت
والمقاهي والبيوت وقطعت المواصلات وعمت المظاهرات .. وقام
نفس الهياج في جميع أرجاء الاقاليم والارياف .. وان الفلاحين
لاشد من أهل المدن في اظهار احتجاجهم وغضبهم .. فلقد

قطعوا الخطوط الحديدية ، ليمنعوا وصول القطرات المسلحة ، وأحرقوا دور البوليس .. ان كل فئة وطائفة كانت تحسب نفسها البادئة بالقيام .. الشاعرة بالعاطفة الملتهبة الجديدة ، ولم يفهم أحد اذ ذاك ان هذه العاطفة انفجرت في قلوبهم جميعا في لحظة واحدة ، لانهم كلهم أبناء مصر لهم قلب واحد .. »

« .. ان هذا الشعب الذى نحسبه جاهلا ، يعلم أشياء كثيرة .. ولكنه يعلمها بقلبه لا بعقله ، ان الحكمة العليا فى دمه ولا يعلم ، والقوة فى نفسه ولا يعلم .. هذا شعب قديم .. جئ بفلاح من هؤلاء واخرج قلبه ، تجد فيه رواشب عشرة آلاف سنة ، من تجاريب ومعرفة رسب بعضها فوق بعض ، وهو لا يدري .. نعم ، هو يجهل ذلك ، ولكن هناك لحظات حرجة تخرج فيها هذه المعرفة وهذه التجاريب ، فتسفعه ، وهو لا يعلم من أين جاءته ؟! .. هذا يفسر لنا .. تلك اللحظات من التاريخ التى ترى فيها مصر تطفر طفرة مدهشة فى قليل من الوقت ، وتأتى بالا عاجيب فى طرفة عين ؟ .. كيف تستطيع ذلك ان لم تكن هى تجاريب الماضى الابدية ، قد صارت فى نفسها مصر الغريزة »

رجعت الى هذه الاسطر من « عودة الروح » لا ذكر نفسى بشعورى فى ذلك العهد ، لقد مضت ثلاثون سنة على حوادث الثورة .. رأينا خلالها من المظاهرات والاضطرابات والاضرابات .. ولكن شتان بين ما حدث فى الماضى ، وما يحدث اليوم ! فى عام ١٩١٩ لم تكن هنالك منظمات ولا هيئات ولا أحزاب .. ترتب وتهىء وتحرض وتدفع .. ولكنها بقطة مفاجئة ، وانفجار خاطف ، انطلق من جوف مصر كلها فى وقت واحد لا يدري أحد من محرره ؟ ذلك أنه لم يكن له محرك غير ضمير الوطن وحده . انفجار لم يذهل الانجليز وحدهم ومن خلفهم العدو كله .. بل أذهل زعماء مصر أنفسهم .. وعندما بلغ سعد زغلول ، وهو لم يزل فى المنفى ، خبر وثبة مصر لم يصدق ما سمع .. وعندما عاد ورأى بعينيه مصر كلها شعلة تتوهج ، بهر الضوء بصره ، ثم جعل يتفرس فيما حوله .. وكأنه يسائل نفسه :

أعذا حقا بلده الذى تركه منذ قليل ، أم هو بلد آخر ، ليس له به عهدا .. ما كان أحد منا يدرك وقتئذ مدى القوة فى داخل نفوسنا ! .. كان ذلك منذ ثلاثين سنة .. أما اليوم فهناك من يتساءل : هل احتفظنا بتلك الروح ؟ .. أو انها ذهبت كما يذهب الريح ؟ .

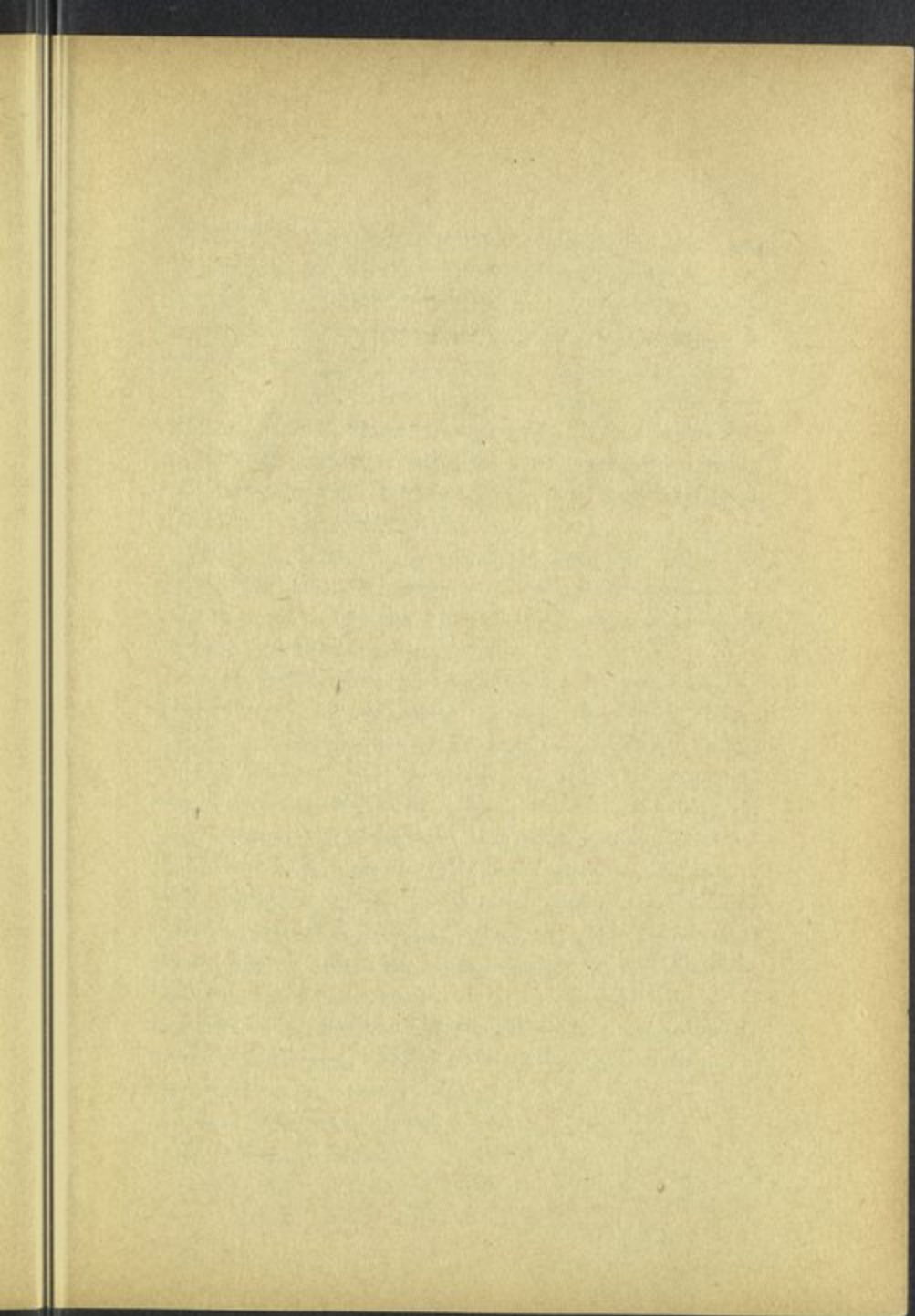
كثير ممن عاصروا الثورة القديمة ، يهزون رؤوسهم أسفا ويقولون : أعجوبة ظهرت مرة ولن تعود .. أما الشباب الذى لم يعاصر تلك الثورة فيسمع ذلك ويهز رأسه عجباً ويقول : نحن اليوم أيضا نشور ونضرب ونتظاهر ونخرب .. فما الفرق بين ثورتنا وثورة السابقين ؟ ! .

الفرق فى رأى هو أن كل طائفة اليوم لها ثورتها .. شباب الجامعة يثورون لما يهمهم .. والعمال يثورون لمطالبهم .. والموظفون يثورون لمصالحهم .. ثورات كثيرة حقا . لكنها مختلفة المهدف .. متعددة الاسباب ! ..

لم تعد الثورة تنفجر من قلب واحد .. فى وقت واحد .. لقصد واحد .. ولكنها تنفجر من قلوب عدة .. فى أوقات متفرقة .. واتجاهات متباينة .. روح مصر الحقيقية لم تذهب .. ولن تخمد .. هذا ايمانى الذى لن يزول .. ومنذ بدت هذه الروح لعينى عام ١٩١٩ تملكتنى عقيدة أن هذا الذى أرى ليس شيئا جديدا ولا طارئا .. انما هو شيء موجود دائما .. باق أبدا .. ولكن روح مصر تنام أحيانا عندما ينسأها أهلها ، فلا يوقظونها .. وتنبذ أحيانا عندما يختلس منها أبناءؤها أقياسا ، ينفقونها فى شتى الأغراض .. وتحار أحيانا عندما يتعدد الزعماء ، فيقودونها كل فى طريق .. ومضى تظل هكذا فى نومها أو بددها أو حيرتها .. الى أن يتيح لها القدر ، بين فترة وفترة ، من الظروف والرجال والاحداث .. ما يدفعها الى وحدة الغاية والسبيل والقيادة .. عند ذلك يرى العالم العجب .. ويصيح الناس .. ويهمس التاريخ :

أنظروا لقد تكررت المعجزة ، وعادت الروح ! ..

١٣ نوفمبر ١٩٤٨ ..



هذه هي المدرسة الشعبية

النظام ، الديمقراطية ، الوطنية ، صفات رأيتها مطبوعة لا في لوحة داخل اطار تزين الجدار .. بل في أعمال طبيب سويسرى للاسنان ، دخلت عيادته ، وهو رجل مشهور في مهنته .. مرتفع الاجر .. كثير الزوار ، لا يظفر طالبه بموعد قبل اسبوع أو عشرة أيام .. فما وجدت في بهوه غير ممرضة .. وما أبصرت في قاعة انتظاره أحدا ينتظر .. أين زبائن هذا الطبيب ؟ .. انهم يأتون في مواعيد محددة ، ومن تخلف الفى ميعاده ، وكى يأتى فيجد سلفه في حجرة العلاج ، حتى يخرج فيحل محله .. وهكذا دواليك .. قلما جمعت قاعة الانتظار زائرين .. هذا هو النظام .. وان من بين زبائن الطبيب وزراء وسفراء وأصحاب ملايين فما استطاع واحد منهم أن يمتاز بلحظة أو لفته أو اشارة أو تحية على الآخرين .. هذه هي الديمقراطية .. وأدهشنى ما رأيت في قاعة الانتظار من صحف مصور ومجلات ملونة كلها دعاية للسياحة في سويسرا « وطنه » تظهر روعة مشاتها في الجبال والسهول المغطاة بالجليد ، ومحاسن مصايفها في المروج والاعالى المكسوة بالسندس الاخضر .. هذه هي الوطنية ..

حدثت الرجل فيما لاحظت عليه من هذه الصفات الثلاث ..

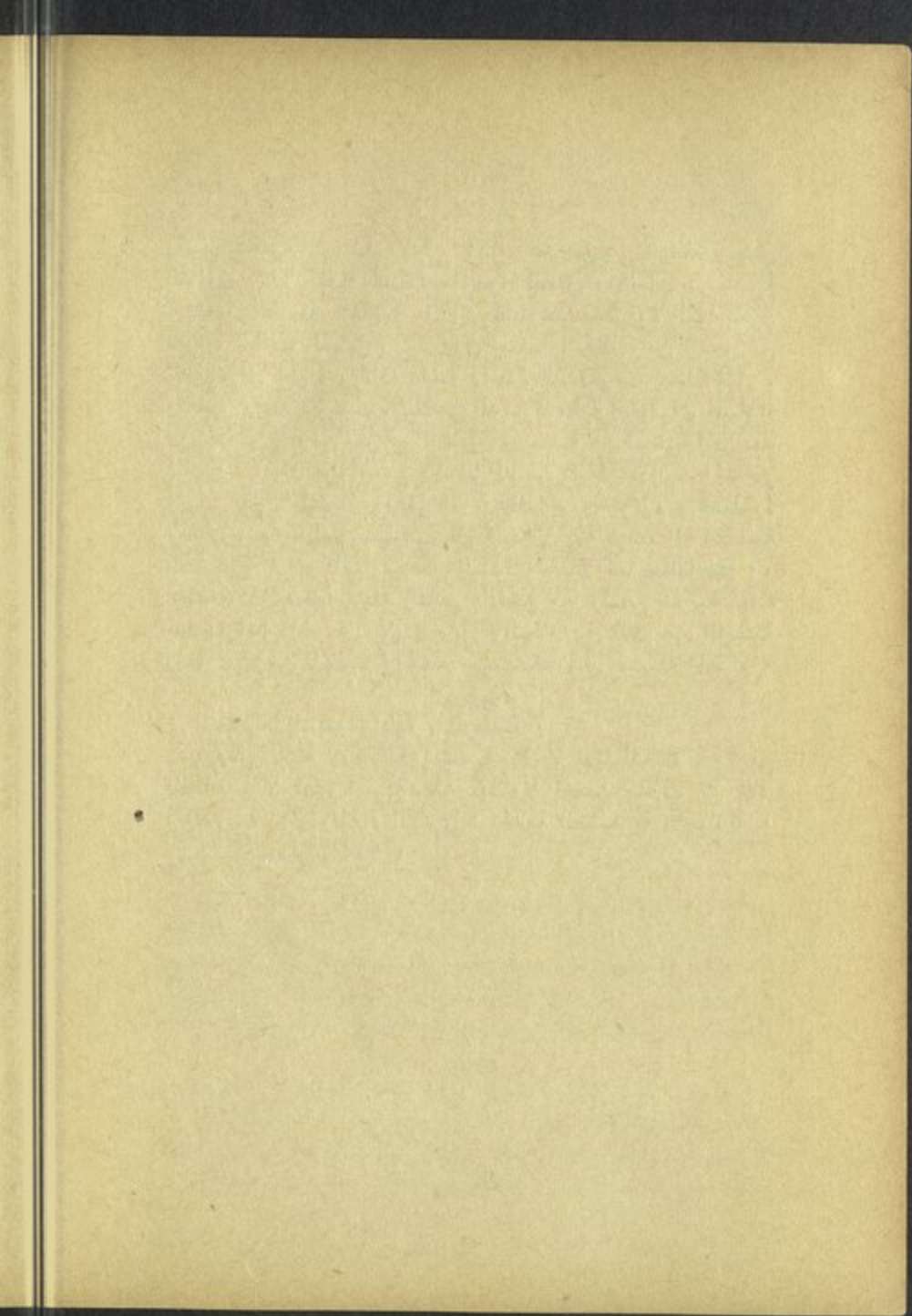
فقال بعد تأمل .. وكأنه لم يفتن الى ما عنده من مزايا :
 - أعتقد أن هذا راجع الى ما تلقيناه من تربية فى منشأ
 حياتنا ، وأعمق هذه التربية أثرا فى نفس شعبنا : الخدمة
 العسكرية الاجبارية ، ففى سويسرا يفرض على كل مواطن ،
 مهما يكن علمه أو أسرته أو ثروته ، أن يؤدى الخدمة العسكرية
 الاجبارية .. وهى أحيانا قد لا تتجاوز ثلاثة أشهر للفرد
 الواحد ، ولكن تصور الفائدة التى يجنيها كل فرد من الامة بعد
 هذه الشهور الثلاثة .. انه سيتعلم النظام والخضوع للقوانين ،
 والطاعة للمصالح العام .. وسيعرف الديمقراطية الصحيحة .
 لأن ابن الوزير يزايل ابن الحفير .. وابن الطبقات الموسرة
 يؤاكل ابن الطبقات الفقيرة .. وسيؤمن بالوطنية لان المدافع عن
 الوطن ليس فئة من الشعب ولا طائفة من الامة .. ولكن الجميع
 توضع على اكتافهم البندقية بلا استثناء ..

سمعت هذا الكلام من ذلك السويسرى ، وقلت فى نفسى :
 - حقا تلك هى المدرسة الشعبية التى تنقصنا « الجامعة
 العسكرية الاجبارية » للجميع بغير استثناء .
 وتخللت الشعب المصرى كله أو على الأصح جيله الجديد من
 الرجال ، يصهر فى ذلك « المصنع الانسانى » الضخم ! ..
 يدخل بابه جيل هزيل نشأ على العبودية والفوضى ، لا يعرف
 احترام النظام ولا استعمال السلاح ، لم يفهم من الديمقراطية
 غير صندوق الانتخاب يشتري الاغنياء أصواته ببضع ولائم
 وبضعة دراهم ، ولا يدرك من الوطنية سوى كلمات وعبارات
 وعتافات ، ولا من المواطن المدافع غير تلك الطبقة الجاهلة المدممة
 المحرومة المنكوبة تؤخذ للفرز العسكرى دون الناعمين
 والمحظوظين ، كما يفرز الاشقياء من السعداء ، تشيعهم ولولة
 النساء ونحيب ذوى القربى ورثاء المشفقين من الاخوان والزملاء .

تصورت هذا الجيل بأغنيائه وفقرائه .. بوجهائه وخفرائه ،
 بمتعلميه وجهلائه ، يلقي كله فى صهريج « الخدمة العسكرية
 الاجبارية » ليخرج بعد ذلك ، وقد عرف كل فرد فيه كيف
 يطلق بندقيته ، وكيف يستيقظ فى الفجر عند صوت النفير ..

وكيف يحترم المواعيد ويلبى النداء ويحرص على النظام ويطبق القانون ، ثم كيف يستمتع بالهواء الطلق والأنعاب الرياضية وينعم بالصحة البدنية .. ويخشوشن مترفوه فيقاسمون فقراءه شمظف العيش ويتساوون جميعا ، لحظات من الدهر فى النظرة الى الحياة ، فاذا عقلية واحدة قد تكونت لهذا الجيل ، وشعور واحد قد نبت ، تلك هى الديمقراطية الحقيقية ، مساواة فى المسئولية وتجانس فى الشعور والعقلية .. ثم شيء آخر بعد ذلك .. ايمان من الجميع بأن الزائد عن الوطن اذا جد الجد هو الجيل كله : أغنياؤه وفقراؤه ، عظماءه وحقراؤه ، متعلموه وجهلاؤه .. كلهم سيذهب الى الميدان كما ذهب الى الخدمة العسكرية .. وكلهم سيحمل البندقية هناك كما حملها هنا .. الجندي اذن مجد يقابله الناس بالفخر .. وليس ضريبة شقلاء يدفعها أهل الحرمان بين العويل والبكاء .. تلك هى الوطنية الحققة : الوطن للجميع والجميع سيمتشقون فى سبيله الحسام .

النظام ، الديمقراطية ، الوطنية .
دروس ثلاثة لازمة لكل شعب راق ، تهيأ للحياة ، وتربى للكفاح ، لا أوى أسرع ملقن لها ولا أضمن مدرب من تلك .
* « المدرسة الانسانية » الكبرى : الخدمة العسكرية الاجبارية .
٢٨ ديسمبر ١٩٤٦ ..



أنشودة الأغنياء ..

كنت ذات يوم فى حانوت حلاقة .. فقال لى العامل الذى
يخلق لى :

- أنظر الى أصبع يدي التى بها أرتزق .. بها وجع يقتضى
جراحة .. ومواردى لا تسعفنى بأجر العلاج .. ولئى أطفال فى
المدارس أنفق عليهم .. ماذا أفعل ؟ وبأى عقل أعمل ؟ ..
وكان بجوار هذا المسكين زميل أجنبى ، يبدو عليه النشاط
والبشر والمرح .. فقلت لحلاقى :

- زميلك الاجنبى هذا ، أهو يتقاضى مثلك أو أكثر منك ؟
فقال :

- يتقاضى مثلى عين الأجر .. ولكن هناك فرقا شاسعا بينى
وبينه .. ان الجالية الاجنبية التى ينتمى اليها هذا العامل
الاجنبى نظمت شئون طبقاتها العاملة والفقيرة .. فهل تصدق
أن زميلى هذا يرسل كل أولاده الى مدارس الجالية بالمجان .
ويعالج هو وكل أسرته فى مستشفياتها بالمجان .. ويستطيع
أن يحصل على الكثير من مطالب العيش وضرورات الحياة بالمجان .
كل هذه المزايا التى يتمتع بها تجعله فى مستوى أرقى بكثير من
مستوى زميل مصرى مثلى يعيش فى وطنه وأهله وحكومته

وأتمته .. لأن أجره قد تضاعف بتلك المساعدات التي تقدمها له بالمجان أتمته . وأجرى قد تضاعف بتلك الاعباء التي يفرضها على اعمال أتمتي . نحن العمال المصريين قد لا تهمننا زيادة في الاجور بقدر ما تهمننا زيادة في المزايا والمساعدات التي تخفف عن كواهلنا بعض النفقات .

فهزت رأسي ولزمت الصمت .. ولكني جعلت منذ ذلك اليوم أفكر في مصير هذه الطبقات العاملة ، وأفكر في واجبات هذه الطبقات الحاكمة .

انهم يتحدثون كثيرا عن محاربة الفقر والجهل والمرض ، ويعتمدون لهذه الحرب الملايين ، ويرسمون لها الخطط .. ولكن أكثر الناس لا يشعرون أن الأمر جد .. فما أكثر البرامج التي تقرر في الورق ، وما أكثر الارقام التي ترصد في الميزانيات ، ولم يزل الفقير تفرض عليه باهظ الاعباء ، شأنه شأن الغني سواء بسواء اذا أراد مقاومة الجهل أو مواجهة المرض ! ..

للشعب المصري حاسة خفية اكتسبها من قدمه في الزمن وعراقته في التجارب . شعوره صادق في أغلب الاحيان ، وقتما يخطئ احساسه مهما دوت في حوله دقات الطبول .. فهو لم يقابل الصيحة الرسمية بمحاربة الفقر والجهل والمرض الا بهدوء العارف بخفايا النفوس .. ولعله تتم في السر : (كلام الحكام مدهون بزبدته ، اذا طلع عليه نهيار » الواقع والحقيقة « ذاب » ! ..

وكيف تريد من الناس أن تصدق وهم يسمعون خطبا ولا يرون ذمبا .. يرون أصحاب الاموال يخرجون السنتهم بالكلام ولا يخرجون « محافظتهم » بالنقود ؟ .

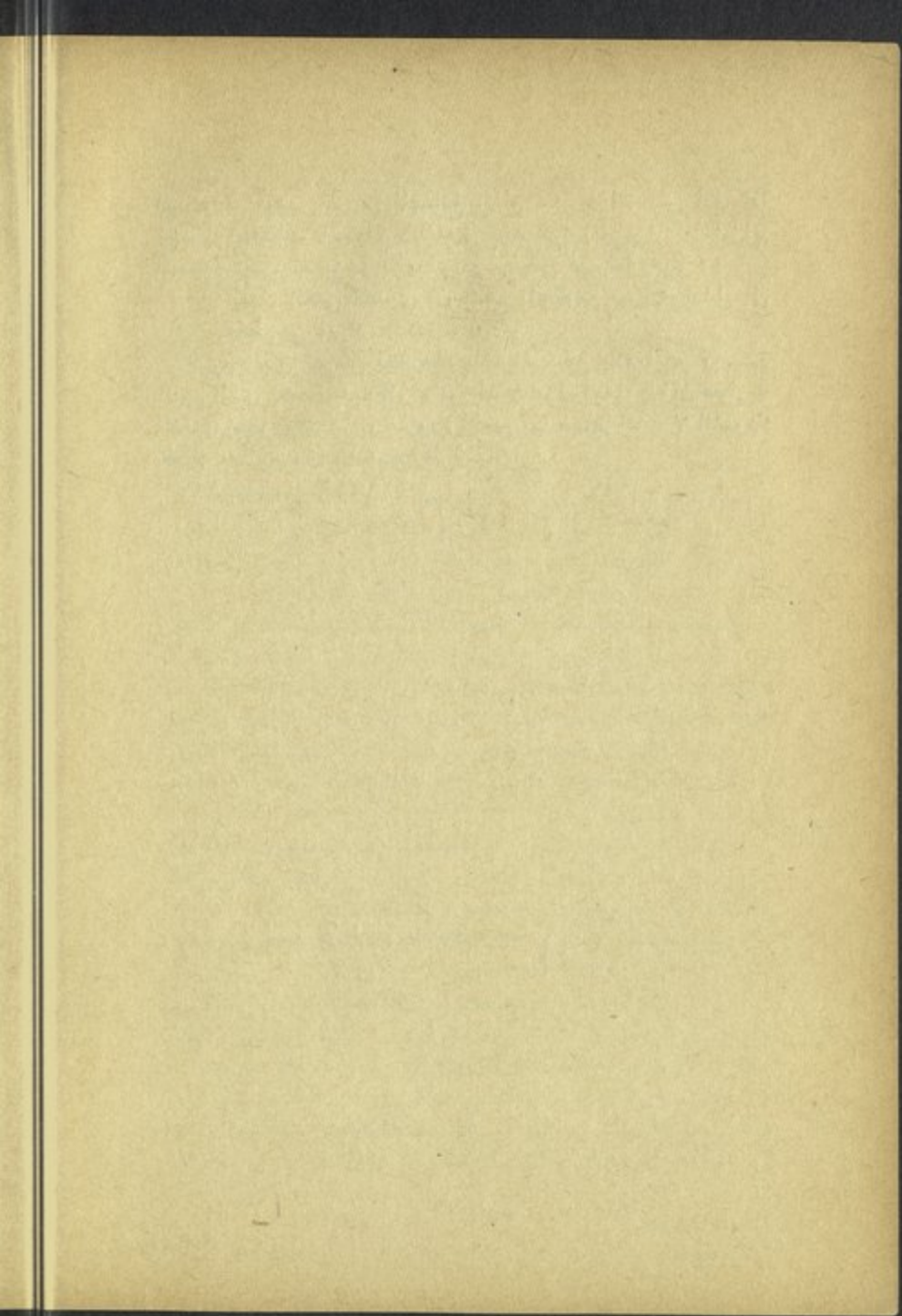
هل يوجد في بلد من بلاد العالم اليوم أغنياء يدفعون ضرائب بالضالة التي يدفعها أغنياء مصر ؟ ..

أرسل الى أخيرا ناشر انجليزى دفعة من حساب كتاب لي مترجم في انجلترا .. ففرحت بالمبلغ . فلما وصلني وجدت الحكومة الانجليزية قد استولت على أكثر من نصفه ضريبة .. فسخطت أول الامر .. ولكني لم البث أن تذكرت أن الامر غرض على الجميع .. وأن من الاغنياء هناك من يقبضون واحدا في المائة من ايرادهم وتستولى الحكومة على الـ ٩٦ ٪ .. انها

المصادرة بعينها تفرض للصالح العام .. فلا ندهش اذن اذا
وجدنا الطبقات العاملة والفقيرة تجد في انجلترا كل المزايا
المجانية التي تشعرها بأنها عضو حقيقي في أمة حية ..
هل يقبل الغنى المصرى أن يدفع للحكومة ضريبة تصل الى
٥٠ ٪ فقط من ايراده الكبير ؟ ..

اليوم الذى تفرض فيه هذه الضرائب فى بلادنا هو وحده
اليوم الذى تصدق فيه أن الامر جد لا هزل فيه .. وأن محاربة
الفقر والجهل والمرض ، ضرورة أوحى بها ضمير أمة ، لا أنشودة
تعفكك بها أشداق الاغنياء والرؤساء ! ..

٢١ سبتمبر ١٩٤٦ ..





إذهب بغير ذهب

رقد النبي على فراش الموت ، وطفق ينظر الى ابنته فاطمة وهي تبكي على مقربة منه ، بغير صوت .. فتحامل على نفسه ثم همس :

- لا تبكي يا بنية ! .. قولي انا لله وانا اليه راجعون ، فان لكل انسان بها من كل مصيبة معوضة .

- ومنك يا رسول الله ؟ ..

قالتها فاطمة وهي تكفكف دمعها .. فأجاب النبي :

- ومنى ..

وكانت زوجة النبي عائشة تراقبه ، جامدة العبرة ، شاحبة الوجه ، مكلومة الفؤاد .. فقالت لفاطمة هامسة :

- انه يوعك من الحمى ! ..

وفجأة نهض النبي قليلا وقال لزوجته :

- يا عائشة ! .. ما فعلت بذلك الذهب ؟ ..

- أى ذهب ؟ ..

- الدنانير الستة التى عندى ..

- هى عندى ..

لفظتها عائشة ، وقد خالجهما بعض الدهش لاهتمام النبي
بهذا المال ، وهو على تلك الحال من الكرب والشدة .. ولكن
النبي يادر يقول :

— ما ظن محمد بربه أن لو لقي الله وهذه عنده ! .. انفقها
كلها صدقة .. ان النبي لا يورث ! ..
فعاهدته عائشة قائلة :
— سأنفقها ..

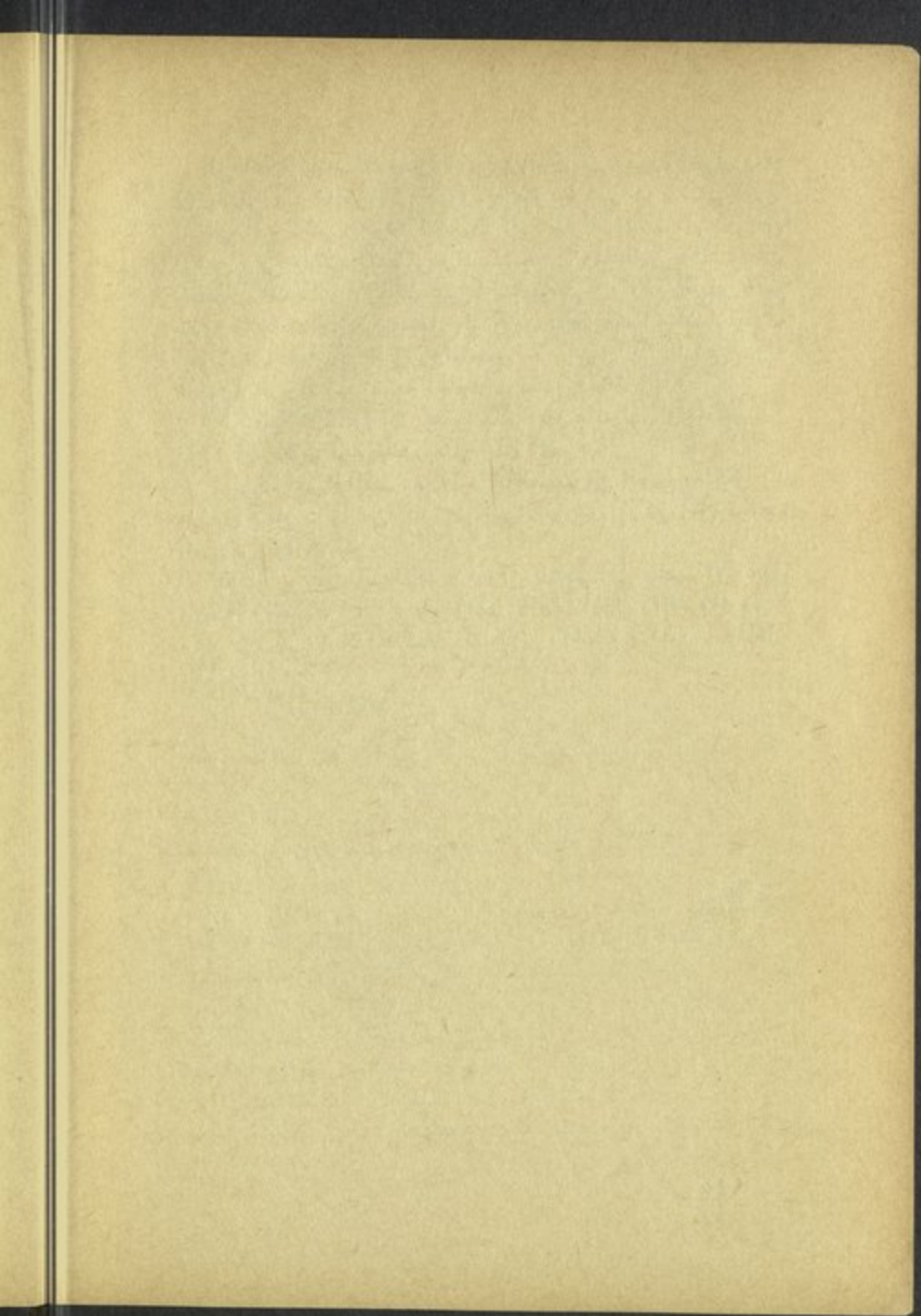
عندئذ بدت الراحة في وجه النبي .. ورقد وهو يهمس :
اللهم توفني فقيرا ، ولا توفني غنيا ، واحشرنى في زمرة
المساكين ! .. الآن استرحمت ! ..

وقليل من البشر من يريد أن يستريح وهو على فراش
الموت ! لأن الايمان لا يحكم النفوس .. ولكن شيطان الغرور !
يتجرد الانسان من روحه ولا يتجرد من ذهبه .. لا يؤمن حقا
بأنه سيلقى الله ، بل سيلقى ورثة أنبيئهم مشيئته من أعماق
القبور ! .. ما من مخلوق يريد أن يترك الدنيا خالقهها يوم
يذهب .. ولكننا نريد قبل أن نذهب لنلقى الخالق ، أن نفرض
عليه ارادتنا مكتوبة مسجلة ، لتنفذ في الارض والناس من
بعدنا ! .. يا لصبر الله علينا وعلى جبروتنا ! ..

ولكن الله يعرف كيف يسخر من مشيئتنا وخيلنا ..
ويهبأ بذلك الحلف الذي اعتقدنا أننا حصناه ضد الفقر والمسغبة ،
وأمناء من العوز والحاجة .. وعلى قدر المال الذي ترك له تكون
اللطفة التي تصيبه من السماء ! ..

أيها الاغنياء لا تسرفوا في الحياء ، رحمة بأبنائكم .. اتركوا
لهم قدرا بسيطا يعينهم على الكد في الحياة ، ولا يقعدهم عن
السعي والاجتهاد .. ورثوهم قسطا صغيرا يدعم فيهم الشخصية
ولا يهدم فيهم الهمة .. أما الفضل والبقية .. فاجعلوها من
حق الناس في أرض الله .. حتى تستطيعوا أن تقولوا لله يوم
تلقونه : « تركنا لك ملكك تصرفه بمشيئتك أنت تعاليت ! ..
وانا لنؤمن بك وبرحمتك ، فارغ بعنايتك أبناءنا فيمن ترعاهم
من عبادكم ! .. »

كل أغنياء الامم المتحضرة قالوا ذلك لله في صورة أخرى دون
أن يشعروا : قالوها في صورة « ضريبة الميراث » التي تجرد
المتوفى من أكثر ثروته لتضمها الى الدولة تنفقها في مرافق
الناس وفي انشاء المساكن والمستشفيات والمدارس والمتنزهات
للطبقات الفقيرة .. لذلك عني الله بأمرهم .. وغير ما بهم لانهم
غيروا ما بأنفسهم .. فجعل من الابن رجلا مجدا مناضلا يفوق
أباه فيما بلغه من الفوز والنجاح .. وجعل من الناس دولة
موفورة الرخاء ، مرهوبة الجانب مرفوعة المكان ؟ ..
أما أغنياؤنا فأبوا أن يؤمنوا بالله ، أو بأبنائهم أو بأمتهم ..
فأبوا أن يكون في بلدهم مثل هذه الضريبة
لا يريد أغنياؤنا أن يغيروا ما بأنفسهم من العمى والكفر ..
ماضين بكل دائق من كنوزهم الى القبور ، تاركين كل تراثهم
العريض لوارث مغرور .
لذلك لن يغير الله ما بهم .. ولن يصيب على خلفهم الا الحمق
والغباء والفساد ! .. وعلى قومهم الا هذا الجهل والفقر والمرض !
وعلى دولتهم الا هذا الكيان العليل ، والجناح الكسير ، والمكان
الذليل ! ..
٢٨ فبراير ١٩٤٨ ..



أصحاب على البطون

جاء في كتاب « تيسير الوصول » للشيباني هذه الاحاديث :
 قالت عائشة زوجة النبي :

« كان يأتي علينا الشهر ما نوقد فيه نارا ! .. الخ .. »
 « ما أكل آل محمد أكلتين في يوم واحد الا احدهما تمر ! »
 وقال ابن عباس :

« كان رسول الله يبيت الليالي المتتابعة واهله طاويا ، لا يجدون
 عشاء وكان أكثر خبزهم الشعير ! » .
 وقال عمر :

« لقد رأيت رسول الله يظل اليوم يلتوى من الجوع ، ما يجد
 من الدقل ، ما يملأ به بطنه ! » ..
 وما الدقل الا ردىء التمر ! ..
 وقال أبو طلحة :

« شكونا الى رسول الله الجوع ، ورفعنا ثيابنا عن حجر ،
 ورفع رسول الله عن حجرين ! .. » .
 وقال ابن عباس :

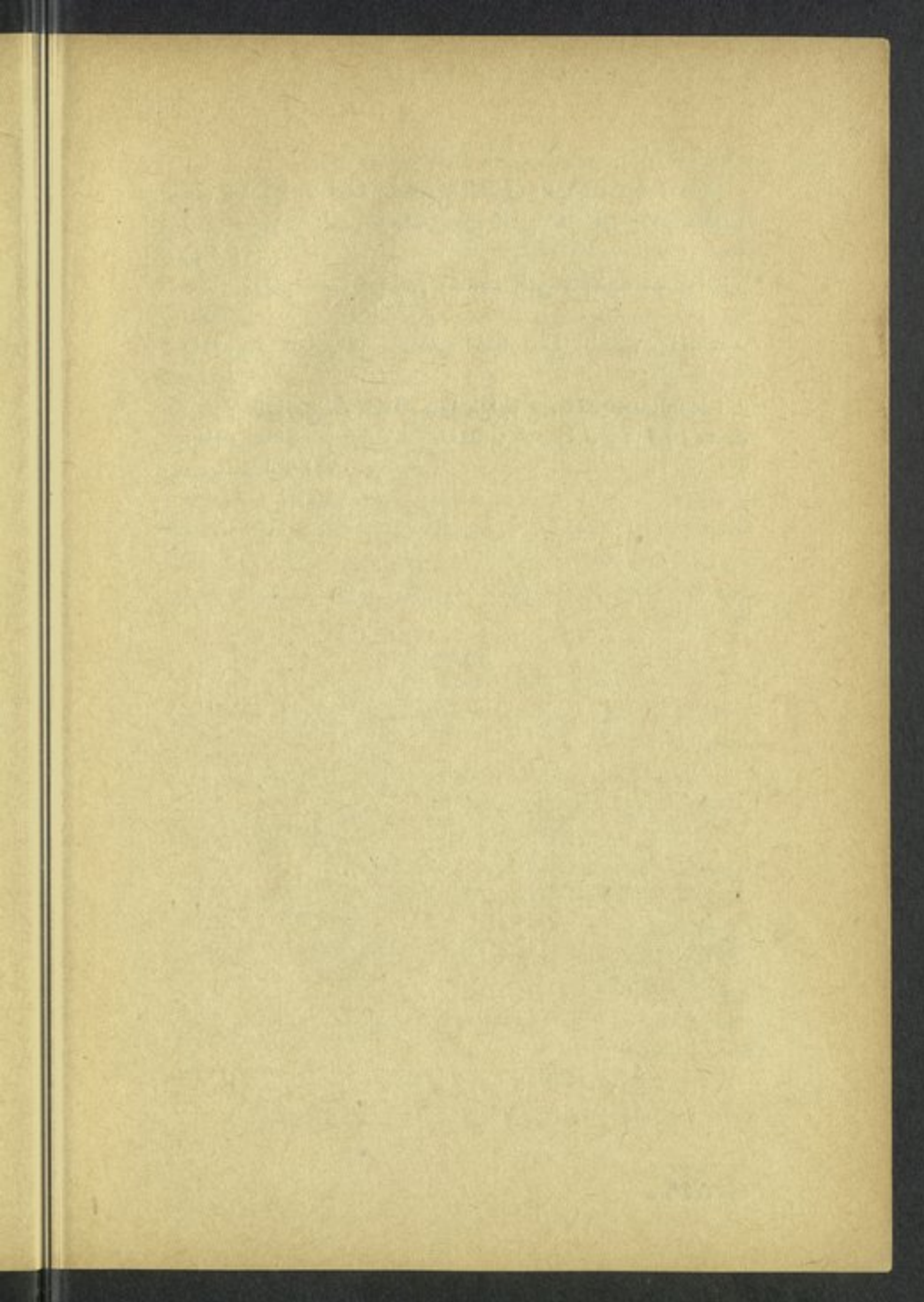
« رأى رسول الله في يد رجل خاتما من ذهب ، فنزعه وطرحه
 وقال :

يعتمد أحدكم الى جمرة من نار فيطرحها في يده ! ..
 بهذه البطون الخاوية من لذائذ الطعام ، وهذه الاكف الخالية
 من بهارج الزينة ، أضاء العرب في الارض نور الروح ، وأقاموا
 للايمان منارة ، وأمعنوا في الفتوح ، وبنوا في التاريخ حضارة .
 ولكن .. مع الأسف .. أخشى أن يكون « جمرة » الذهب
 هي اليوم حقا كل النور المنبعث من الشرق ! ..
 جاء في كتاب « عالم يولد » للمفكر الالماني « كيسرلنج »
 هذه السطور :

« ان أوروبا هي التي تقوم اليوم بالدور التاريخي الذي قامت
 به فلسطين .. أرض الانبياء .. في محيط الامبراطورية
 الرومانية ، لم يعد في مقدورنا اليوم أن نتنظر النور الروحي
 من الشرق ! .. ان الشرق سيصبح منذ الآن هو الرمز الصارخ
 للمادية .. على الرغم من وجود قلة لم تزال تعيش فيه محتفظة
 بعمق فكرها وصفاء روحها ! .. أوروبا وحدها الآن في ذلتها
 وبؤسها وضعفها (وجوعها) هي التي يمكن أن يشرق منها
 ذلك النور ! .. »

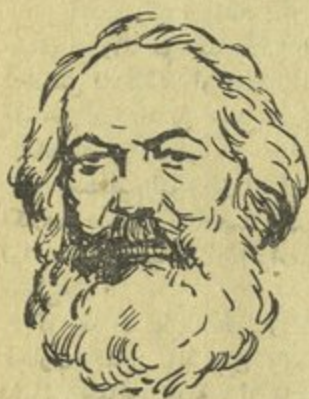
أمن الممكن حقا أن يحدث هذا ؟ ..
 اذا نزل الشرق عن روحه أيضا لاوروبا ، فما الذي
 سيبقى له ؟ ..
 لن يبقى له شيء حتى ولا اسمه ! .. لقد كان الشرق شرقا .
 أي منبعا للنور الروحي ومهبطا للدين والايمان .. يوم كانت
 فيه الرؤوس تجوع والاجسام تشبع ، الطبقات العليا تصوم
 وتزهد ، والطبقات الدنيا تطعم وتقنع ! ..
 ان الجوع لازم للرؤوس قاتل للاجسام .. ولا يضيء رأس
 الا وهو ظمان ..
 الامة كالمسرجة لا يشع لها ضياء ، الا اذا كان أسفلها في
 الزيت ، وأغلاها في الهواء ! ..
 ولكن هل من الحق أن الشرق سيصبح منذ اليوم هو الرمز
 الصارخ للمادية ؟ ..
 لا لشيء الا لأن طبقاته العليا غرقت في الترف ، وتمرغت
 في الذهب ، وبشمت من الشبع ، وعميت من الطمع ! ؟ ..

نعم لا شيء الا لهذا سيصبح الشرق رمزا للمادية ! ..
 فان الطبقات العليا وحدها هي التي تقر في الامم مثلها
 العليا ! ..
 لأن رؤوس المصابيح هي وحدها التي ينبعث منها النور
 أو الظلام ! ..
 فاذا ربط القادة على جباههم أحجارا من الذهب ، فقد عبد
 الذهب ! ..
 واذا ربطوا على بطونهم أحجارا من الجوع ، فقد مجد الروح !
 واذا مجد الروح في أرض ، فقد بزغ فيها نور عزة ، وطلعت
 شمس حضارة ! ..
 ١٣ مارس ١٩٤٨ ..



لست شيوعيا... ولكن!

عندما التحقت بالسلك القضائي في أول الشباب ، دعيت الى مقابلة النائب العام ، فجعلنا نتبادل الحديث في شتى الشؤون الى أن عرجنا على موضوع دراساتي في جامعة باريس .. فاندفعت أقول له بغير تحفظ :



- كنا ندرس هناك تعاليم كارل ماركس .. وكنت من المهتمين بدراسة الشيوعية !
- فصاح النائب العام فزعا :
- شيوعية ! .. وكيل نيابة شيوعي ! .. يا للمصيبة ! ..
فهدأت من روعه .. ووضحت له انها كانت دراسة نظرية في الكتب .. لأن برنامج الدكتوراه في الاقتصاد السياسي كان يتطلب منا بحث النظريات الاقتصادية على اختلاف مراميها ،

وما الجامعة الا ميدان حر تتصارع فيه الآراء .. ولقد بنى

« ماركس » مذهبه على أساس علمي ، معارضا مذهب « آدم سميث » .. فكان لا بد لاساتذة الاقتصاد من عرض المذهبين . وأنت ما رأيك وما موقفك من هذه الآراء ؟ ..

— اطمئن يا سيدي النائب ! اني باعتباري وكيلا للنسابة لن يكون لي غير واجب واحد : أن لا أحنث باليمين التي حلفتها للدولة .. وأن أقوم بواجبي وأطبق القانون بالامانة والصدق ! ..

ومرت السنون .. وانتقلت بعد ذلك من وظائف الدولة الى ميدان القلم .. وانتقلت تلك الآراء من قاعات الجامعات الى ميادين الصراع بين الامم .. وانقلب الجدل العلمي بين « ماركس » و « سميث » الى نزاع سياسي بين كتلة شرقية وكتلة غربية .. وبعد أن كان ميدان العلم منقسما الى معسكرين لعالمين « بكسر اللام » أصبح ميدان الدنيا مقسما الى معسكرين لعالمين « بفتح اللام » ..

اني الآن حر .. غير مقيد بيمين .. فلو أتيح لاحد أن يعيد على طرح السؤال القديم :

« وأنت ما رأيك وما هو موقفك من هذه الآراء » ؟ ! ..

تري بماذا أجيب اليوم !! ..

أجيب بشيء واحد : ان عهد الايمان بالنظريات قد ولى من حياتي ، وأنا لم أعد أذكر الآن تفاصيل تلك الآراء التي كنا نتحمس لتنفيذها أو اعتناقها ، ولكن التقدير الشخصي للأشياء قد حل في نفسي محل التأمين الشامل على كل ما كان يهز مشاعرنا من أفكار ..

لا أستطيع اليوم أن أنضم الى « ماركس » أو الى « سميث » فكلاهما صادق وكلاهما كاذب ، ولا أستطيع أن انضوي تحت لواء « الشيوعية » أو الرأسمالية ، فكلاهما مصيب وكلاهما مخطئ ..

كل ما أستطيعه هو أن أستخلص من تاريخ البشرية ومن تجارب هذين المذهبين واصطدامهما بطباع الناس وظروف الحياة ، حقائق ثابتة ، أو قل عقائد شخصية ، ليس من السهل على أحد أن يزحزحها من نفسي ..

أولى هذه الحقائق أو العقائد أن الثورة الروسية ليست سوى
الشمطر الآخر المكمل للثورة الفرنسية ..

ثورتان دمويتان ارتكب فيهما كثير من الجرائم باسم الحرية .
حرية الشعب ضد طغيان النبلاء في الأولى .. وحرية العمل
ضد طغيان رأس المال في الثانية .. وقد استخدم في سبيل
هذه الأغراض من وسائل العنف ما نفر النفوس واقتشعرت له
الأبدان .. وتطرف رقاص ساعة الزمان من نهاية الى نهاية ..
باحثا عن وضعه الصحيح الذي فيه يستقر استقرار الحقيقة
المقبولة ..

وهذا رقاص الساعة في الثورة الفرنسية بعد أن قطع كثيرا
من الأعناق وأسأل كثيرا من الدماء ، وانكشف للأعين بعد
ذهاب العاصفة هذه الحقيقة ..

ليس المقصود محو طائفة أو إلغاء طبقة .. بل المقصود إزالة
فوارق والإلغاء امتيازات .. فليبق النبلاء إذا شاؤوا ، ولكن ليس
لهم اليوم أن يقولوا لغيرهم من أبناء الوطن : دمنا أزرق ودمكم
أحمر ، ولا نقف معكم أمام محكمة ولا نخضع معكم لقانون ،
ولا نجلس الى جانبكم تحت قبة مجلس ..

كانت الحقيقة الثابتة التي تمخضت عنها الثورة الفرنسية هي :
حقوق الانسان .. ذلك الانسان الواحد الذي لا تميز فيه
بين دم ودم .. حقوق المواطن ، ذلك الفرد الذي يتمتع بعين
الحقوق المدنية والسياسية ويخضع لما تفرضه من واجبات دون
تفريق بين مولد أو منبت أو مرتبه .. وسرى هذا المبدأ في
الأرض وجعل أساسا لاكثر الأمم .. ولم يعد من الضروري
لتطبيقه إقامة نظام خاص من الحكم .. فالملكية والجمهورية
تصلحان على السواء اطارا للمحافظة على حقوق الانسان
والمواطن ! ..

ثم جاءت الثورة الروسية فقالت : نعم .. لقد زال امتياز
النبلاء .. ولكن ظهرت طبقة أخرى ذات امتياز وطغيان ..
هي طبقة أهل المال .. يجب إلغاء هذه الطبقة .. فلا يوجد في
الدولة غير أهل العمل .. ويجب أن يكد العامل للمجموع ..
فلا قيمة لحقوق الانسان ، بل القيمة الأولى لحقوق الجماعة ..
ولا اعتبار لحقوق المواطن .. بل الاعتبار الأول لحقوق الوطن ..

وقامت الثورة كالرياح الهوج فعصفت بالنظم السياسية والاجتماعية والدينية .. وسالت الدماء أنهارا .. وتطرف رقاص ساعة الزمان من نهاية الى نهاية ، باحثا عن وضعه الصحيح الذى فيه يستقر استقرار الحقيقة المعقولة المقبولة .. ولم يهدأ بعد رقاص الساعة الروسية .. فان هذه الثورة لم يمض عليها أكثر من نصف وربع قرن .. وقت قصير بالقياس الى الثورة الفرنسية التى مضى عليها قرن ونصف قرن ! .. ولكن من المستطاع بعد ذلك أن نستخلص منها الحقائق التى يمكن أن تتبلور وتثبت وتمكث فى الارض ..

من هذه الحقائق الثابتة فى رأى : حق الجماعة وحق الوطن ، فهى تكمل الشطر الذى بدأته الثورة الفرنسية : حق الانسان وحق المواطن ، أما نظام الحكم فسوف تثبت الايام - ان لم تكن قد أثبتت بالفعل - بما يحدث فى انجلترا اليوم - انه ليس من الضروري أن يتخذ الشكل الذى ارتآه الروس ، ولا أى شكل خاص من الاشكال .. فالملكية والجمهورية أيضا سواء فى صلاحيتها اطارا للمحافظة على حقوق الجماعة والوطن ..

وبعد ... فلأترك هذا الحديث العام ، ولا تعرض ما أراه صالحا لبلادى .. ولا تعينى الاسماء ولا الصفات ولا التعاريف .. ولا أفكر وأنا أتكلم برأسمالية أو اشتراكية أو شيوعية .. انما أنا أبسط ما أتمناه لأهل بلدى من اصلاح دون تقييد بمبدأ أو بمذهب .. فليس أخطر على أمة من أن تلبسها مذهب أمة أخرى دون نظر الى طبيعتها وحاجتها وحجمها وذوقها وروحها . أريد أن تتحقق فى بلادى ثلاثة أشياء :

الأول - أن يكون كل ولد يولد ، وكل مواطن يوجد ، ملكا لنفسه وملكا للوطن فى آن .. كما أن الخلية فى الجسم ملك نفسها وملك للجسم .. فالوطن مسئول عن الصحة الجثمانية الذهنية لكل مولود وموجود .. فالتطبيب بالمجان والتعليم بالمجان .. ان لم يتحقق هذا فلا قيمة لوجود الوطن .. كما لا قيمة لوجود الجسم اذا تخلى عن مضائر الخلايا .. كذلك ما يملكه الفرد فى أرض الوطن هو ملك للفرد وملك للوطن فى آن .. لأن قطعة الارض قطعة من لحم الوطن .. فلا يجوز للفرد

أن يسيء استغلالها .. أو أن يعجز بأعماله أو جهله من استخراج كنوزها وتعطيل نفعها .. فعلى الوطن أن يقسم أرضه أو لحمه الى مناطق تعاونية ، يجرى فيها البذر والزرع والحراث والسماد والحصاد والدراس بالآلات حديثة وخبرة علمية .. لتنتج أكثر ما يمكن من محصول .. هو ثروة للوطن وثروة للفرد فى آن ..

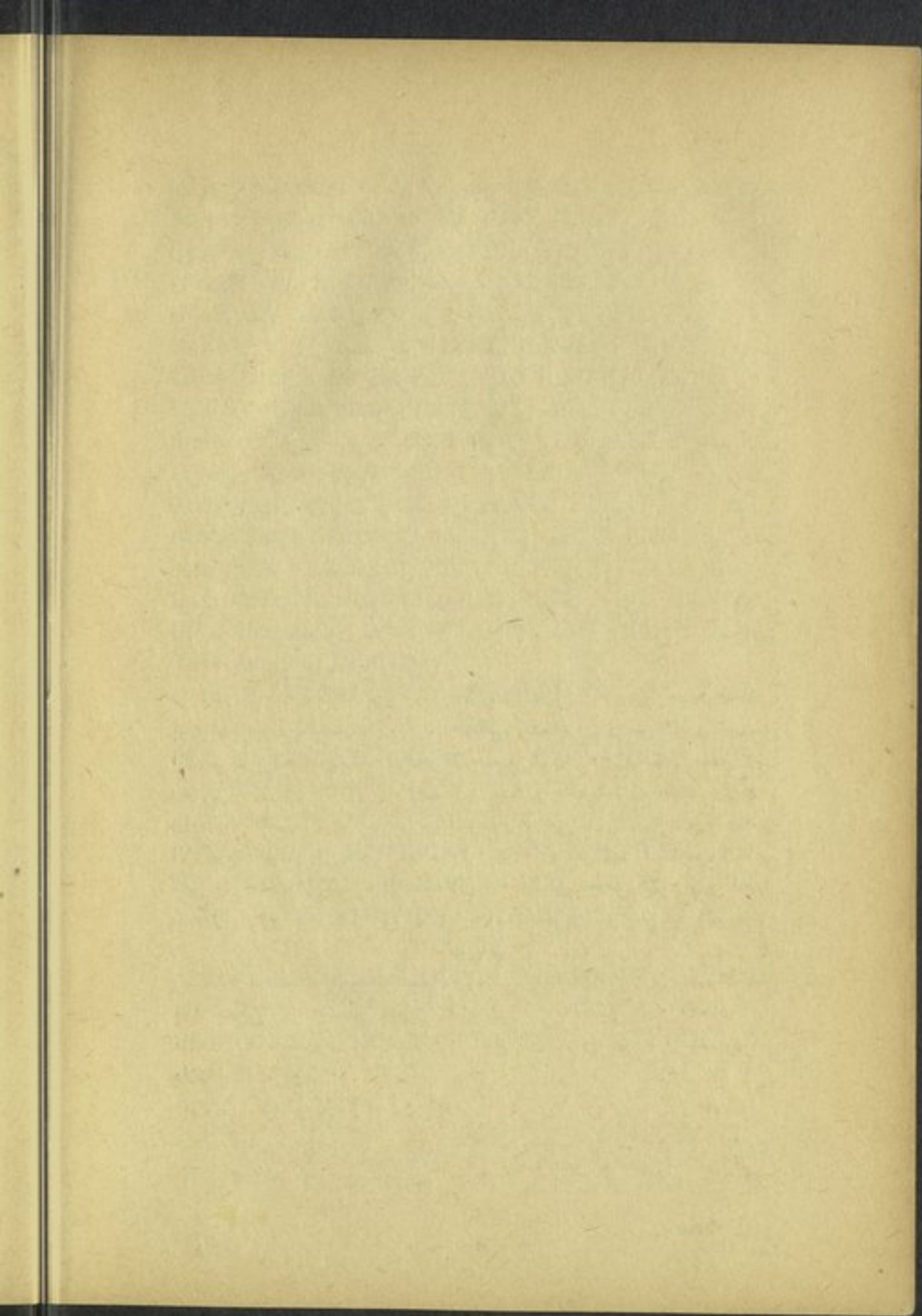
الثانى - أن تمتد يد الضرائب التصاعدية بقوة الى رقاص ساعة العيش ، فلا يتطرف من نهاية الثراء الى نهاية الفقر ..

ليهدأ فى الوضع المعقول المقبول الذى يقارب ويجانس بين أبناء الوطن .. وأن يكون لحكومة الوطن رقابة دقيقة على شركات المرافق العامة كالمياه والنور والمواصلات .. الخ .. حتى لا يكون لها غير ربح زهيد لا يبهظ أفقر الناس .. فإذا تولت الحكومة ادارتها بمبالغة فى الحرص على مصالح الكافة كان ذلك أفضل وأتم . يضاف الى ذلك واجب آخر على حكومة الوطن : توفير السكن الصالح وتدير العمل للعاطل وفرض الحد الأدنى للأجر الذى يصون للأجير كرامته الآدمية . ويكفل له كمواطن كيانه الداعم لكيان الوطن .

الثالث - العلاقة بين رأس المال والعمل .. وهو جوهر الخلاف بين المذهبين المتصادمين .. أحدهما يقول ان رأس المال يستغل العمل ويربح كل كده ويجرع جميع عرقه .. والثانى يقول ان رأس المال هو الذى يجازف .. فله وحده ثمرة جسارته ، والحقيقة التى أراها فى طريق التبلور : هى أن لا تطالب كالمذهب الاول بالقضاء على الرأسمالية .. ولا أن تتركها كالمذهب الثانى تمرح وحدها فى ثمرة الاستغلال .. ولكن تجعل فى رأيى للعمل شعارا . يواجه به رأس المال : « استغلنى واشركنى فى الربح ! »

هذا تخطيط بسيط فيما أراه فى هذا الأمر .. لست أحفل بما يمكن أن يسمى بين المذاهب .. حسبى انه اتجه أراه نافعا .. ميسور التنفيذ .. آمل أن يرى ضوء الشمس فى بلادنا ذات يوم .

١١ أكتوبر ١٩٤٧ ..



فى الاقصر

قال لى رفقاء السفر : « أعد حقيبتك ، المحطة القادمة هى « الاقصر » ، وذهب كل الى مقصوره فى عربة النوم ليحزم أمتعته ، وما انتهيت من شأنه حتى كان القطار قد وقف على رصيف المحطة ، وأقبل الحمالون يهجمون على النوافذ ، فحملت حقيبتى ، وما كنت أخرج بها من مقصورتى ، حتى مرت أمامى حسناء ، عرفتنى ولا شك ، قد نظرت الى نظره لم أعودها من النساء ، نظره ليس فيها كراهية ولا استهزاء ، ولكن فيها كثيرا من الاحترام ، وأثرت فى نفسى هذه النظرة ، فلم أدر ماذا صنعت بعد ذلك بالحقيبة ، كل ما أذكر أنى سلمتها لأول يد امتدت الى النافذة ، ونزلت من القطار ، ولحق بى رفقاء السفر يسألوننى عن أمتعته .. فانتبهت وقلت لهم : لا أدري من أخذها .. ابحثوا .. وضاعت الحقيبة ، وكان معنا رجل من أصحاب النفوذ فى المدينة .. ظل يتحرى ، ونحن فى انتظاره على باب المحطة حتى وجدها ، وسرنا فى طريقنا الى - ونتر بالاس - واذا جيش من باعة - الانتيكة - يسعدون علينا الطريق بمعروضاتهم من التماثيل الصغيرة التى تمثل الملوك والآلهة

والجعارين .. فقال لى رفقاى :

« اياك أن تشتري منها .. انها ليست أصلية .. كلها تقليد » .. فطردت الباعة ، ومشينا فى أفخم شوارع الاقصر - كما قيل لى - ففرق حذاى فى التراب والوحل ، واكتأبت نفسى لحقارة المبانى على الجانبين ، وقذارة الحوانيت على الصفين ، ولم يلبث أن أفضى بنا ذلك الشارع المزرى الى هيكل قائم على أعمدة عظيمة ، عجبت لوضعه فى ذلك المكان ! .. فسألت رفقاى : « ما هذا ؟ فقالوا : هذا معبد الاقصر » .. فقلت لهم :

- طبعاً .. ألا تراه مهتما غير مسكون ؟

- أهو أثرى ؟ ..

- وهل هو أصلى ؟ ..

- طبعاً .. وهل تظنه تقليداً ؟! التقليد والتزييف يكون فى النحف الصغيرة من الحواتم والتماثيل والجعارين وليس فى المعابد والهيكل ..

- صدقتم .. هذا غير ممكن .. وبإلتنا كنا نستطيع بعض تلك التقليد فى هذا الأمر أيضا .. فما كنا رأينا على الأقل أفخم شوارع الاقصر بهذه البشاعة ! ..

ودنونا من ذلك المعبد بأعمدته المتوجة بحجارة فى صورة زهرة اللوتس ، فتسمرت قدماى ، وحرنت عن السير ، وزاغ بصرى من الدهش ، ولم أصدق أن هذه الآية الفنية لنا ، وفى بلادنا ، وفى بلدة بهذا القبح .. وما قولك فى كنوز ثمينة وتيجان مرصعة بالجواهر فى حجر شحاذ يتعثر فى الاطمار ، يلعب بها فى التراب ؟! وجذبنى رفاقى صائحين :

- « هلم .. غدا تشبع من هذه الآثار فى وادى الملوك ! » ..

ودخلنا الفندق ، فشعرت للفور بأنى فى مكان نظيف ، وارتاحت نفسى لانبهائه المفروشة ، وشرفاته المظلة على النيل والمرشفة على الحدائق ، انه ليس من البلدة ولا شك ، فهو دخیل عليها .. بل لعله ألقى من السماء على هامشها ليؤوى الضيوف ، ويحمى الاجانب من شر ما حولهم ..

وقالوا لنا أن لا مكان لنا فيه ، فحجراته كلها محجوزة ، لأن أعياد رأس السنة قد زحمته ، ولكن رئيس مجلس الادارة

« توفيق دوس باشا » علم بالامر ، فسألني باسمي : « هل جاء معك حمارك ؟ » . فقلت : أننى بدونى لا أجد محلا ، فكيف لو حضر ؟ » . فقال : اطمئن ، ستجد له ولك « . وأمر فى الحال لنا بحجرتين فاخترتين ، ولأول مرة ، أرى لحمارى مكانة تنفعنى وتنقذنى ! .. وللمرة الاولى أرى رجلين آدميين محترمين ، الاول صحفى مشهور ، والثانى نائب فى البرلمان يتشاجران من حولى ويحاول كل منهما أن ينتحل صفة - حمارى - ليظفر بالغرفة الفاخرة ! ..



توت عنخ آمون

وجاء الغد ، فقمنا مبكرين الى - الضفة الغربية - من النيل مدينة الموتى ، كما يطلق عليها ، حيث مقابر الملوك توت عنخ آمون - و « رمسيس السادس » الخ .. ومعابد : الدير البحرى والرمسبون وحابو الخ .. مما تجده فى كتب السياحة مفصلا ويقودك اليه الترجمة والادلاء طول النهار ، ويقصون عليك من أجبارهم ما يعرفون وما يعرفون . والتف من معى حولهم

يستمعون ، ولم تكن لى آذان تسمع ، ولم يكن يعنينى أن أعلم ما قرأت وما أستطيع أن أقرأ فى كتب الآخرين ، ولكن الذى أريده هو أن أتصل بروح القدماء بغير وسيط ، يجب أن أفهم أولا لماذا شيّدوا هذه الاعمدة الضخمة ؟ لقد رأينا فى معبد - الكرنك - فى الضفة الشرقية أعمدة طولها ثلاثون قدما ، ولا بد من عشرة رجال يفردون أذرعهم ليعانقوا الواحد منها ، أكان من الضرورى أن يشيد عامود بهذه الضخامة ليحمل سقفا ؟ هكذا سأل بعض المشاهدين . فأجبت : « لم تشيد هذه الاعمدة لتحمل السقف بل لتحمل الدهر ! » .

كل شيء في آثار أولئك الاجداد يكاد يصيح في وجه الزمن :
« لن تطمسني ، لن تزيل معالي ! .. ها أنا ذا أحملك أيها
الزمن منذ آلاف السنين ، وقد أنوء قليلا تحت وفرك المخيف ،
ولكنني لا أفر ولا أتلاشى ! » .

لماذا أراد القدماء مقاومة الزمن ؟ يقول المؤرخون والباحثون
هي الفكرة الدينية وحدها .. هي اعتقادهم أن صيانة الجسد
شرط لازم للبعث ، لأن الروح بعد الموت اذا لم تجد جسدها
محفوظا لتحل فيه ، هامت وضلت ، واستحال بعث الميت ،
لذلك عني الملوك والعظماء بحفظ أجسادهم في تلك الآثار
والمقابر التي لا تبلى .. ربما كان هذا صحيحا .. ولكن ليس
هذا كل ما في الأمر في رأيي ، فلو كان هذا كل غرضهم لاكتفوا
بمتانة البناء ولم يلتفتوا الى جمال الفن ، ولكن الذي هزني في
آثارهم ، هو ذلك الاتقان الفني الذي يبهر العقول قبل الانظار ،
ذلك التناسق في الالوان والاصباغ التي لا يزال فيها لليوم
نضارة تشع من الجدران ، وذلك الحرص الدقيق على تنويع
العامود الهائل بزهرة لوتس أو بردي منقوشة ملونة في حجم
لم يصنع مثله لزهرة في تاريخ الفنون حتى الآن .
انه الاتقان ، انه الصبر الطويل للوصول الى الكمال ، لقد
قال الشاعر بوالو - ان العبقريه ليست سوى الصبر الطويل ،
وهذا ما يدعش في فنه ! انه الصبر .. الصبر ! كم من الزمن
استلزم نحت تمثال عظيم كأحد تماثلي - ممفون - طولة عشرون
مترا في صخرة واحدة ؟ .. بل كم من الزمن لرفع تلك الزهرة
الهائلة فوق ذلك العامود الهائل ، قبل أن تعرف الرافعات
البحارية ؟ يخيل الى أنهم لم يسألوا أنفسهم عن الوقت ، في
الفن لا تحفل بالزمن يحفل بك الزمن ، فاذا أسرع أو تسرعت
خوفا من أضاعه الزمن أضاعك الزمن ، ونحن في العصور
الحديثة نخشى أن يضيع وقتنا فننشئ العمارات سريعا ، فلا يكاد
ينزل عنها البناء حتى يظهر الصدع ، ومثل محكمتنا المختلطة لم
يبرح بعد الاذهان ، لا يشتري الزمن الا بالزمن ، أنفق الزمن
بسخاء في العمل الفني تظفر له بالبقاء ، فهم هذا الدرس
المصريون القدماء فكاد خلودهم في الجمال الفني لا فقط في
خلود البناء ، وهذا ما فهمته من آثارهم وما أحب أن يفهم ليست

الفكرة الدينية وحدها هي التي دفعتهم الى هذا العناء ، بل
الفكرة الفنية أيضا ، انهم كانوا قوما يطلبون في الفن الكمال ،
ويتذوقون الجمال ، ان لم يكن ذلك فيماذا نعل انشاء معبد
كمعبد - الكرنك - الهائل بتلك الالوان تصبغ أعمدته من
الظاهر ، وتزهو في ضوء الشمس ، وتطرب البصر بالوان عجيبة
التركيب .. منظر - فيما أتصور - قد رآه البشر مرة على
رمال هذا الوادي .

ولن يسمح لعين بشرية برؤية نظيره مرة أخرى ، ذلك أن
الفنان الذي يعرف ذلك الصبر ويستعزيء بالوقت من أجل
فنه ، ذلك الاستهزاء لن يوجد مرة أخرى على هذه الارض ، بل
أن ذلك الشعب الذي أراد أن يتمتع بصره ويروحه بذلك الفن
الحالد ، مضحيا في سبيل تلك المتعة بكل عزيز لن يظهر مرة
أخرى في هذه العوالم الغارقة في المادة الرخيصة ومطالب
العيش المبذل ..

قال قائل من المشاهدين : « انها السخرة .. انها الضحايا
الآدمية العديدة التي مكنت لهذه الاعمال ! » .

فقلت له : « وفي عصرنا الحاضر كم من ملايين الضحايا
الآدمية في حربين متقاربتين مكنت لهذه الانانية والوحشية ،
وكم من مئات الملايين من الذهب أنفقت في القنبلة الذرية ؟
في الماضي كانت التضحية على الاقل في سبيل الخلود .
وفي الحاضر التضحية هي في سبيل الموت .

كاثوا قديما ينفقون ويبدلون ويبقى الفن متعة للأجيال .
واليوم ينفقون ويبدلون للتدمير العام وادادة الشيوخ
والنساء والاطفال .

وعدنا في المساء الى الفندق . وجلسنا في البهو نتناول
الشاي وأنا أفكر فيما رأيت ، وأقول في نفسي : مهما يكن من
أمر أنانية الحضارة ، فانها هي التي قدرت آثارنا ، وها هي ذي
أغلبية السائحين والمشاهدين من الاجانب ، وهم في عواصمهم
يحاولون امتاع أبصار شعوبهم بالجميل من فن البناء ، والبديع
من التماثيل يقيمونها في الشوارع .
أما نحن في مصر .. نحن أحفاد أولئك الفنانين العظام ..

أساتذة البشرية فى العمارة والنحت والنقش .. فلا تعرف عواصمنا غير شوارع معقرة مغبرة ، لا يقوم فيها بناء واحد يشعرونا بروعة ، ولا ميدان ينهض فيه تمثال بأخذنا بمتعة أو فتنة أو سحر ، ولقد صاح فينا من قال : المسلات فى الصعيد ملقاة فى الحقول ، والتماثيل الرائعة القديمة مبعثرة فى الرمال ! زينوا ببعضها ميادين العواصم ، ولكنها صريحة لا تنفع فى شعب حكماءه ومحكوموه لا يتذوقون الفن ، انها لسخرية من الزمن أو انتقام أن يبتلى أولئك الأجداد بمثل هؤلاء الأحفاد ! ..

ولكن هل نياس ؟ أو نأمل ونتعلم وندرس ؟ من رأى وقد تطورت الطبقات المتوسطة والفقيرة بعض التطور ، واتسعت مطالعها ، وأصبحنا نراها فى المصايف ودور السينما .. أن نرشدها بعد ذلك ونيسر لها مشاهدة الجمال الفنى ممثلاً فى آثار بلادها .. وانه من جهة أخرى عمل اقتصادى مريح لرجال الاعمال .. وقد حادثت فى ذلك أحد كبار الاقتصاديين ونحن فى بهو الفندق فقال :

- فكرة طيبة ، ولكن كيف نأمل فى اتساع نطاق السياحة فى مصر ، والمواصلات بهذه الصعوبة ؟ فى أكثر بلاد السياحة يعتمد على الطرق أكثر من الاعتماد على السكك الحديدية ، لأن السيارات الكبيرة خير وسيلة للنقل فى هذا المجال ، بل أن أكثر السياحين يفضلون التنقلات بسياراتهم الخاصة ، ولن يتسنى ذلك الا باصلاح الطرق ، عندئذ نرى الفنادق العديدة قد أنشئت على جوانب الطرقات فى كل بقاع القطر ، والمقاهى ، والملاهى وكل ما يجتذب السائحين وينشط حركة التجارة ..

ان حكوماتنا تظن أن المال الذى ينفق فى اصلاح الشوارع والطرق هو نفود تلقى فى الشوارع ! .. ولكنه فى الحقيقة مال يرد الى الحكومة مضاعفاً ، خذ مثلاً طريق الصحراء الذى أنفق فى انشائه حوالى ثمانية ألف جنيه ، لقد دلت الأرقام على أن ما دخل خزانة الدولة من ضريبة البنزين على السيارات المارة فى ذلك الطريق خلال عامين فقط بلغ نحو مليون ونصف من الجنيهات ..

وهناك مشكلة أخرى يجب تدبيرها من الآن ، ففى الغد ستتهبط أثمان السيارات ، وسيضعف عددها ، ففى أى

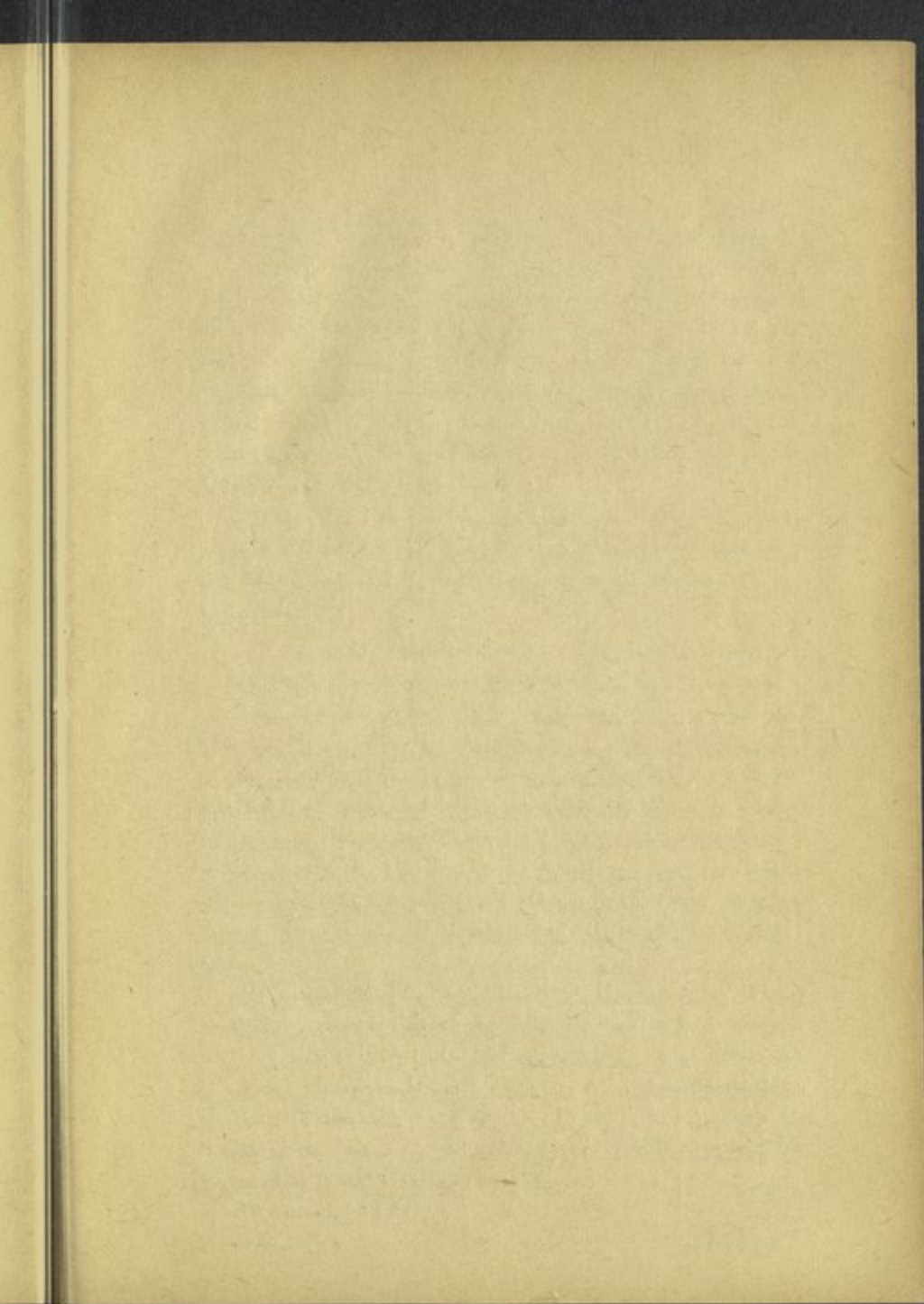
طريق تسير؟ هل يكتفى بتركها تتكدس في شوارع العواصم؟! - كل مال يلقي في اصلاح طريق زراعي ، هو بذور تلقى في حقل خصيب يرمى من الحبر والفائدة ما لا يقع في الحسبان ، فالأداة الحكومية تصلح وتؤتى أسرع النتائج .. فالاتصال بجهات الادارة يسهل .. والانتقال في الحوادث انهامة العاجلة ، وفي شئون الصحة ومكافحة الاوبئة وفي التفتيش (في التعليم الالزامي المبشر في القرى) وسرعة المرور والاشراف في الزراعة والضرائب والامن .. وبالاختصار سيحدث انقلاب في حركة المرافق العامة كلها وادارة الدولة .

- بالطبع ان الطرق ، هي شرايين ذلك الكائن الحي الذي يسمونه « بالدولة » فهل يمكن أن ينبض قلب دولة بالحياة وهي بغير شرايين سليمة ؟ ان هذا لا يجوز في عرف الطبيعة ، ولا في عرف الطب ..

- ولا في عرف الاقتصاد القومي ، ولا في الكيان الوطني .. ليشنا في الاقصر بعد ذلك يومين لا ندري ماذا نصنع بهما ، ولا كيف نشغلهما ، وقد زرنا كل ما يستحق أن يزار من آثار ، وقد قيل لي أن تلك هي المشكلة لكل سائح ، والاجنبي على الأخص - فآثار الاقصر ترى كلها في يومين أو ثلاثة .. ولا يجد السائحون ما ينفقون فيه أيامهم بعد ذلك ، فلا ملاعب للرياضة ، ولا كورنيش للسير على الاقدام ، ولا مروج ومتنزعات للارتفاع بالشمس والهواء ، ولا كازينات ، ولا مسارح ، ليس غير الفندق يحبسون أنفسهم فيه يطالعون أو يلعبون الورق ، حتى يتاح لهم الرحيل .. وقد أسرعنا بالفعل راحلين الى أسوان ، وأنا أقول متحسرا :

ماذا يعطينا الله أكثر من ذلك ؟ .. لقد منحنا في الاقصر معجزتين : معجزة الطبيعة في ذلك الربيع الدائم ، ومعجزة الفن في ذلك الابداع الخالد ! ما من مكان في الدنيا تلاقت فيه لا يموت ، وأعجوبة صفاء سماء لا يزول ، هنا اجتمعت المعجزتان ، وتعانقت الاعجوبتان .. ولكن تبين لي على الرغم من ذلك ، أن هنالك ما هو أعجب من هذا وأشد اعجازا : ذلك هو وجود أمة لا تستطيع الانتفاع بهاتين المعجزتين ! ..

٢٩ ديسمبر ١٩٤٥ ..



في أسوان

لا أبغض شيئاً في السفر بغضى لقطار الصباح الباكر . انه يضطرنى الى الوثوب عجلة من الفراش ، فى تلك الساعة الذى يلد فيها الدفء ويحلو الكسل ، لذلك أضمرت فى نفسى أمراً للقطار السريع الذاهب الى أسوان ، وتناومت حينما جاء رفاق السفر لايقاظى ، ولم أفتح عيننا حذرة الا عند ما استوثقت من أنى أضعت الميعاد وفات القطار ، ولم يكن بد بعدئذ من قطار العصر ، وهو بطيء لكع ، عاطل من « البومان » أثار سخط الصحاب ولكنه أرضانى .. جعل يقف دهرًا على كل محطة خاوية فى خلاء الصحراء ، كأنما سائقه مكلف أن يسرى عن ناظر المحطة فى وحدته ، ويقص عليه أخبار المدن التى مر بها فى الطريق .. قلت لرفاقى المتذمرين :

— تريدون السرعة ؟ ولن يهلك المضارة العصرية غير السرعة ! السرعة الملعونة التى تجرف حياتنا جرفاً الى الفناء ، كأنها قشة فى تيار ماء ! ..

فنظروا الى شزرا ، ولم يكلفوا أنفسهم عناء الرد ، فمضيت أقول :

- الوصول الى الغاية سريعا لا يهم ، المهم الاستمتاع بالطريق ،
افتحوا أعينكم وتأملوا هذه الصخور الصفراء ، والحمراء .. انها
مملوءة بعنصر الحديد ، ثم هذه المزارع الخصبة النابتة بقصب
السكر ، هذه البقاع حولنا فيها متعة للبصر وثروة للبلد ، وعلى
ذكر القصب ، انى أحبه ، ما قولكم لو نزلنا المحطة القادمة ،
لنمض القصب .. ان فيه شفاء للناس ! .. فصاحوا بى فى
صوت واحد :

- نازل ؟ .. ما كان ينقص الا هذا ، ألا تعلم أن هذا
القصب ناقل للملاريا ، وتبيض فى رؤوسه بعوضة « الجامبيا »
.. ألا ترى هذه القبور المنتشرة فى الصحراء ضاقت بها
القرى .. فالقيت وبعثرت فى الرمال كما ترى ، وليس على كل
قبر سوى حجرة .. هؤلاء ضحايا الملاريا المنكوبين ، البؤساء ! ..
فصحت من الفزع ، وأنا أنظر الى تلك الاحجار فوق الجثث
التي يمر بها القطار حقا فى مسيره الطويل بين الاقصر وأسوان
وقلت :

- أنفذتم حياتى ! .. لن أمس عود قصب منذ اليوم ! ..
ودخل علينا الليل والقطار لا يبدو عليه شوق ولا عجلة لبلوغ
أسوان . حتى كدت أندم لاختيارى هذه السلحفاة البخارية ،
وكاد رفاقى يضحكون تشفيا وشماتة . فانكمنيت فى ركنى
وأطبقت عيني ، ونمت أو تناومت ، الى أن شعرت بالقطار يقف
وسمعت أصحابى يقولون : « حمدا لله على السلامة ! » .

ذهبت الى فندق « كترأكت » . وقيل لى ان حجرتى تطل على
النيل ، ولكن الليلة كانت ظلماء ، ولا قمر فى السماء ، فلم أبصر
شيئا ونمت ليلتى وقمت فى الغد .. وفتحت النافذة ، ما هذا ؟
أهذا هو النيل ؟ أم أنا فى حلم ، أم هو نهر من أنهار الجنة التى
لم تكشف لعين بعد ! .. ما هذه الجزر الصغيرة الخضراء ،
كانها خلقت ليلعب فيها الاطفال ، أو يرتع فيها بيض الاجنحة
صفراء ، فى وسط ماء ساكن لامع كوجه المرأة الصقيل ، انتشرت
فيه صخور الجرانيت السوداء ، كأنها بط هائل يسبح بين
الجزائر والصفاف ، ومن حول ذلك اطار من تلال عالية فى لون
التبر كأنها السياج الذهبى خاتم من ماس وزمرد وعنبر ! ..
كل شئ أمامى فيه ضخامة وضلالة ، وعظمة وسذاجة ، وخيل

الى أن النيل يهمس في أذنى قائلا : « لا تعجب ! هنا شبابى ،
انك أت من الشمال ، من قرب نهايتى ، هناك حيث ترانى أسرع
الى المصب ، كما ينحدر الشيخ نحو القبر ، وقد عركت الايام
فلم يعد يستوقفنى شيء ، وقابلت الحضارة فغيرت فى جانبى ،
أما هنا فأنا كما ترى صبي ، واقف يلعب بتلك الصخور السمراء ،
كما يلعب الصبية بكرات « البلى » وأضم الى صدرى الجزر
الحضراء كأنها الأعيب ، وأداعب أقدام التلال الصفراء كأنها
قطيع غزلان ، لا أرى بعد ما يخبى لى الغد ، ولا أتسم بعد
ريح البحر وهو لى بمثابة القبر ، ان حياة النهر من ميلاده الى
مماته ، لا تقاس فقط بالزمان ، بل تقاس أيضا بالمكان ، فثق
أنك فى هذه البقعة تشهد صباى وشبابى ، كما كان منذ
خمسة آلاف عام ، واليك الدليل : تلك الصخرة من الجرانيت
المنقوش عليها بالحروف الهيروغليفية انها فى مكانها من هذا
الشاطئ منذ آلاف السنين . انك ترانى الآن فى سذاجتى
ونظرتى ، كما كنت قبل أن يعرف التاريخ ، انك ترانى فى
عظمتى وقوتى ووحشيتى الغابرة : أنظر الى عضلاتى الصخرية
الهائلة ، تلك التى قدمتها أروع مقابر مصر القديمة ! سواعدى
الحجرية التى رفعت مصر فى هذه الآثار ، وأقامت آيات ما برحت
موضع الانظار . . هذا هو شبابى ، أيها الرجل القاسم من
الشمال ، فاذا رجعت الى بلادك فقل لقومك : لبس الذى ترون
هو النيل ، تعالوا الى الجنوب وأنتم تعرفون كيف كان النيل ! »
وأغلقت النافذة بخشوع ، كأنما أسدل الستار على ضريح ،
وقد عذرت فى نفسى أولئك الذين فتنهم يوما جمال هذا النهر
فعبدوه ، وتناولت فطوري ، ونزلت الى شرفة الفندق ، وغرقت
فى مقعد كبير ، وجعلت أتأمل النيل من جديد ، الى أن أقبل
رفاق السفر فاخرجونى من صلاتى وعبادتى ، وكان اسماعيل
صدقى « باشا » من نزلاء « كتر اکت » فضممتنا الشرفة ، وداريننا
الحديث فى جمال النيل وجلاله . . ثم فى كنوزه الاقتصادية
أيضا ، بل كنوز تلك المنطقة من أرض مصر ، فقال صدقى :
- ان الحديد الذى يمكن استخراجه من هنا - كما جاء فى
بعض التقارير - يكفى حاجتنا مئات الاعوام ، وهو من أجود
أنواع الحديد ، وربما استطعنا أن تصدر الحديد كما تصدر

القطن ، أما البترول الابيض الكامن في ماء النيل ، وأعني به
المقوة التي يمكن استخراجها من كهربية خزان أسوان ، وأثرها
في خلق مصر صناعة وحضارة فلا خلاف فيه بين أحد اليوم .
فقلت :

- اذن ما الذي يقعدنا عن الانتفاع بهذه الكنوز ؟ ..

- الاغراض السياسية .

- داخليا وخارجيا ، هذا



صدقي باشا

صحيح ، وإذا استطعنا التغلب
على التيارات الخارجية ، والضغط
الاجنبي ، فهناك آفتنا الداخلية
الكبرى : السياسة للسياسة ،
أو على الأصح : « السياسة
للحكم ، ان العقلية المصرية لم
تتغير منذ أجيال ، سواء في الحكم
أو المحكومين ، فالهدف الرئيسي
للحكم هو السيطرة ، ولعل
الاحتفاظ التقليدي بوزارة
الداخلية ، أي البوليس والادارة

والضبط والربط ، في يد رئيس الحكومة ، هو مظهر ورمز لهذه
الفكرة ، لذلك يمكن في رأيي تلخيص شعور الفرد العادي من
فلاح وغيره في هذه العبارة : « من لا يستطيع أن يحبسني
ليس له عندي اعتبار » ..

فضحك صدقي باشا ، وقال :

- هذا بالضبط هو الواقع ..

فقلت :

- ومتى اذن نستطيع أن نرى الفرد العادي في بلادنا يقول :

« من لا يستطيع أن لا يحسن حالتي ليس له عندي اعتبار » ؟
أظن أنه لو حدث هذا لتغير الوضع في الحال ولم تصبح لنا
السياسة للحكم ، أو السياسة للسياسة ، بل « السياسة
للاقتصاد » .

وهم صدقي باشا بالكلام ، وإذا رجل يدنو منه ويخبره أن

« شركة كوم امبو » أرسلت هدية الى دولته « لبشتين » من القصب « خد الجميل » .

فما كدت أسمع ذلك حتى صحت :

- قصب ؟ احذر يا باشا من القصب ، انه ناقل للملاريا .

- من قال لك ذلك ؟ ..

- هؤلاء ..

وأشرت الى رفاق السفر ، فاستغرقوا فى الضحك وقالوا :

- اضطررنا الى افهامه هذا ، لأنه كان يريد أن ينزلنا من

القطار ليمص قصباً .

فابتسم صدقى باشا وقال :

- أتحب القصب ؟ ..

- جدا ! ..

- اذن أعطيك واحدة من « اللبشتين » .

وأمر أن يرسل الى حجرتى نصف « الهدية » .

لا بد لمن يذهب الى أسوان من أن يرى الحزان ، خزان أسوان
أحدى أعاجيب فن الهندسة الحديثة بلا مرأ ، ولقد كثر الكلام
فيه وفى كهربته ، ولكن كل كلام ضعيف ، بهد الى جانب
الحقيقة ، يجب أن نرى الاشياء بأعيننا لأن العين تستطيع أن
تحيط ، ولكن اللسان لا يستطيع دائما أن يعبر ، ما كدت أقف
على ذلك السد الذى يرتفع أكثر من ثلاثين مترا ، ويمتد الى
أقل من كيلو مترين ، حتى سمعت هديرا كهدير البحر ، وضرب
وجهى رذاذ كرهاذا المطر ، واذا المياه تندفع من عيون مفتوحة ،
بيضاء كالقطن المندوف ، يعلوها بخار كأنه دخان حريق ،
يستقبل ضوء الشمس ، فاذا قوس قزح دائم بالوانه الزاهية
صاعد من النهر ، يخيم على صخور الشلال ، الخضراء منها
والجرداء . هنا أيضا يد الطبيعة ويد الانسان تتصافحان فوق
أعجوبة منظر ، هو بلا ريب مفر ونادر بين مناظر العالم ، ليتنا
نتبها ، كما قلت للحاضرين - فننشئ فى هذا المكان فندقا أو
كازينو أو مشارب للشاي صغيرة فى بعض هذه الجزر الكثيرة ،
فجمال الجزان يجب أن يستغل ، أما قوته فان القعود عن
استغلالها حتى اليوم جريمة - ولن يخطر فى بال أحد فداحة

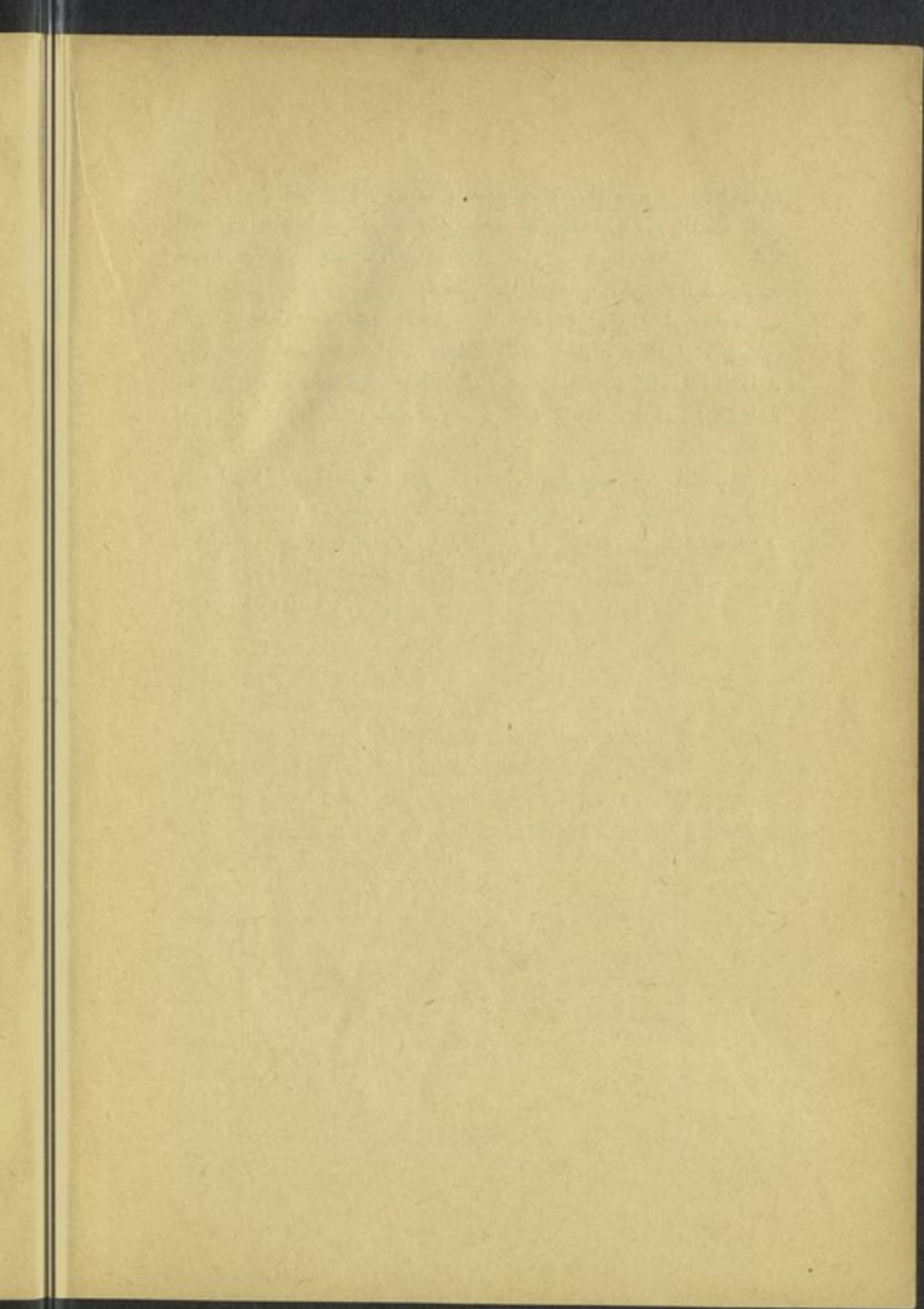
هذا الجرم حتى يرى بعينه كيف تنطلق من العيون هذه القوى الهائلة ليل نهار وتتبدد هباء ، لكان هذا الحزان قلب مصر الذي يتدفق بقوة دماء تنزف وتتبعثر ولا تحرك عضلة من العضلات أو عضوا من الاعضاء .. قال لى بعض مهندسى الحزان أن وزير روسيا المقوض عندما جاء أسوان التف حوله بعض شباب الموظفين يسألونه عن البلشفية ، فقال لهم وهو ينظر الى تلك المساقط المائية الجبارة : « لا تهتموا هكذا بالسياسة ، التفثوا الى اقتصاديات بلادكم ! » .

وأبحرنا بالقرب البخارى فى المياه المخزونة ، وهى كما أخبرونى حوالى خمسة آلاف مليون من الامتار المكعبة ، ينفق منها بحساب دقيق لحاجة مصر من الشرب والزرى والملاحة خلال العام ، ومررنا بمعبد « أنس الوجود » فرأينا الماء قد غمره ، ولم يبد منه سوى قمة مدخله ، على أن التلال المحيطة بنا فى ذلك المكان كانت حقا عجيبة ، هنالك أحجار هائلة من الجرانيت يقعد أحدها فوق الآخر مائلا ، وكأنه يتكى على قاعدة أحجار هائلة يقف أحدها فوق قاعدة فى حجم البندقة ، وهو فى جلسسته هذه لا يقع منذ الحقب ، وإن خيل لنا أنه لو نفخ فيه بالقم لوقع ، قال قائل من الحاضرين : عجبنى لهذا الحجر الذى لم يسقط للآن ! .. فقلت : « ذلك أنه لا يجد أحدا ها هنا يسقط عليه ، شأنه فى ذلك شأن « المصيبة » انها تخلق قبل الانسان ، وتقدر له قبل أن يولد ، وتكتب عليه فى لوحه المحفوظ قبل أن يوجد ، وتظل معلقة كهذا الحجر الى أن يظهر فتنقص عليه ! » .

عدنا بعدئذ الى الفندق ، وأقبل الليل ، وجاء معه السرور والبهجة والمرح ، فهذه ليلة رأس السنة الميلادية ، وكانت قد أعدت لنا مائدة حافلة بالأصدقاء ، فجلسنا فى ثياب السهرة ، ناكل الديك الرومى ، وننظر الى الرقص الدائر فى الحلبة تحت صخب الطبله والصناجة والسكسفون ، ورنين الكؤوس ، وصياح السكارى ، وصوت النفخ فى الزمارات من الورق المقوى واللعب من الصفيح التى يوزعونها على الحاضرين حثا لهم على احداث الضجيج وصراخ الذين يتراشقون بكرات الورق الملون ، وقد وضع الجميع فوق رؤوسهم الطراطر والتيجان الموشاة بماء الذهب والفضة على ورق شفاف مبرقش ، وكان أكثر

النزلاء من أثرياء الحرب - بالطبع - من المتمصرين والاجانب
المحليين ، هذا يومهم ، وفي هذه الامكنة تتدفق الدماء التي
امتصوها من اجساد العباد خلال سنوات طوال ..
وكننت قد وضعت - بفضل عناية اهل الكرم والبصيرة -
بين سيدتين جميلتين ، حتى اذا اطفئت الانوار في منتصف
الليل ، ايدانا باجتيازنا اعتاب العام الجديد ، اقبل وتقبلني
احدى هاتين الجميلتين المليحتين ، عملا بالعادة المتبعة والتقليد
المرعى ، فاطمأنت وطمعت وصبرت ، وجعلت ارقب الساعة
الموعودة مستبشرا ..

وأخيرا .. أطفئ النور . وعلا التهليل ، وتم التقبيل ثم
أعيد النور .. فنظرت - للمصيبة التي كتبت على - فاذا
بالجميلتين غير موجودتين .. واذا بي قد قبلت .. يا حفيظ ..
اللهم اجعلها خيرا سنة ١٩٤٦ ..
٥ يناير ١٩٤٦ ..



في الزّفة ..

- لماذا لم تتقدم الى الانتخابات ؟ ..
 سألتني أحدهم ، وأنا جالس على افريز قهوتي ، هذا السؤال
 الذي ألقى على مرارا .. وقد هممت بالرد المعتاد ! « على أى
 المبادئ أتقدم وأى البرامج أتخير وأنا رجل بعيد عن الاشخاص
 والشخصيات ؟ » ولكنني قبل أن أفتح فمى بهذا الجواب ،
 سمعت ضجيج موسيقى مقبلة ، وأبصرت جمعا من الناس يحملون
 صورة انسان ، ورهطا من الصبيان يوزعون اعلانات مطبوعة ،
 فحسبتها دعاية لرواية تعرض في أحد المسارح .. وتفرست
 في الصورة المحمولة ، فلم أجد لها صورة شارلى شابلن ولا أحد
 اخوان ماركس ولا نجيب الريحاني ولا على الكسار ، اذن من
 يكون هذا البطل المغوار ؟ .. ومددت يدي ألتمس اعلانا من
 تلك الاعلانات التي ينثرها علينا الموزعون ، وأنا أسأل أحدهم :
 - اللعب يا ولد الليلة ؟ ..

فحملت في وجهي قائلا « اللعب » ؟ ..
 وكنت عندئذ قد نشرت الاعلان في يدي وقرأت :
 « الى الأهل والعشيرة .. الى العمال والصّناع والفقراء

والمساكين ، انتخبوني وأنا أقلب لكم خيشكم الى حريير ، وشقائكم الى نعيم ، ونحاسكم الى ذهب .. » .

ولم تغير هذه القراءة من موقفى شيئا ، فقد قلت للموزع :

- وهذا الحاروى متى يحدث هذه « المعجزات » ؟ ! ..

ولم يرد على الرجل لأن الموكب كان قد ابتعد بموسيقاه الصاخبة بالحان : « يا عروسه يا زائنه الزفة .. الخ » ..

نزف صورة المرشح وهى تهتز وتتمايل فوق الاكتاف والرؤوس . وكان الصديق الذى يسألنى : « لماذا لم تتقدم الى الانتخابات »

لم يزل الى جوارى ينتظر جوابى ، فالتفت اليه قائلا :

- الموضوع كما ترى أصعب مما كنا نظن ، فلا بد لى قبل كل شئ من احضار موسيقى وصورة واعلانات ، ثم بعد ذلك لا بد لى من التلويح للعمال والصناع والفقراء والمساكين بوعود ، وبعد أن حول لهم صاحبنا هذا النحاس الى ذهب ، لم يبق لى أنا الا أن أحيى لهم موتاهم ! ..

فلم يبد على صديقى انه اقتنع ، وقال لى :

- على كل حال افعل كما يفعل الآخرون من المرشحين .

- لا أستطيع .. لا أملك مواهبهم .

المسألة لا تحتاج الى مواهب ، أنت رجل كسولى ، هذا كل ما فى الأمر ، ولكن اعلم أن هنالك سماسة يقومون عنك بأكثر الاعمال ، فمنافسك الخطير يمكن اقناعه بالمال لينزل لك عن الدائرة ، لأن مبدأ « خلو الرجل » المعمول به اليوم فى أزمة المساكن معمول به أيضا فى سوق المقاعد ، فإذا احتجت الى أصوات تضارب بها خصمك ابتاعوا لك منها ما شئت . الألف صوت مقابل عشرين أو ثلاثين جنيهها حسب العرض والطلب .. وإذا أردت خطباء وولاثم وحفلات فهنالك من يجهزها لك ويستأجر ما يلزم لها من أدوات ورجال .. فلا مشقة عليك كما ترى غير مجرد الركض أسبوعين فى أنحاء دائرتك الانتخابية من الصباح الى المساء تترضى الناخبين ، حتى تخور قواك .. ولكن ماذا يضريك هذا الجرى ما دمت تظفر آخر الأمر بمقعد مريح تجلس عليه طويلا فى أهنأ حال ..

- كل هذا حسن ولكن الوعود ..

- عد بما شئت .. ما الذى يخيفك ؟ هل أحد سيطيح عنقك

بالسيف اذا لم تنفذ ؟ ..

- أقصد بماذا أعد ؟ ..

- بكل ما يحلو لك ويخطر ببالك .. على شرط أن يكون كل شيء لمصلحة العامل والصانع والفلاح ، تلك هي النعمة المحبوبة الآن .. « موضة » اليوم هي اجتذاب هؤلاء بالوعود ، اعطهم من طرف اللسان ما استطعت من شهد وعسل وحلاوة طحينية ، ولا تهتم بالباقي .. المهم هو أن تدخل البرلمان ..

- دخلت البرلمان ..

- انتهينا ..

- وبعد ؟ ..

- لا يوجد بعد ، لقد صرت نائبا محترما ودخلت تحت « قبة » البرلمان بالطبل والزمر والموسيقى .. وهل يسأل العريس بعد الزفة والدخلة قائلا : « وبعد » ؟ لا يوجد « وبعد » غير .. الزغاريد والتصفيق والهناء بعد العناء ..

وسكت الصديق ، ولم أرد عليه ، واكتفيت بالاصغاء الى صوت الموسيقى في الموكب المتباعد يحملها النسيم خافتة الى أذني بلحن :

« عروستنا يا زابنة الزفة .. » .

١٣ يناير ١٩٤٥ ..

« تم »

المقدمة تعينه بالكمالات

بالحمد لله الذي جعل هذه الودع وعصافه الشرق

واللطف فيك "شرق أو غرب"

أخيراً أذكر أنني استعنت بمكتب مرفوع وأذكر اسماء

كتاب افانجولف

العدد القادم

ابيض
الحدود



العدد الرابع

سبتمبر سنة ١٩٥٤

يصدر عن دار « روز اليوسف »

الاشتراكات

١٢٠ قرشا عن سنة داخل القطر ٠٠

٦٠ قرشا عن نصف سنة داخل القطر ٠٠

١٨٠ قرشا عن سنة خارج القطر ٠٠

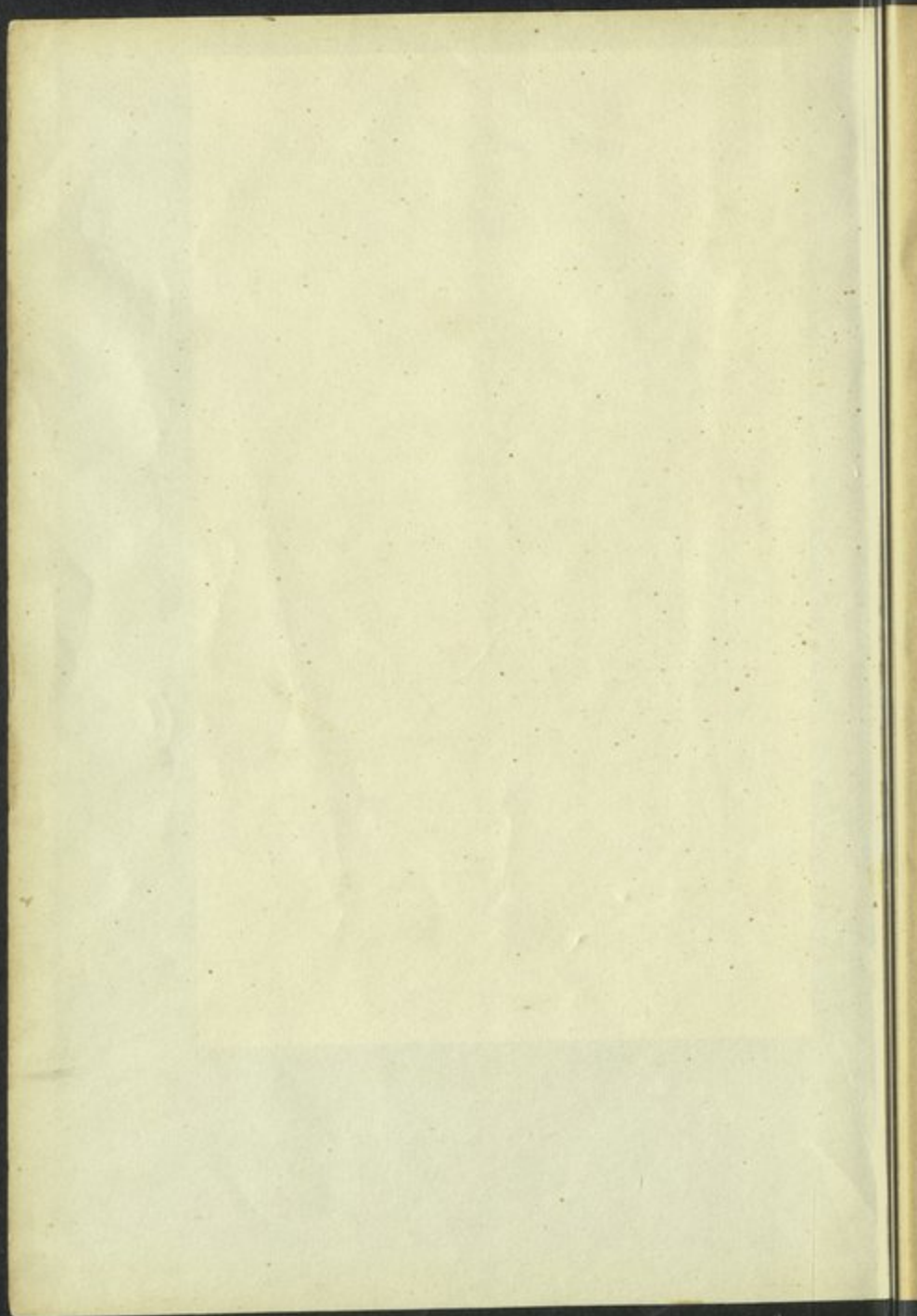
٩٠ قرشا عن نصف سنة خارج القطر ٠٠

رئيس التحرير المسئول : فاطمة اليوسف

جميع المكاتبات والرسائل ترسل باسم « روز اليوسف »

« كتاب روز اليوسف » بريد البرلمان - شارع محمد سعيد باشا

تليفون : ٢٠٨٨٥ - ٢٠٨٨٦ - ٢٠٨٨٧ - ٢٠٨٨٨



DATE DUE



الحكيم، توفيق،
تأملات في السياسة
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01015104

American University of Beirut



428.441
M1246
General Library

